وذكر هذا الأثر القرطبي موقوفا على علي رضي الله عنه

وعند المالكية قال في متن خليل في فصل شروط الجمعة ما نصه باستيطان بلد أو أخصاص لا خيم

وفسر الشارح الاستيطان بالعزم على الإقامة على نية التأبيد ولا تكفي نية الإقامة ولو طالت وجاء في المتن بعدها قوله ولزمت المكلف الحر الذكر بلا عذر المتوطن

وقال الشارح على كلمة متوطنا هو أيضا من شروط الوجوب يعني أنه يشترط في وجوبها الاستيطان ببلد يتوطن فيه ويكون محلا للإقامة يمكن الشراء فيه وإن بعدت داره من المنارة سمع النداء أو لم يسمع ولو على خمسة أميال أو ستة إجماعا فلا تجب على مسافر ولا مقيم ولو نوى إقامة زمنا طويلا إلا تبعا ا ه أي تبعا لغيره

وعند الشافعي قال في المهذب ما نصه ولا تصح الجمعة إلا في أبنية يستوطنها من تنعقد بهم الجمعة من بلد أو قرية لأنه لم تقم جمعة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا في أيام الخلفاء إلا في بلد أو قرية ولم ينقل أنها أقيمت في بدو فإن خرج أهل البلد إلى خارج البلد فصلوا الجمعة لم يجز لأنه ليس بوطن فلم تصح فيه الجمعة كالبدو وإن انهدم البلد فأقام أهله على عمارته فحضرت الجمعة لزمهم إقامتها لأنهم في موضع الاستيطان قال النووي في الشرح ما نصه قال أصحابنا يشترط لصحة الجمعة أن تقام في أبنية مجتمعة يستوطنها شتاء وصيفا من تنعقد بهم الجمعة.

قال الشافعي والأصحاب سواء كان البناء من أحجار أو أخشاب أو طين أو قصب أو سعف أو غيرها وسواء فيه البلاد الكبار ذوات الأسواق والقرى الصغار والأسراب المتخذة وطنا فإن كانت الأبنية متفرقة لم تصح الجمعة بلا خلاف لأنها لا تعد قرية ويرجع في الاجتماع والتفرق إلى العرف

وأما أهل الخيام فإن كانوا ينتقلون من موضعهم شتاء وصيفا وهي مجتمعة بعضها إلى بعض فقولان ثم قال أصحهما باتفاق الأصحاب لا تجب عليهم الجمعة ولا تصح منهم وبه قطع الأكثرون وبه قال مالك وأبو حنيفة ثم ذكر الدليل بقوله لحديث "صلوا كما رأيتموني أصلي" ولم يصل هكذا.

(178/8)

وعند الحنابلة قال في المغني ما نصه

فصل: فأما الاستيطان فهو شرط في قول أكثر أهل العلم وهو الاستيطان في قرية على الأوصاف المذكورة لا يظعنون عنها صيفا ولا شتاء ولا تجب على مسافر ولا على مقيم في قرية يظعن أهلها عنها في الشتاء دون الصيف أو في بعض السنة.

فإن خربت القرية أو بعضها وأهلها مقيمون فيها عازمون على إصلاحها فحكمها باق في إقامة الجمعة بها وإن عزموا على النقلة عنها لم تجب عليهم لعدم الاستيطان

هذه خلاصة أقوال أهل المذاهب الأربعة متفقة على اشتراط الوطن والاستيطان وإن اختلفت في صفة الوطن من مصر أو قرية أو نحوها مبينة بحجر أو طين أو أخشاب أو خيام ثابتة صيفا وشتاء على ما تقدم وقد انفرد أبو حنيفة ومعه صاحبه أبو يوسف باشتراط وجود الأمير والقاضي الذي يقيم الحدود احترازا من القاضي الذي لا يقيم الحدود كقاضي السوق أو إذا كان من يلي القضاء امرأة على مذهبه في ذلك وهي لا تقضي في الحدود لعدم جواز شهادتها فيها واكتفى الأئمة الثلاثة بمطلق الاستيطان ومعلوم أن الاستيطان يستلزم الإمارة شرعا وعقلا.

أما شرعا فلقوله صلى الله عليه وسلم "ما من ثلاثة لا يؤمرون عليهم أميرا إلا استحوذ عليهم الشيطان" .

وعقلا فإن مستوطنين لا تسلم أحوالهم من خلافات ومشاحة فيما بينهم فلا بد من شخص يرجعون إليه وهو في معنى الأمير المطلوب كما أن الاستيطان يستلزم السوق لحوائجهم كما هو معلوم عرفا

وقد استدل الجمهور بحديث ابن عباس رضي الله عنه "أن أول جمعة جمعت بعد جمعة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بقرية من قرى البحرين يقال لها جواثي" وبحديث أبي أمامة أنه جمع بهم بالمدينة قبل مجيء النبي صلى الله عليه وسلم في هزم من حرة بني بياضة يقال له نقيع الخضمات لا يستلزم المصر الذي اشترطه أبو حنيفة رحمه الله.

(179/8)

وأجاب الأحناف عن ذلك بعدم المعارضة بين حديث علي وحديث ابن عباس وفعل أبي أمامة وقالوا إن قول علي لا يكون إلا عن سماع ولأن قوله تعالى﴿ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ليس على إطلاقه بإتفاق الأمة إذ لا يجوز إقامتها في البراري إجماعا ولا في كل قرية عند ابن عباس بل يشترط ألا يظعن أهلها عنها صيفا ولا شتاء فكان خصوص المكان مرادا فيها إجماعا فقدر القرية من أخذ بحديث ابن عباس بأنها القرية الخاصة وقدر الأحناف المصر وقالوا هو أولى لنص حديث علي"إلا في مصر جامع" وقالوا إن إقامتها في قرية جواثي غاية ما فيه تسمية جواثا قرية وهذه التسمية هي عرف الصدر الأول وهو لغة القرآن في قوله تعالى﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [31/43]، أي مكة والطائف ومكة بلا شك مصر وفي الصحاح أن جواثا حصن بالبحرين فهي مصر إذ الحصن لا يخلو عن حاكم عليهم وعالم أما صلاة أبي أمامة فلم تكن عن علم ولا تقرير من النبي صلى الله عليه وسلم ولا كانت شرعت الجمعة آنذاك فلا حجة فيه والذي يقتضيه النظر بين هذه الأقوال والله تعالى أعلم أن رأي الجمهور أرجح ويتمشى مع قواعد مذهب أبي حنيفة في الجملة لأن الأحناف يتفقون مع الجمهور على تسمية المصر قرية كتسمية الطائف ومكة قرى وجاء في القرآن مكة ﴿ أُمَّ الْقُرَى ﴾ [92/6]، فالقرية أعم من المصر ومذهب أبي حنيفة تقديم العام على الخاص في كثير من الأمور كما في حديث"فيما سقت السماء العشر" فقدمه على حديث "ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة" ومن هذا كله يتضح أن الاستيطان مجمع عليه فلا تصح في غير وطن ولا تلزم غير مستوطن ومن قال بغير ذلك فقد خالف الأئمة وشذ عن الأمة وليس له سلف فيما ذهب إليه والذي قاله الجمهور يشهد له سياق القرآن الكريم بالإيماء والإشارة لأننا لو أخذنا بعين الاعتبار الأمر بالسعي إلى ذكر الله وترك البيع حتى لا يشغل عنها ثم الانتشار في الأرض بعد قضائها لتحصل عندنا من مجموع ذلك كله أن هناك جماعة نوديت وكلفت باستجابة النداء والسعي ثم الكف عن البيع الذي يشغل عن السعي مثل هذا البيع الذي يكلفون بالكف عنه والذي يخشى منه شغل الناس عن السعي إلى الجمعة لا يكون عقدا بين اثنين فقط

ولا يكون عملا فرديا بل يشعر بأنه عمل بين أفراد عديدين ومبايعات متعددة مما يشكل حالة السوق والسوق لا يكون في البوادي بل في القرى وللمستوطنين

(180/8)

والعادة أن أهل البوادي ينزلون إلى القرى والأمصار للتزود من أسواقها وإذا وجد السوق ووجدت الجماعة اقتضى ذلك وجود الحاكم لاحتمال المشاحة والمنازعات كما تقدم استلزام ذلك شرعا وعقلا كما أن قوله تعالى ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ ، يدل على الكثرة لأن مادة الانتشار لا تطلق على الواحد ولا الاثنين كما في حديث "البيعان بالخيار ما لم يتفرقا" ومنه انتشار الخبر لا يصدق على ما يكون بين اثنين أو أكثر إذا كانوا يتكتمون فإذا استفاض وكثر من يعرفه قيل له انتشر الخ.

قال صاحب معجم مقاييس اللغة في مادة نشر النون والشين والراء أصل صحيح يدل على فتح شيء وتشعبه فقوله وتشعبه يدل على الكثرة.

وقال يقال: اكتسى البازي ريشا نشرا أي منتشرا واسعا طويلا ومعلوم أن ريش البازي كثير وهذا الوصف لا يتأتى من نفر قلائل في بادية بل لا يتأتى تحققه إلا من أهل القرى المستوطنين وفعلنا في هذا قد أوضحنا هذه المسألة خاصة لهؤلاء الذين يقولون إن الجمعة كالجماعة تصح من أي عدد في أي مكان على أية حالة كانوا وهو قول في الواقع لم يكن لهم فيه سلف وخالفوا به السلف والخلف مع ما في قولهم من هدم حكمة التشريع في إقامة الجمعة حيث إننا وجدنا حكمة الجماعة في العدد القليل ولأهل كل مسجد في كل ضاحية

ثم تأتي الجمعة لأهل القرية والمصر ومن في ضواحيها على بعد خمسة أو ستة أميال كما قال المالكية وكما كان السلف يأتون إلى المدينة زمن النبي صلى الله عليه وسلم لما فيه من تجمع للمسلمين على نطاق أوسع من نطاق الجماعة.

ثم يأتي العيد وهو على نطاق أوسع فيشمل حتى النساء يحضرن ذلك اليوم ثم يأتي الحج يأتون إليه من كل فج

عميق ولعل مما يشهد لهذا ويرد على من خالفه ما جاء في اجتماع العيد والجمعة إذ خيرهم النبي صلى الله عليه وسلم بين النزول إلى الجمعة وبين الاكتفاء بالعيد أي أهل الضواحي

ثم أخبرهم بأنه سيصلي الجمعة فلو أن الجمعة تصح منهم في منازلهم وضواحيهم لأرشدهم إلى ذلك وأعفاهم من النزول سواء في يوم العيد الذي يكون في يوم الجمعة، أو

(181/8)

في الجمعة من غير يوم العيد بل كانوا ينزلون في أطراف المدينة كما هو معلوم والعلم عند الله تعالى

العدد في الجمعة

والواقع أن مسألة العدد في الجمعة قد كثر الخلاف فيها فمن قائل تصح بواحد مع الإمام وعزاه ابن رشد للطبري ومن قائل باثنين مع الإمام وعزاه القرطبي للحسن ومن قائل بثلاثة مع الإمام وعزى لأبي حنيفة ومن قائل باثني عشر رجلا وعزاه القرطبي لربيعة ومن قائل بثلاثين ومن قائل بأربعين وهو قول الشافعي وأحمد ومن قائل بكل عدد يتأتى في قرية مستوطنة وألا يكونوا ثلاثة ونحوها وهو قول مالك قال في متن خليل وبجماعة تتقرى بهم قرية بلاحد

وقال في الشرح أي جماعة يمكنهم الدفع عن أنفسهم في الأمور الكثيرة لا النادرة وذلك يختلف بحسب الجهات إلى أن قال وأفهم كلام المؤلف أن الاثني عشر لا تتقرى بهم قرية فقوله بلاحد أي بعد الاثني عشر اهـ

والواقع أن كل هذه الأقوال ليس عليها مستند يعول عليه في العدد بحيث لو نقص واحد بطلت ولكن الذي يشهد له الشرع من السماحة واليسر هو ما قاله مالك رحمه الله وما قدمنا من أن السياق يدل على وجود جماعة لها سوق ويتأتى منها الانتشار في الأرض بعد انقضاء الصلاة ولم نطل الكلام في هذه المسألة لعدم وجود نص صريح فيها وكل ما يستدل به فهو حكاية حال تحتمل الزيادة والنقص ولا يعمل بمفاهيمها والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ الآية.

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه التنبيه على ما فيها من مبحث أصولي وهو الأمر بعد الحظر وأصح ما فيه أنه يرد الأمر المحظور إلى ما كان عليه قبل ورود الحظر عليه

مسألة:

وقت السعي إلى الجمعة ظاهر قوله تعالى ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ ، أن السعي يكون بعد النداء وعند ترك البيع ومفهومه

(182/8)

أن قبل النداء لا يلزم السعي ولا ترك البيع وهذا ظاهر من النص ولكن جاءت نصوص للحث على البكور إلى الجمعة منها قوله صلى الله عليه وسلم "من بكر وابتكر ومشى ولم يركب وصلى ما تيسر له" الحديث

وحديث "من راح في الساعة الأولى" إلى آخر الحديث فكان البكور مندوبا إليه وهذا أمر مسلم به ولكن وقع الخلاف بين مالك والجمهور في مبدأ البكور ومعنى الساعة الأولى أي ساعة لغوية أو زمنية وهل هي الأولى من النهار أو الأولى بعد الأذان فقال مالك إن الساعة لغوية وهي الأولى بعد الأذان إذ لا يجب السعي إلا بعده وقبله لا تكليف به.

وحمل الجمهور الساعة على الساعة الزمنية وأن الأولى هي الأولى من النهار والراجح ما ذهب إليه الجمهور لعدة أمور:

أولا في لفظ حديث البكور لأن لفظ البكور لا يكون إلا لأول النهار ولا يقال لما بعد الزوال بكور بل يسمى عشيا كما في قوله تعالى ﴿ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ 19/11]، وتكرار: "بكر وابتكر" ، يدل على أنه في بكرة النهار وأوائله، وكذلك لفظة "من راح" ، لأن الرواح لأول النهار.

ثانيا في الحديث "وصلى ما تيسر" ، له دليل قاطع على أن هناك زمنا يتسع للصلاة بقدر ما تيسر له أما على

مذهب مالك فلا متسع لصلاة بعد النداء ولا سيما في زمنه صلى الله عليه وسلم يكن إلا أذان واحد وبعد النداء فلا متسع للصلاة.

ثالثا ما جاء عن بعض السلف كما تقدم أنه كان يصلي أربعا وثماني واثنتي عشرة ركعة وهذا كله لا يكون مع الساعات اللغوية وما جاء عند النيسابوري من قوله في تفسيره وكانت الطرقات في أيام السلف وقت السحر وبعد الفجر غاصة بالمبكرين إلى الجمعة يمشون بالسرج.

وقيل أول بدعة أحدثت في الإسلام ترك البكور إلى الجمعة والذي يقتضيه النظر في هذه المسألة هو أن زمن السعي له جهتان:

جهة وجوب وإلزام وهذا لا شك أنه بعد النداء إلا من كان محله بعيدا بحيث لو انتظر حتى ينادى لها لا يدركها فيتعين عليه السعي إليها قبل النداء اتفاقا لأنه لا يتمكن من

(183/8)

أداء ما وجب عليه من صلاة الجمعة إلا بذلك

وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب وهذا مخصوص من ظاهر النص المتقدم

الجهة الثانية جهة ندب واستحباب وهذا لا يتقيد بزمن وإنما هو بحسب ظروف الشخص فمن تمكن من البكور ولم يتعطل ببكوره ما هو ألزم منه فيندب له البكور وبحسب ما يكون بكوره في الساعات الخمس المذكورة في الحديث يكون ماله من الأجر ويشهد لهذا المعنى أمران

الأول: حديث "الملائكة على أبواب المساجد يكتبون الأول فالأول فإذا حضر الإمام طوت الصحف وجلسوا يستمعون الذكر" فكتابة الأول فالأول قبل خروج الإمام تدل على فضل الأولية قبل النداء كما تقدم

الأمر الثاني: أننا وجدنا لكل واجب مندوبا والسعي إلى الجمعة عند النداء واجب فيكون له مندوب وهو السعي قبل النداء فكما للصلاة والصيام والزكاة واجب ومندوب فكذلك للسعي واجب ومندوب فواجبه

بعد النداء ومندوبه قبله والله تعالى أعلم

الغسل للجمعة

في قوله تعالى ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ترتيب السعي إلى ذكر الله على النداء ومعلوم أن هذا مقيد بسبق الطهر إجماعا وقد جاء في قوله تعالى: ﴿ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [6/5]، فكانت الطهارة بالوضوء شرطا في صحة الصلاة

وهنا في خصوص الجمعة لم يذكر شيء في خصوص الطهر لها بوضوء أو غسل

وقد جاءت أحاديث في غسل الجمعة منها حديث أبي سعيد من قوله صلى الله عليه وسلم "غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم" وفي لفظ "طهر يوم الجمعة واجب على كل محتلم كطهر الجنابة" وهذا نص صريح في وجوب الغسل على كل من بلغ سن الحلم

وجاء حديث آخر: "من توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت ومن اغتسل فالغسل أفضل"، وهذا نص صريح في أفضلية الغسل على الوضوء وبالتالي صحة الجمعة بالوضوء وهذا مذهب الجمهور.

(184/8)

وقد جاء عند مالك في الموطإ أن عثمان دخل يوم الجمعة وعمر يخطب فعاتبه على تأخره فأخبره أنه ما إن سمع النداء حتى توضأ وأتى إلى المسجد فقال له والوضوء أيضا وذلك بمحضر من الصحابة فلم يأمره بالعودة إلى الغسل ولو كان واجبا لما تركه عثمان من نفسه ولا أقره عمر وتركه على وضوئه

فقال الجمهور إن الحديث الأول قد نسخ الوجوب فيه بحديث المفاضلة المذكور واستدلوا على ذلك بأمرين الأول قصة عمر مع عثمان هذه.

والثاني قول عائشة رضي الله عنها كانوا في أول الأمر هم فعلة أنفسهم فكانوا يأتون إلى المسجد ويشتد عرقهم فتظهر لهم روائح فعزم عليهم صلى الله عليه وسلم بالغسل ولما فتح الله عليهم وجاءتهم العلوج وكفوا مؤنة

العمل رخص لهم في ذلك وهذا هو مذهب الجمهور كما قدمنا

وعند الظاهرية وجوب الغسل ولكن لليوم لا للجمعة لنص الحديث غسل يوم الجمعة ولم يقل الغسل لصلاة الجمعة واستدلوا لما ذهبوا إليه من النصوص في تعهد الشعور والأظافر والغسل بصيغة عامة كل يوم على الإطلاق وقيدوه في الغسل بخصوص الجمعة وعليه فإن من لم يغتسل عندهم قبل الصلاة فعليه أن يغتسل بعدها وأنه ليس شرطا عندهم لصحتها والذي يظهر هو صحة مذهب الجمهور لأمرين:

الأول: أن مناسبة الغسل في هذا اليوم أنسب ما تكون لهذا التجمع كما أشارت عائشة رضي الله عنها فإذا أهدرنا هذه المناسبة كان يوم الجمعة وغيره سواء

الثاني: أن سياق الآية يشير إشارة خفية إلى عدم وجوب الغسل لأنه لم يذكر نوع طهارة عند السعي بعد الأذان ومعلوم أنه لا بد من طهر لها فيكون إحالة على الآية الثانية العامة في كل الصلوات﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ الآية، فيكتفي بالوضوء وتحصل الفضلية بالغسل والعلم عند الله تعالى قوله تعالى ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً﴾ .

في عود الضمير على التجارة وحدها مغايرة لذكر اللهو معها

وقال الزمخشري حذف أحدهما لدلالة المذكور عليه وذكر قراءة أخرى انفضوا

(185/8)

إليه يعود الضمير إلى اللهو وهذا توجيه قد يسوغ لغة كما في قول نابغة ذبيان:

وقد أراني ونعما لاهيين بها . . . والدهر والعيش لم يهمم بإمرار

فذكر الدهر والعيش وأعاد عليهما ضميرا منفردا اكتفاء بأحدهما عن الآخر للعلم به وهو كما قال ابن مالك وحذف ما يعلم جائز.

وقد ذكر الشيخ رحمه الله لهذا نظائر في غير عود الضمير كقوله تعالى﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ

لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾ [81/16]، فالتي تقي الحر تقي البرد فاكتفي بذكر أحدهما لدلالته على الآخر ولكن المقام هنا خلاف ذلك

وقد قال الشيخ عن هذه الآية في دفع إيهام الاضطراب لا يخفي أن أصل مرجع الضمير هو الأحد الدائر بين التجارة واللهو بدلالة لفظة﴿ أو ﴾ على ذلك ولكن الضمير رجع إلى التجارة وحدها دون اللهو فبينه وبين مفسره بعض منافاة في الجملة والجواب أن التجارة أهم من اللهو وأقوى سببا في الانفضاض عن النبي صلى الله عليه وسلم لأنهم انفضوا من أجل العير واللهو كان من أجل قدومها مع أن اللغة يجوز فيها رجوع الضمير لأحد المذكورين قبله أما في العطف ب: ﴿ أو ﴾ فواضح كقوله تعالى ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا ﴾ [112/4].

وأما الواو فهو فيها كثير كقوله﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ [45/2]، وقوله ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ [62/9]، وقوله ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [34/9]. ا هـ.

أي أن هذه الأمثلة كلها يذكر فيها أمران ويعود الضمير على واحد منهما.

وبناء على جواب الشيخ رحمة الله تعالى عليه يمكن القول بأن عود الضمير على أحد المذكورين إما لتساويهما في الماصدق وإما لمعنى زائد فيما عاد عليه الضمير.

فمن المتساويين قوله تعالى﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ﴾ لتساويهما في النهي والعصيان ومما له معنى زائد قوله تعالى ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ ، وإنها أي الصلاة لأنها أخص من عموم الصبر ووجود الأخص يقتضي وجود الأعم دون العكس ولأن الصلاة وسيلة للصبر كما في الحديث كان صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمرهم فزع إلى الصلاة.

(186/8)

وكذلك قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا ﴾ ، أي الفضة لأن كنز الفضة أوفر وكانزوها أكثر فصورة الكنز حاصلة فيها بصفة أوسع ولدى كثير من الناس فكان توجيه الخطاب إليهم أولى ومن ناحية أخرى لما كانت الفضة من الناحية النقدية أقل قيمة والذهب أعظم كان في عود الضمير عليها تنبيه بالأدنى على الأعلى فكأنه أشمل وأعم وأشد تخويفا لمن يكنزون الذهب

أما الآية هنا فإن التوجيه الذي وجهه الشيخ رحمة الله تعالى عليه لعود الضمير على التجارة فإنه في السياق ما يدل عليه وذلك في قوله تعالى بعدها ﴿ قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ﴾ [11/62]، فذكر السببين المتقدمين لانفضاضهم عنه صلى الله عليه وسلم ثم عقبه بقوله تعالى بالتذييل المشعر بأن التجارة هي الأصل بقوله ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [11/62] والرزق ثمرة التجارة فكان هذا بيانا قرآنيا لعود الضمير هنا على التجارة دون اللهو والعلم عند الله تعالى

تنبيه:

قال أبو حيان عن ابن عطية تأمل إن قدمت التجارة على اللهو في الرؤية لأنها أهم وأخرت مع التفضيل لتقع النفس أولا على الأبين اهـ

يريد بقوله في الرؤية ﴿ وَإِذَا رَأَوْا ﴾ وبقوله مع التفضيل ﴿ قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ﴾ أي لأن اللهو أبين في الظهور والذي يظهر والعلم عند الله تعالى أنه عند التفضيل ذكر اللهو للواقع فقط لأن اللهو لا خير فيه مطلقا فليس محلا للمفاضلة وأخر ذكر التجارة لتكون أقرب لذكر الرزق لارتباطهما معا فلو قدمت التجارة هنا أيضا لكان ذكر اللهو فاصلا بينها وبين قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ ، وهو لا يتناسق مع حقيقة المفاضلة.

(187/8)

مكتبة أمة محمد صلى الله عليه وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المنافقون

قوله تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: 1]

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في مذكرة الدراسة الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمنافقون جمع منافق وهو من يظهر الإيمان ويسر الكفر.

﴿ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ أي قالوا ذلك نفاقا وخوفا ولم يقولوه خالصا من قلوبهم ولذا قال الله﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ ، وإنما شهد عليهم بالكذب مع أن ظاهر قولهم حق لأن بواطنهم تكذب ظواهرهم لأن الأعمال بالنيات وإنما كسر همزة إن في المواضع الثلاثة لأنها بعد فعل معلق باللام ولولا ذلك لفتحت لأنها في محل المصدر.

ولأبي حيان قول حسن في ذلك إذ قال إن قولهم ﴿ نَشْهَدُ ﴾ يجري مجرى اليمين ولذلك تلقى بما يتلقى به القسم وكذا فعل اليقين والعلم يجري مجرى القسم بقوله﴿ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ ، أعني بقصد التوكيد بإن واللام ثم قال وأصل الشهادة أن يواطىء اللسان القلب هذا بالنطق وذلك بالاعتقاد فأكذبهم الله وفضحهم بقوله ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾

أي لم تواطىء قلوبهم ألسنتهم على تصديقك واعتقادهم أنك غير رسول فهم كاذبون عند الله وعند من عرف حالهم أو كاذبون عند أنفسهم إذ أنهم يعتقدون أن قولهم﴿ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ ، كذب

وجاء قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ بين شهادتهم وتكذيبهم إيذانا بأن الأمر كما قالوا على حد قوله تعالى ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [84/28–29].

(188/8)

تنبيه

في هذه الآية مبحث بلاغي في تقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء فقالوا الخبر ما احتمل الصدق والكذب لذاته

فذهب الجمهور إلى أنه ينحصر فيهما بلا واسطة والمخبر إما صادق وإما كاذب وهذا بناء على مطابقة الخبر للواقع أو عدم مطابقته ولا علاقة له بالاعتقاد

قال السعد في التلخيص وقال بعض الناس صدق الخبر وكذبه مطابقته لاعتقاد المخبر لا للواقع واستدلوا لذلك بأن عدم مطابقته للواقع يكون من قبيل الخطأ لا من قبيل الكذب

ولحديث عائشة رضي الله عنها عن عمر "ما كذب ولكنه وهم" وهذا مذهب الجاحظ وهو صدق الخبر مطابقته للواقع مع اعتقاد المخبر مستدلا بالآية﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ ، مع قولهم ﴿ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ فكذبهم الله مع أن خبرهم مطابق للواقع لكنهم لم يعتقدوا ما قالوا فكذبهم الله لذلك

ومقتضى مذهب الجاحظ القول بوجود واسطة بين الصدق والكذب وهي عدم اعتقاد المخبر لما أخبر به ولو طابق الواقع ولكن ما قدمناه من كلام أبي حيان يرد هذا المذهب ويبطل استدلال الجاحظ ومن وافقه بالآية لأن تكذيب الله إياهم منصب على قولهم قالوا نشهد والشهادة أخص من الخبر ولأنهم ضمنوا شهادتهم التأكيد المشعر بالقسم والموحي بمطابقة القول لما في القلب ولا سيما في هذا المقام وهو مقام الإيمان والتصديق فأكذبهم الله في كون إخبارهم بصورة الشهادة والحال أنهم لم يأتوا بالشهادة على وجهها وهو عدم مطابقتها لاعتقادهم.

والقرآن ينفي وجود واسطة بين الصدق والكذب كما في قوله تعالى﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ [32/10].

أما فقه اليمين وما تنعقد به وأحكامها فقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه هذا المبحث مستوفي في سورة المائدة عند قوله تعالى﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾ الآية[89/5] .

(189/8)

وذكر في معنى لغو اليمين عند العلماء قولين

الثاني منهما هو أن يحلف على ما يعتقده فيظهر خلافه وعزاه لمالك وأنه مروي عن عائشة وأبي هريرة وابن عباس في أحد قوليه وساق أسماء كثيرين ولا يبعد أن يقال ينبغي أن نفرق بين الحد اللغوي عند البلاغيين والحد الشرعي حيث يقبل شرعا ما كان مبناه على غلبة الظن عند المتكلم لأنه حد علمه ولعدم المؤاخذة في الشرع في مثل ذلك والله أعلم.

قوله تعالى ﴿ اتَّخَذُوا أَيمانَهُمْ جُنَّةً ﴾ .

قرئ ﴿ أَيمانَهُمْ ﴾ بفتح الهمزة جمع يمين وقرئ بكسرها من الإيمان ضد الكفر أي ما أظهروه من أمور الإسلام.

ومما تقدم أن من أنواع البيان إذا كان في الآية قراءتان وفيها ما يرجح إحداهما وفق كلام أبي حيان تخريجه على اليمين.

وللشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في مذكرة التدريس قوله الإيمان جمع يمين وهي الحلف والجنة الترس وهو المجن الذي تتقي به السيوف والنبال والسهام في الحرب والمعنى أن المنافقين إذا ظهر شيء من نفاقهم أو سمعت عنهم كلمة كفر حلفوا بالله أنهم ما قالوا ذلك وما فعلوه فيجعلون حلفهم ترسا يقيهم من مؤاخذة النبي صلى الله عليه وسلم بذنبهم

كما قال تعالى ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ ﴾ الآية[74/9] .

وقال ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ ﴾ [56/9] . وقال ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾ الآية[62/9] ونحو ذلك فهذه نصوص تدل على أنهم يحلفون أيمانا على إيمانهم

ومن جهة المعنى أن أيمانهم وحلفهم منصب على دعوى إيمانهم فلا انفكاك بين اليمين والإيمان لأنهم يحلفون أنهم مؤمنون واليمين أخص من الإيمان وحمله على الأخص يقتضي وجود الأعم فالحلف على الأيمان يستلزم دعوى الإيمان وزيادة ومجرد دعوى الإيمان لا يستلزم التأكيد بالإقسام والحلف

قوله تعالى ﴿ فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه أي بسبب اتخاذهم أيمانهم جنة وخفاء كفرهم الباطن تمكنوا من صد بعض الناس عن سبيل الله لأن المسلمين يظنونهم إخوانا وهم أعداء وشر الأعداء من تظن أنه صديق ولذا حذر الله نبيه منهم بقوله ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ﴾ [4/63]، وصدهم الناس عن سبيل الله كتعويقهم عن الجهاد كما بينه بقوله ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ الآية[18/33] وبقوله ﴿ وَقَالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ﴾ الآية[81/9] . وقوله ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ﴾ الآية[168/3] .

قوله تعالى ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه﴿ سَاءَ ﴾ فعل جامد لإنشاء الذم بمعنى بئس اهـ

وقد بين تعالى تلك الإساءة من المنافقين في عدة جهات منها قوله تعالى﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [9/2] .

وقوله ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [142/4] .

وكان خداعهم بالقول وبالفعل وخداعهم بالقول في قوله عنهم﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [11/48] .

وخداعهم في الفعل في قوله عنهم﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ ﴾ [142/4] .

وفي الجهاد قولهم ﴿ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً ﴾ [13/33] .

قوله تعالى ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ .

في هذه الآية نص على أن الطبع على قلوبهم نتيجة لكفرهم بعد إيمانهم ومثله قوله تعالى﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ [155/4] .

وكقوله ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [5/61] .

وقال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عن بعض العلماء ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ﴾ ، أي بألسنتهم نفاقا ﴿ ثُمَّ كَفَرُوا ﴾ بقلوبهم في الحقيقة اهـ.

وتقدم في أول سورة البقرة ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ [7/2] فهم لا يعقلون بعد هذا الطبع ومع هذا الختم كقوله تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ [57/18] .

قوله تعالى ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ﴾ .

فيه ما يشعر بحصر العداوة في المنافقين مع وجودها في المشركين واليهود ولكن إظهار المشركين شركهم وإعلان اليهود كفرهم مدعاة للحذر طبعا.

أما هؤلاء فادعاؤهم الإيمان وحلفهم عليه قد يوحي بالركون إليهم ولو رغبة في تأليفهم فكانوا أولى بالتحذير منهم لشدة عداوتهم ولقوة مداخلتهم مع المسلمين مما يمكنهم من الاطلاع على جميع شؤونهم

وقد جاء في آخر السورة كله كاشفا لحقيقتهم ومبينا شدة عداوتهم سواء في قولهم ﴿ لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا ﴾ [7/63] ، أو في تآمرهم على المسلمين في قولهم ﴿ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ﴾ [8/63] .

وقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [6/63] .

﴿ هم ﴾ هنا المنافقون كقوله تعالى ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [67/9] .

قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ .

تقدم بيانه للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عند قوله تعالى ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [63/39] .

قوله تعالى ﴿ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ما فيها من القول بالموجب

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ .

(192/8)

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الكلام عليه عند قوله تعالى﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [46/18]، وقد بين سبب لهو المال والولد عن ذكر الله بأن العبد يفتن في ذلك في قولهتعالى الآتي في سورة التغابن ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [15/64] .

أي لمن سخر المال في طاعة الله وبالتأمل في آخر هذه السورة وآخر التي قبلها نجد اتحادا في الموضوع والتوجيه فهناك قوله تعالى ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [11/62]

وجاء عقبه مباشرة سورة ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ [1/63]، ولعله مما يشعر أن الذين بادروا بالخروج للعير هم المنافقون وتبعهم الآخرون لحاجتهم لما تحمل العير وهنا بعد ما ركن المنافقون للمال جاء﴿ لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا﴾ فكانت أموالهم فتنة لهم في مقالتهم تلك فحذر الله المؤمنين بقوله﴿ لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ، سواء كان المراد بالأموال خصوص ذكر الخطبة والعير المتقدم ذكرهما أو عموم العبادات والمكتسبات

قوله تعالى ﴿ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ .

فيه الإنفاق من بعض ما رزقهم وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علي وعليه مبحث الاقتصاد في الإنفاق عند قوله في أول سورة البقرة ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [3/2] . قوله تعالى ﴿ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾

.

وكذلك لا يقدمها عليه كما في قوله تعالى﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا

يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [49/10].

وبين تعالى عدم تأخرهم مع أنهم وعدوا بأنهم يصدقون ويكونون من الصالحين مشيرا للسبب في قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [11/64]، أي لو أخركم لأن شيمتكم الكذب وخلف الوعد وأن هذا دأب أمثالهم كما بينه تعالى في قوله﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ

(193/8)

الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ [44/14].

وقوله تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴾ [23/99–100].

فقوله تعالى عنهم ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ تعادل في ما صدقها.

قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

أي لو أخرهم لن يصدقوا ولن يكونوا من الصالحين والله تعالى محيط علمه بما سيكون كإحاطته بما قد كان والله تعالى أعلم.

(194/8)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة التغابن

قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

[التغابن: 1]

تقدم معنى التسبيح ومدلول ما في السماوات وما في الأرض في أول سورة الحشر والحديد وهذه السورة آخر السور المفتتحة بالتسبيح والفعل هنا بصيغة المضارع الدال على التجدد والحدوث والتذييل هنا بصفات الكمال لله تعالى بقوله ﴿ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ للإشعار بأن الملك لله وحده لا شريك له نافذ فيه أمره ماض فيه حكمه بيده أزمة أمره كما في قوله تعالى ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [1/67] .

وكقوله في سورة يس ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [36/82-83] .

ومن قدرته على كل شيء وتصريفه لأمور ملكه كيف يشاء أن جعل العالم كله يسبح له بحمده تنفيذا لحكمة فيه كما في قوله ﴿ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [28/70]، فجمع الحمد والحكم معا لجلالة قدرته وكمال صفاته قوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [التغابن: 2] .

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في مذكرة الدراسة المعنى أن الله هو الذي خلقكم وقدر على قوم منكم الكفر وعلى قوم منكم الإيمان ثم بعد ذلك يهدي كلا لما قدره عليه كما قال ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ [87/3] ، فيسر الكافر إلى العمل بالكفر ويسر المؤمن للعمل بالإيمان كما قال صلى الله عليه وسلم "اعملوا فكل ميسر لما خلق له" اهـ.

ومن المعلوم أن هذا النص من مازق القدرية والجبرية وأن أهل السنة يؤمنون أن كلا بقدر الله ومشيئته كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في العقيدة الواسطية وهم أهل السنة وسط بين

قول: إن العبد مجبور على عمله لا اختيار له كالورقة في مهب الريح وبين قول إن العبد يخلق فعله بنفسه ويفعل ما يريد بمشيئته.

وأهل السنة يقولون بقوله تعالى ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [29/81].

وقد ذكر القرطبي أقوال الطائفتين من أهل العلم ولكل طائفة ما استدلت به الأولى عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال "خلق الله فرعون في بطن أم كافرا وخلق يحيى بن زكريا في بطن أمه مؤمنا".

بما في الصحيح من قوله صلى الله عليه وسلم "إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع أو باع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى لم يبق بينه وبينها إلا ذراع أو باع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها".

وقال قال علماؤنا تعلق العلم الأزلي بكل معلوم فيجري ما علم وأراد وحكم

الثانية ما جاء في قوله وقال جماعة من أهل العلم إن الله خلق الخلق ثم كفروا وآمنوا قالوا وتمام الكلام ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾، ثم وصفهم فقال ﴿فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾.

وكقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾ [45/24]، قالوا فالله خلقهم والمشي فعلهم.

واختاره الحسين بن الفضل قال لأنه لو خلقهم كافرين ومؤمنين لما وصفهم بفعلهم واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم "كل مولود يولد على الفطرة"، الحديث اهـ.

وبالنظر في هاتين المقالتين نجد الآتي

أولا: التشبيه في المقالة الثانية لا يسلم لأن وصف الدواب في حالة المشي ليس وصفا فعليا وإنما هو من ضمن خلقه تعالى لها ولم يكن منها فعل في ذلك.

ثانيا: ما استدلت به كل طائفة من الحديثين لا تعارض بينهما لأن الحديث الأول "إن أحدكم ليعمل" لبيان المصير والمنتهى، وفق العلم الأزلي والإرادة القدرية

(196/8)

والحديث الثاني لبيان مبدأ وجود الإنسان في الدنيا وأنه يولد على الفطرة حينولد أما مصيره فبحسب ما قدر الله عليه.

وقد نقل القرطبي كلاما للزجاج وقال عنه هو أحسن الأقوال ونصه إن الله خلق الكافر وكفره فعل له وكسب مع أن الله خالق الكفر وخلق المؤمن وإيمانه فعل له وكسب مع أن الله خالق الإيمان والكافر يكفر ويختار الكفر بعد أن خلق الله إياه لأن الله تعالى قدر ذلك عليه وعلمه منه لأن وجود خلاف المقدر عجز ووجود خلاف المعلوم جهل.

قال القرطبي وهذا أحسن الأقوال وهو الذي عليه جمهور الأمة اهـ

ولعل مما يشهد لقول الزجاج قوله تعالى﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [96/37] .

هذا حاصل ما قاله علماء التفسير وهذا الموقف كما قدمنا من مازق القدر والجبر وقد زلت فيه أقدام وضلت فيه أفهام وبتأمل النص وما يكتنفه من نصوص في السياق مما قبله وبعده نجد الجواب الصحيح والتوجيه السليم وذلك ابتداء من قوله تعالى﴿ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

فكون الملك له لا يقع في ملكه إلا ما يشاء وكونه على كل شيء قدير يفعل في ملكه ما يريد

ثم قال ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

ثم جاء بعدها:

قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [التغابن: 4]

فخلق السماوات والأرض وخلق الإنسان في أحسن صورة آيتان من آيات الدلالة على البعث كما قال تعالى في الأولى ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [57/40] .

وقال في الثانية ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [79/36] .

ولذا جاء عقبها قوله ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ .

أي بعد الموت والبعث فكأنه يقول لهم هو الذي خلقكم وخلق لكم آيات قدرته على بعثكم من ذلك خلق السماوات والأرض ومن ذلك خلقكم وتصويركم في أحسن تقويم فكأن موجب ذلك الإيمان بقدرته تعالى على بعثكم بعد الموت وبالتالي إيمانكم بما بعد البعث من حساب وجزاء وجنة ونار ولكن فمنكم كافر ومنكم مؤمن .

وقد جاء بعد ذكر الأمم قبلهم وبيان أحوالهم جاء تفنيد زعم الكفار بالبعث والإقسام على وقوعه في قوله تعالى ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [7/64] ، لأن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ويشهد لهذا التوجيه في قوله تعالى في سورة الإنسان ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [76/1–3] .

فقوله تعالى ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ كقوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾ [2/64] .

ثم قال ، وهما حاستا الإدراك والتأمل فقال ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾ مع استعداده للقبول والرفض.

وقوله ﴿ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ ، مثل قوله هنا ﴿ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾ [2/64]، أي بعد التأمل والنظر وهداية السبيل بالوحي ولذا جاء في هذا السياق من هذه السورة ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا ﴾

وبكل ما تقدم في الجملة يظهر لنا أن الله خلق الإنسان من نطفة ثم جعل له سمعا وبصرا ونصب الأدلة على وجوده وقدرته على بعث الموتى ومن ثم مجازاتهم على أعمالهم وأرسل إليه رسله وهداه النجدين ثم هو بعد ذلك إما شاكرا وإما كفورا ولو احتج إنسان في الدنيا بالقدر لقيل له هل عندك علم بما سبق في علم الله عليك أم أن الله أمرك ونهاك وبين لك الطريق

وعلى كل فإن قضية القدر من أخطر القضايا وأغمضها كما قال علي رضي الله عنه القدر سر الله في خلقه وقال صلى الله عليه وسلم "إذا ذكر القضاء فأمسكوا" ولكن على المسلم النظر فيما أنزل الله من وحي وبعث من رسل.

وأهم ما في الأمر هو جري الأمور على مشيئة الله وقد جاء موقف عملي في قصة بدر يوضح حقيقة القدر ويظهر غاية العبر في قوله تعالى ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [43/8].

فهو تعالى الذي سلم من موجبات التنازع والفشل بمقتضى علمه بذات الصدور.

ثم قال ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [44/8]، فقد أجرى الأسباب على مقتضى إرادته فقلل كلا من الفريقين في أعين الآخر ليقضي الله أمرا كان في سابق علمه مفعولا ثم بين المنتهى﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ ، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: 6].

فيه استنكار الكفار أن يكون من يهديهم بشرا لا ملكا كما قال تعالى﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولاً ﴾ [94/17]، وقوله تعالى: ﴿ أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ﴾ [25/54].

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في مذكرة الدراسة فشبهتهم هذه الباطلة ردها الله في آيات كثيرة كقوله تعالى ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً﴾ [9/6]، وقوله ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً﴾ [109/12]، أي لا ملائكة وقوله﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ الآية[20/25].

قوله تعالى ﴿ فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: 6] تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الكلام عليه عند قوله تعالى﴿ وَلِلَّهِ عَلَى

(199/8)

النَّاسِ حِجُّ –إلى قوله ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [97/3] .

قوله تعالى: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: 7] .

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه أي أن الكفار ادعوا أنهم لا يبعثون قائلين إن العظام الرميم لا تحيي قل لهم يا نبي الله ﴿ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ وبلى حرف يأتي لأحد معنيين الأول رد نفي كما هنا .

الثاني جواب استفهام مقترن بنفي نحو قوله﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [172/7]، وقوله ﴿ وَرَبِّي﴾ قسم بالرب على البعث الذي هو الإحياء بعد الموت وقد أقسم به عليه في القرآن ثلاث مرات الأول هذا والثاني قوله ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [53/10] .

الثالث قوله ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [3/34] اهـ .

وقوله ﴿ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ ، بينه تعالى بقوله ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ [13/17–14] وقوله ﴿ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ اسم الإشارة راجع إلى البعث ويسره أمر مسلم لأن الإعادة أهون من البدء كما قال تعالى عن الكفار ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [78/36–79] وقوله ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [28/31]، وقال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [27/30]

قوله تعالى: ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا ﴾ .

النور هنا هو القرآن كما قال تعالى﴿ ما كُنْتَ تَدْرِي ما الْكِتَابُ وَلا الْإِيمانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [52/42]، وهو القرآن وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى عليه الكلام عليه عند قوله تعالى﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [9/57] من سورة "الحديد" وفي المذكرة سماه نورا لأنه كاشف

(200/8)

ظلمات الجهل والشك والشرك والنفاق

قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ .

يوم الجمع هو يوم القيامة وقال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ظرف منصوب بأذكر مقدرة أو بقوله ﴿ خَبِيرٌ﴾ [8/64] .

فيكون المعنى: أنه يوم القيامة خبير بأعمالكم في الدنيا لم يخف عليه منها شيء فيجازيكم عليها سمي يوم الجمع لأنه يجمع فيه الأولون والآخرون في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر كما قال تعالى﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [56/49–50] .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الكلام عليه في عدة مواضع منها في الجزء الثالث عند قوله تعالى ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾ [103/11] .

ومنها في الجزء السابع عند الآية المتقدمة﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ﴾ [56/49–50] .

ومن أصرح الأدلة فيه آية "الشورى" ﴿ وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ ، ثم قال: ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [7/42] .

قوله تعالى ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن: 9] .

الغبن الشعور بالنقص ومثله الخبن لاشتراكهما في حرفين من ثلاثة كما في فقه اللغة فبينهما تقارب في المعنى كتقاربهم في الحرف المختلف وهو الغين والخاء ولخفاء الغين في الحلق وظهور الخاء عنها كان الغبن لما خفي والخبن لما ظهر.

وقد بين تعالى موجب الغبن للغابن والمغبون فقال﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [9/64]، وبين حال المغبون بقوله ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [10/64].

وقد بين العلماء حقيقة الغبن في هذا المقام بأن كل إنسان له مكان في الجنة ومكان في النار فإذا دخل أهل النار النار بقيت أماكنهم في الجنة وإذا دخل أهل الجنة الجنة

(201/8)

بقيت أماكنهم في النار

وهناك تكون منازل أهل الجنة في النار لأهل النار ومنازل أهل النار في الجنة لأهل الجنة يتوارثونها عنهم فيكون الغبن الأليم وهو استبدال مكان في النار بمكان في الجنة ورثوا أماكن الآخرين الذين ذهبوا إلى النار.

قوله تعالى ﴿ ما أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: 11].

في هذه الآية الكريمة نص صريح بأن ما يصيب أحدا مصيبة إلا بإذن الله

ومعلوم أنه كذلك ما يصيب أحدا خير إلا بإذن الله على حد قوله﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [81/16]، أي والبرد.

ولكن التنصيص على المصيبة هنا ليدل أن كل شيء ينال العبد إنما هو بإذن الله لأن الجبلة تأبى المصائب وتتوقاها ومع ذلك تصيبه وليس في مقدوره دفعها بخلاف الخير قد يدعي أنه حصله باجتهاد منه كما قال

قارون ﴿ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [78/28] .

وقوله ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ ، قرىء يهدأ بالهمز من الهدوء وقلبه بالرفع وهي بمعنى يهدي قلبه لأنه يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه فيسترجع فيطمئن قلبه بهذا ولا يجزع وهذا من خصائص المؤمن كما قال صلى الله عليه وسلم "عجبا لأمر المؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له حتى الشوكة يشاكها في قدمه" .

ومثل هذا قوله تعالى ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [2/155–157] .

أي إلى ما يلزمهم من امتثال وصبر ولذا جاء بعدها ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [12/64] .

(202/8)

ومن ناحية أخرى يقال إن قوله تعالى ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ، والكفر أعظم المصائب.

﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ والإيمان بالله أعظم النعم فيقول قائل إن كان كل ذلك بإذن الله فما ذنب الكافر وما فضل المؤمن فجاء قوله تعالى ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ بيانا لما يلزم العبد وهو طاعة الرسل فيما جاءوا به ولا يملك سوى ذلك.

وفي قوله تعالى ﴿ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ من نسبة الهداية إلى القلب بيان لقضية الهداية العامة والخاصة كما قالوا في قوله تعالى عنه صلى الله عليه وسلم ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [52/42] مع قوله تعالى ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [56/28] .

فقالوا الهداية الأولى دلالة إرشاد كقوله تعالى ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [17/41] .

والثانية هداية توفيق وإرشاد ويشهد لذلك شبه الهداية من الله لقلب من يؤمن بالله وقوله تعالى﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ بتكرار فعل الطاعة يدل على طاعة الرسول تلزم مستقلة

وقد جاءت السنة بتشريعات مستقلة وبتخصيص القرآن ونحو ذلك كما تقدم عند قوله تعالى﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ [7/59] .

ومما يشهد لهذا قوله تعالى ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [59/4]، فكرر الفعل بالنسبة لله وللرسول ولم يكرره بالنسبة لأولي الأمر لأن طاعتهم لا تكون استقلالا بل تبعا لطاعة الله وطاعة رسوله كما في الحديث "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق" .

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الكلام على ذلك عند قوله تعالى﴿ الْمَالُ

(203/8)

وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [46/18] .

ومما يعتبر توجيها قرآنيا لعلاج مشاكل الحياة الزوجية وقضية الأولاد التعقيب على ذلك بقوله تعالى﴿ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [14/64]، أي إن عداوة الزوجة والأولاد لا ينبغي أن تقابل إلا بالعفو والصفح والغفران وأن ذلك يخفف أو يذهب أو يجنب الزوج والوالد نتائج هذا العداء وأنه خير من المشاحة والخصام.

وفي موضع آخر قال ﴿ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [15/64]، أي قد تفتن عن ذكر الله ﴿ لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [9/63] .

وتقدم للشيخ هذا المبحث في سورة "الكهف"، كما أشرنا .

قوله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: 16] .

يفهم منه أن التكليف في حدود الاستطاعة ويبينه قوله تعالى﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [286/2] .

وقوله تعالى ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا ما لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [286/2] .

وفي الحديث "قال الله قد فعلت" ، وهذا في الأوامر دون النواهي، لأن النواهي تروك

كما جاء في السنة "ما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه"، وهذا من خصائص هذه الأمة.

كما تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عند أواخر سورة البقرة وتحقيق ذلك في رخص الصلاة والصيام ونحوهما .

قوله تعالى ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 9] .

قالوا الشح أخص من البخل وقيل البخل أن تضن بمالك والشح أن تضن بمال غيرك والواقع أن الشح منتهى البخل وإن ذكره هنا بعد قضايا الأزواج والأولاد وفتنتهم وعداوتهم ثم الأمر بالسمع والطاعة والإنفاق في قوله ﴿ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ﴾ [16/64]، يشعر بأن أكثر قضايا الزوجية منشؤها من جانب المال

(204/8)

حرصا عليه أو بخلا به حرصا عليه بالسعي إليه بسببهم فقد يفتن في ذلك وشحا به بعد تحصيله فقد يعادونه فيه.

والعلاج الناجع في ذلك كله الإنفاق وتوقي الشح والشح من جبلة النفس﴿ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ [128/4]، وفي إضافة الشح إلى النفس مع إضافة الهداية فيما تقدم إلى القلب سر لطيف وهو أن الشح جبلة البشرية والهداية منحة إلهية والأولى قوة حيوانية والثانية قوة روحية

فعلى المسلم أن يغالب بالقوة الروحية ما جبل عليه من قوة بشرية لينال الفلاح والفوز كما أشار تعالى بقوله ﴿ الْمالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ الدُّنْيا ﴾ ثم قال ﴿ وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ [46/18].

قوله تعالى ﴿ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا ﴾ [التغابن: 16].

أي لا تكونوا كالذين ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ [93/2]، ولا كقوم نوح الذين قال عنهم ﴿ وَإِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً ﴾ [7/71].

وقد ندد بقول الكفار ﴿ لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ﴾ [26/41].

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه اسمعوا ما يقال لكم وأطيعوا فيما سمعتم لا كمن قبلكم المشار إليهم بالآيات المتقدمة.

قوله تعالى: ﴿ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [التغابن: 17].

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه قد بين تعالى أنه يضاعف الإنفاق سبعمائة إلى أكثر بقوله ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ ﴾ –إلى قوله– ﴿ وَاللَّهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ ﴾ [261/2].

وأصل القرض في اللغة القطع وفي الشرع قطع جزء من المال يعطيه لمن ينتفع به ثم يرده أي أن الله تعالى يرد أضعافا وقد سمى معاملته مع عبيده قرضا وبيعا وشراء وتجارة

(205/8)

ومعنى ذلك كله أن العبد يعمل لوجه الله والله جل وعلا يعطيه ثواب ذلك العمل كما في قوله تعالى ﴿ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعِفْهُ لَكُمْ ﴾ الآية [17/64].

وقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ [111/9].

وقوله ﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ [9/111] .

وقوله ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ﴾ الآية[61/10–11] مع قوله تعالى: ﴿ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ [35/29] .

والقرض الحسن هو ما يكون من الكسب الطيب خالصا لوجه الله ا هـ

ومما يشهد لقوله رحمه الله في معنى القرض الحسن قوله تعالى﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ [2/264]، لأن ذلك لم ينفق بإخلاص لوجه الله ومجيء الحسن على القرض الحسن هنا بعد قضية الزوجية والأولاد وتوقي الشح يشعر بأن الإنفاق على الأولاد والزوجة إنما هو من باب القرض الحسن مع الله كما في قوله تعالى﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ الآية[2/215] .

وأقرب الأقربين بعد الوالدين هم الأولاد والزوجة

وفي الحديث في الحث على الإنفاق "حتى اللقمة يضعها الرجل في في امرأته" .

وقوله ﴿ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [64/17] .

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه شكر الله لعبده هو مجازاته له بالأجر الجزيل على العمل القليل.

وقوله ﴿ حَلِيمٌ﴾ أي: لا يعجل بالعقوبة بل يستر ويتجاوز عن ذنوب ومجيء هذا التذييل هنا يشعر بالتوجيه في بعض نواحي إصلاح الأسرة وهو أن يقبل كل من الزوجين عمل الآخر بشكر ويقابل كل إساءة بحلم ليتم معنى حسن العشرة ولأن الإنفاق يستحق المقابلة بالشكر والعداوة تقابل بالحلم

(206/8)

قوله تعالى ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الأنعام: 73] .

مجيء الآية بالجملة الاسمية يشعر بالحصر وقد صرح به في قوله تعالى﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾

[59/6]، ومجيؤه هنا أيضا يشعر بأن الرقابة على الأسرة بين الطرفين إنما هي لله تعالى لأنهما يكونان في عزلة عن الناس ولا يطلع على ما بينهما إلا الله عالم الغيب والشهادة أي فليراقب كل منهما ربه عالم الغيب والشهادة ومجازيا كلا منهما على فعله.

(207/8)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الطلاق

قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾ [الطلاق: 1] الآية.

قيل في سبب نزولها أن النبي صلى الله عليه وسلم طلق حفصة رضي الله عنها فنزلت وقيل غير ذلك وعلى كل فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو معلوم

ومما يشهد لهذه القاعدة ما لو أخذنا بعين الاعتبار النسق الكريم بين السورتين حيث كان آخر ما قبلها موضوع الأولاد والزوجات من فتنة وعداء.

والإشارة إلى علاج ما بين الزوجين من إنفاق وتسامح على ما أشرنا إليه سابقا هناك فإن صلح ما بينهم بذاك فبها ونعمت وإن تعذر ما بينهما وكانت الفرقة متحتمة فجاءت هذه السورة على إثرها تبين طريقة الفرقة السليمة في الطلاق وتشريعه وما يتبعه من عدد وإنفاق ونحو ذلك

وقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ ، بالنداء للنبي صلى الله عليه وسلم. و قوله ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ ﴾ بخطاب لعموم الأمة قالوا كان النداء للنبي صلى الله عليه وسلم والخطاب للأمة تكريما لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتكليفا للأمة وقيل خوطبت الأمة في شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم كخطاب الجماعة في شخصية رئيسها .

وقال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ولهذه الآية استدل من يقول إن الرسول صلى الله عليه وسلم يكون داخلا في عموم خطاب الأمة ا هـ

والواقع أن الخطاب الموجه للنبي صلى الله عليه وسلم على ثلاثة أقسام

الأول قد يتوجه الخطاب إليه صلى الله عليه وسلم ولا يكون داخلا فيه قطا وإنما يراد به الأمة بلا خلاف من ذلك قوله تعالى في بر الوالدين ﴿ إِما يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُما وَقُلْ لَهُما قَوْلاً كَرِيما وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ

(208/8)

وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً﴾ [17/23–24] .

فكل صيغ الخطاب هنا موجهة للنبي صلى الله عليه وسلم وهو قطعا ليس مراد بذلك لعدم وجود والدين ولا أحدهما عند نزولها كما هو معلوم

الثاني أن يكون خاصا به لا يدخل معه غيره قطعا نحو قوله تعالى ﴿ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [33/50] .

والثالث هو الشامل له صلى الله عليه وسلم ولغيره بدليل هذه الآية وأول السورة التي بعدها في قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ [66/1]، فهذا كله خطاب موجه له صلى الله عليه وسلم

وجاء بعدها مباشرة ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ –بخطاب الجميع– ﴿ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ﴾ [66/2]، فدل أن الآية داخلة في قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ [66/1]، وهذا باتفاق.

وقد بين الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه هذه المسألة بأقوى دليل فيها عند قوله تعالى ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً﴾ إلى قوله ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [30/30–31] .

وقوله تعالى ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ الآية، يشعر بأن كل المطلقات من النساء يطلقن لعدتهن وتحصى عدتهن والإحصاء العدد ماخوذ من الحصا وهو الحصا الصغير كانت العرب تستعمله في العدد لأميتهم ثم ذكر بعض عدد لبعض المطلقات ولم يذكر جميعهن مع أنه من المطلقات من لا عدة لهن وهن غير المدخول بهن ومن المطلقات من لم يذكر عدتهن هنا.

قال الزمخشري: إنه لا عموم ولا تخصيص لأن لفظ النساء اسم جنس يطلق على الكل وعلى البعض وقد أطلق هنا على البعض وهو المبين حكمهن بذكر عدتهن وهن اللاتي يئسن والصغيرات وذوات الحمل حاصل عدد النساء تتلخص في الآتي وهي أن الفرقة إما بحياة أو بموت والمفارقة إما حامل أو غير حامل فالحامل عدتها بوضع حملها اتفاقا ولا عبرة بالخلاف في ذلك لصحة النصوص وغير الحامل بأربعة أشهر وعشر

(209/8)

مدخول بها وغير مدخول والمفارقة بالحياة إما مدخول بها أو غير مدخول بها فغير المدخول بها لا عدة عليها إجماعا والمدخول بها إما من ذوات الإقراء فعدتها ثلاثة قروء على خلاف في المراد بالقرء

وأما من ليست من ذوات الإقراء كاليائسة والصغيرة فعدتها بالأشهر ثلاثة أشهر

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في الجزء الأول عند قوله تعالى ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ [228/2]، وفصل أنواع المطلقات المدخول بهن وغير المدخول بهن وأنواع العدد بالإقراء أو الأشهر أو الحمل وبين الجمع بين العمومات الواردة في ذلك كله مما يغني عن الإعادة هنا

تنبيه

كل ما تقدم في شأن العدة إنما هو في خصوص الحرائر وبقي مبحث الإماء

أما الإماء فالحوامل منهن كالحرائر سواء بسواء وغير الحوامل فالجمهور على أنها على النصف من الحرة إلا أن الحيضة لما لم تكن تتجزأ فجعلت عدتها فيها حيضتين وهذا باتفاق الأئمة الأربعة

أما ذات الأشهر فالجمهور على أنها تعتد شهرا ونصفا وخالف مالك فجعل لها ثلاثة أشهر فيكون مالك رحمه الله وافق الجمهور في ذوات الحيض وخالف الجمهور في ذوات الأشهر وقد أخطأ ابن رشد مع مالك في نقاشه معه هذه المسألة فقال في بداية المجتهد:

وقد اضطرب قول مالك في هذه المسألة فلا بالنص أخذ ولا بالقياس عمل يعني أنه لم يأخذ بالنص في ذوات الحيض فيجعل لهن ثلاثة قروء كما أخذ به في ذوات الأشهر حيث جعل لهن ثلاثة أشهر بالنص ولا بالقياس عمل أي فلم ينصف الأشهر قياسا على الحيض فكان مذهبه ملفقا بين القياس في ذوات الحيض والنص في ذوات الأشهر فخالف في ذلك الأئمة الثلاثة

واضطرب قوله في نظر ابن رشد لأنه لم يطرد القياس فيهما ولا أعمل النص فيهما ولكن الحق في المسائل الخلافية لا يمكن أن يعرف إلا بعد معرفة وجهة النظر عن المخالف فقد يكون محقا وقد يكون فعلا الحق مع غيره

(210/8)

وفي هذه المسألة بالذات أشار العدوي في حاشيته بأن وجهة نظر مالك هي الرجوع إلى أصل الغرض من العدة وهو براءة الرحم والشهر والنصف لا يكفي للمرأة نفسها أن تخبر عن نفسها عما إذا كانت حاملا أم لا فأكمل لها المدة المنصوص عليها.

أما الحيضتان ففيهما بيان لبراءة الرحم اهـ ملخصا

وهذا الذي قاله العدوي له أصل من الشرع لأن ذات الإقراء وجدناها في بعض الصور تعتد بحيضة كما جاء النص في عدة المختلعة وإن كان فيها خلاف ووجدنا الأمة تثبت براءة رحمها في غير هذا بحيضتين قطعا وهي فيما إذا كانت سرية لمالكها فأراد بيعها فإنه يستبرئها بحيضة والذي يشتريها يستبرئها بحيضة قبل أن يمسها ثم هو يفترشها ويأمن من أن يسقي ماءه زرع غيره فعلمنا أن في الحيضتين براءة للرحم فاكتفي بهما مالك ووافق الجمهور.

وأما الشهر والنصف فإنهما لا يمكن أن تتبين المرأة فيهما حملا لأنها مدة الأربعين الأولى وهي مرحلة النطفة فظهر بهذا أن الحق مع مالك وأن ابن رشد هو الذي اضطربت مقالته على مالك وقد سقنا هذا التنبيه لبيان واجب طالب العلم أمام المسائل الخلافية من ضرورة البحث عن السبب ووجهة نظر المخالف وعدم المبادرة للإنكار لأن يكون هو أحق بأن ينكر عليه ولا يسارع لرد قول قد يكون قوله هو أولى بأن يرد عليه وبالله التوفيق.

وقوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ ،اتفق المفسرون أن المراد لاستقبال عدتهن وفيه مبحث الطلاق السني والبدعي واعلم أن الحامل وغير المدخول بها لا بدعة في طلاقهما عند الجمهور وألحقت بهما الصغيرة والطلاق البدعي هو جمع الثلاث في مرة أو الطلاق في الحيضة أو في طهر مسها فيه وعند الإمام أبي حنيفة رحمه الله يفرق الطلقات على الصغيرة كل طلقة في شهر ولا يجمعها وقد طال البحث في حكم الطلاق البدعي هل يقع ويحتسب على المطلق أم لا ؟

والأصل فيه حديث عبد الله بن عمر أنه طلق امرأته وهي حائض فبلغ ذلك عمر فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فقال له صلى الله عليه وسلم "مره فليراجعها" .

والذي عليه الجمهور أنه يعتد بتلك الطلقة ومن خالف فيها السنة وعليه أن

(211/8)

يراجعها وليعمل كما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم فليمسكها حتى تطهر ثم إن شاء أمسكها وإن شاء طلقها في طهر لم يمسها فيه أي لتستقبل عدتها ما لم تكن الطلقة الثالثة أو بالثلاث على ما عليه الجمهور وقد سئل أحمد رحمه الله عن الاعتداد بهذه الطلقة في الحيضة فقال إن قوله صلى الله عليه وسلم "فليراجعها" يدل على الاعتداد بها لأنه لا رجعة إلا من طلاق .

وقد أطال ابن دقيق العيد الكلام عليها في أحكام الإحكام وغيره مما لا داعي إلى سرده وحاصله ما قدمنا ولم

يقل بعدم الاعتداد بها إلا سعيد بن المسيب وجماعة من التابعين

وقال أبو حيان إن قوله تعالى ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ على إطلاقه يشعر بالاعتداد بلطلاق سنيا كان أو بدعيا .

قوله تعالى ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ [الطلاق: 2] . ظاهره أن الإمساك بمعروف إذا بلغن أجلهن مع أنهن إذا بلغن إلى ذلك الحد خرجن من العدة وانتهى وجه المراجعة ولكن المراد ه نا إذا قارين أجلهن ولم يتجاوزنه أو يصلن إليه بالفعل والقاعدة أن ما قارب الشيء يعطي حكمه كما في قوله تعالى ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [98/16] .

ومثل الآية الحديث في قوله صلى الله عليه وسلم"إذا أتى أحدكم الخلاء فليقل اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث" مع أنه عند الإتيان أو أثناءه لا يحق له أن يقول ذلك وإنما يقوله إذا قارب دخوله فكذلك هنا

أما المطلقة ثلاثا فقد بحثها الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بحثا وافيا عند قوله تعالى ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ﴾ [229/2]، بما لا مزيد عليه.

قوله تعالى ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق: 3] .

بعد الأمر بإحصاء العدة وكون العدد مختلفة الأنواع من إقراء إلى أشهر إلى وضع الحمل والمعتدات متفاوتات الإقراء وأمد الحمل فقد تكون في أوله أو وسطه أو آخره وكل ذلك لا بد من إحصائه لما يترتب عليه من حرمة وحلية فتخرج من عدة هذا وتحل

(212/8)

لذاك

كما قال تعالى ﴿ وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ﴾ [235/2]، وهذا كله لا يتأتى إلا بالإحصاء .

والإحصاء لا يكون إلا لمقدر معلوم وعليه فقوله تعالى ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ﴾ مؤكد لهذا كله وكذلك فيه نص صريح أنه تعالى قد جعل لكل شيء من الأشياء أيا كان هو قدرا لا يتعداه لا بزيادة ولا بنقص ولفظ ﴿ شَيْءٍ ﴾ أعم العمومات.

وقد جاءت آيات كثيرة دالة على هذا العموم عامة وخاصة فمن الآيات العام قوله تعالى ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [49/54] . وقوله ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ [2/25] وقوله ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [8/13] . وقد جمع العام والخاص قوله ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ [21/15] .

ومن التقدير الخاص في مخصوص قوله ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [36/38–40] .

إنها قدرة باهرة وحكمة بالغة وإرادة قاهرة وسلطة غالبة قدرة من أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون وقد قال علماء الهيئة أن حساب مسير هذه الأفلاك في منازلها أدق ما يكون من مات أجزاء الثانية ولو اختلف جزء من الثانية لاختل نظام العالم ولما صلحت على وجه الأرض حياة ونحن نشاهد حركة الليل والنهار ونقصانهما وزيادتهما وفصول السنة كما قال تعالى ﴿ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ ﴾ [20/73] .

وهو سبحانه وتعالى يحصيه وكذلك التقدير لوجود الإنسان قبل وبعد وجوده قال تعالى ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ [80/18–19] ، أي قدر خلقه وصورته ونوعه كما بين ذلك بقوله ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً ﴾ الآية إلى قوله: ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [42/49–50] .

وهذا أيضا من آيات قدرته يرد بها سبحانه على من جحد وجود الله وكفر بالبعث؛

كما في مستهلها قوله تعالى ﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ [80/17–18] .

ثم بين تعالى أنه خلقه من نطفة ماء مهين ولكن قدر الله تعالى قدرتها وصورتها حتى صارت خلقا سويا وجعل له وهو في بطن أمه عينين ولسانا وشفتين أي وأنفا وأذنين ويدين ورجلين وكل جهاز فيه حير الحكماء في صنعه ونظامه.

ثم قدر تعالى أرزاقه على الأرض قبل وجوده يوم خلق الأرض وجعله آية على قدرته وعاتب الإنسان على كفره ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾ [41/9–10] .

وبعد وجود الكون وخلق الإنسان قدر في الإيجاد بإنزال المطر ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً وَعِنَباً ﴾ [80/24–28]

ثم إن صب هذا الماء كان بقدر كما في قوله تعالى ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السماء مَاءً بِقَدَرٍ ﴾ [23/18] .

وقوله ﴿ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ [42/27]، أي بقدر ما يصلحهم ولو زاده لفسد حالهم كما في قوله قبلها ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ﴾ [42/27]، وبقدر مصلحتهم ينزل لهم أرزاقهم

كما نبه على ذلك بقوله ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى ﴾ [96/6–7] .

هذه لمحة عن حكمة تقدير العزيز الحكيم الذي أحسن كل شيء خلقه والذي قدر الأشياء قبل وجودها كما في قوله ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ [87/3] .

وكما في حديث القلم وكتابة كل شيء قبل وجوده بزمانه ومكانه ومقداره إن آية القدرة وبيان العجز قدرة الخالق وعجز المخلوق كما في قوله تعالى ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [7/34] .

وكقوله ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ ﴾ [35/11] أي:

لا يتعداه ولا يتخطاه وقد تحداهم الله في ذلك بقوله ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [56/83–87] كلا إنهم مدينون ولن يستطيعوا إرجاعها.

وهنا يقال للدهريين والشيوعيين الذين لا يعترفون بوجود فاعل مختار وعزيز قهار إن هذا الكون بتقديراته ونظمه لآية شاهدة وبينة عادلة على وجود الله سبحانه وتعالى ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [36/83].

كما يقال للمؤمنين أيضا إن ما قدره الله نافذ وما قدر للعبد آتيه وما لم يقدر له لن يصل إليه طويت الصحف وجفت الأقلام ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ [57/23].

ويقال مرة أخرى اعملوا كل ميسر لما خلق له وبالله تعالى التوفيق.

قوله تعالى ﴿ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق: 4].

فيه إطلاق لوضع الحمل على أي صفة كان هو وأجمع العلماء على أن يصدق بوضعه حيا أو ميتا ولكن اشترط فيه أن يكون قد ظهرت فيه خلقة الإنسان لا مضغة ولا علقة كما أن فيه إطلاقا لأجل سواء للمطلقة أو المتوفي عنها من أنه ينقضي أجل الحوامل بوضع الحمل وتقدم بيان ذلك مفصلا للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه وهنا مبحث أقل الحمل وأكثره وتقدم تفصيله للشيخ أيضا عند قوله تعالى ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى ﴾ الآية [13/8].

قوله تعالى ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ﴾ [الطلاق: 6]. بين تعالى مدة الرضاع في قوله تعالى ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾ [2/233].

وجعل أبو حنيفة رحمه الله ثلاثة أشهر زيادة على الحولين لتمرين الطفل على الفطام وذلك كما قال تعالى ﴿ لِمَنْ

أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ .

فإذا أمكن فطام الطفل قبلها بدون مضرة عليه فلا مانع وعلى الوالد إيتاء الأجرة على مدة الرضاع إلى الفطام سواء كانت المدة الشرعية كما هنا أو الفعلية قبلها وليس

(215/8)

ملتزما بما زاد على الحولين في نص الآية

والائتمار بمعروف يشعر بأن للعرف دخلا في ذلك كما هو تنبيه صريح بأن لا يضار أحد الوالدين بولده وأن تكون المفاهمة بين الزوجين بعد الفرقة في جميع الأمور سواء في خصوص الرضاع أو غيره مبناها على المعروف والتسامح والإحسان وفاء لحق العشرة السابقة ولا تنسوا الفضل بينكم

قوله تعالى ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الطلاق: 8] الآية.

ذكر الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في مذكرة الإملاء أن ﴿ كَأَيِّنْ ﴾ بمعنى كم فهي إخبار بعدد كثير وذكر إعرابها والمعنى كثير من قرية عتت عن أمر ربها أي تكبرت وطغت وتقدم تفصيله للمعنى بالأمثلة والشواهد عند قوله تعالى ﴿ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ [45/22] في سورة "الحج" .

ومما قدمه رحمة الله تعالى علينا وعليه ومن قوله تعالى ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ [59/18]، بيان لأصحاب الرئاسة ورجال السياسة أن هلاك الدنيا بفساد الدين وأن أمن القرى وطمانينة العالم بالحفاظ على الدين

ومن هنا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في عامة الناس للحفاظ على دينهم وسلامة دنياهم فحمل الشارع مهمته للأمة كلها كل بحسبه باليد أو باللسان أو القلب وهذا الأخير أضعف الإيمان ومع ضعفه ففيه الإبقاء على دوام الإحساس بوجود المنكر إلى أن يقدر هو أو غيره على تغييره

قد بين الله تعالى هذا المفهوم ببيان حال الذين مكنهم في الأرض بنصره في قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي

الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [41/22] .

ثم ذكر تعالى الأمم التي كذبت وعتت من قوم نوح وعاد وثمود ولوط وأصحاب مدين .

ثم قال ﴿ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ﴾ [45/22] .

(216/8)

قوله تعالى ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق: 12] .

جاء في بيان السماوات أنها سبع طباق كما في قوله تعالى ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ [3/76] .

وبين الحديث في الإسراء أن ما بين كل سماء وسماء مسيرة خمسمائة عام وجاء لفظ السماء مفردا وجمعا فالمفرد كما في قوله ﴿ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴾ [5/91] . وقوله ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ [22/2] .

أما الأرض فلم يأت لفظها إلا مفردا ولم يأت تفصيلها كتفصيل السماء سبعا طباقا فاختلف في المثلية فجاء عن ابن عباس أنها مثلية تامة عددا وطباقا وخلقا وقيل عددا وأقاليم يفصلها البحار وقيل عدد طباقا متراكمة كطبقات البصلة مثلا ولقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في المقدمة أن من أوجه البيان إذا لم يوجد في الكتاب ووجد في السنة فإنه يبين بها لأنها وحي وقد جاء في السنة أن الأرض سبع أرضين كما في حديث "من اغتصب أرضا أو من أخذ شبرا من الأرض طوقه من سبع أرضين" متفق عليه.

وفي حديث موسى لما قال: "يا رب علمني شيئًا أدعوك به فقال قل لا إله إلا الله، فقال: يا رب كل الناس يقولون ذلك قال: يا موسى لو أن السماوات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع في كفة ولا إله إلا الله في كفة لمالت بهن لا إله إلا الله" . رواه النسائي.

فهذه أحاديث صحيحة أثبتت أن الأرضين سبع ولم يأت تفصيل للكيفية ولا للهيئة فثبت عندنا العدد ولم

يثبت غيره فنثبته ونكل غيره لعلم الله تعالى

ومما يؤيد ثبوت العدد على سبيل الإجمال أن مثلية الأرض للسماء لم تذكر إلا عند ذكر السماء مجملة مع ذكر العدد ولم يذكر عند تفصيلها بطباق مما يشعر أن المراد من المثلية العدد وقيل إن هذا لا يتنافى مع أفراد اللفظ لأن جمعه شاذ.

كما قال ابن مالك:

وأرضون شذو السنون

(217/8)

وقد أشار تعالى إلى أن هناك من حالات الأرض والسماء ما لم يعلمه الخلق في قوله تعالى﴿ ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ [51/18]، وهم لا يزالون عاجزين عن كيفية خلق أنفسهم إلا تفصيلات جزئية والمهم من السياق والغرض الأساسي تنبيه الخلق على عظم قدرة الله تعالى في قوله تعالى ﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ [12/65].

(218/8)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة التحريم

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: 1]الآية.

تقدم في أول السورة قبلها بيان علاقة الأمر بالخطاب الخاص به صلى الله عليه وسلم وقد اختلف في تحريم ما أحل الله له بين كونه العسل أو هو مارية جاريته صلى الله عليه وسلم وسيأتي زيادة إيضاحه عن الكلام على

حكمه.

وقوله تعالى ﴿لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ [1/66] ظاهر فيه معنى العتاب كما في قوله تعالى ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ [80/1–30].

وكلاهما له علاقة بالجانب الشخصي سواء ابتغاء مرضاة الأزواج أو استرضاء صناديد قريش وهذا مما يدل على أن التشريع الإسلامي لا مدخل للأغراض الشخصية فيه.

وبهذا نأخذ بقياس العكس دليلا واضحا على بطلان قول القائلين إن إعماره صلى الله عليه وسلم لعائشة من التنعيم كان تطييبا لخاطرها ولا يصح لأحد غيرها.

ومحل الاستدلال هو أن من ليس له حق في تحريم ما أحل الله له ابتغاء مرضاة أزواجه لا يحل له إحلال وتجويز ما لا يجوز ابتغاء مرضاتهن وهذا ظاهر بين ولله الحمد.

أما تحلة اليمين وكفارة الحنث وغير ذلك فقد تقدم بيانه للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عند قوله تعالى ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ [2/225].

أما حقيقة التحريم هنا ونوع الكفارة وهل كفر صلى الله عليه وسلم عن ذلك أم أن الله غفر له فلم يحتج لتكفير فقد أوضحه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في مذكرة الإملاء عند هذه الآية

(219/8)

وفي الأضواء عند قوله تعالى في أول سورة الأحزاب ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [4/33]، وذلك أن للعلماء نحو عشرين قولا ورجح القول بأن التحريم ظهار لما يدل عليه ظاهر القرآن وأن القول الذي يليه أنه يمين وناقش المسألة بأدلتها هناك

قوله تعالى ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: 4].

أطلقت التوبة هنا وقيدت في الآية بعدها بأنها توبة نصوح في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً

نَصُوحاً﴾ [8/66] .

وحقيقة التوبة النصوح وشروطها وآثارها تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عند قوله تعالى﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ [31/24] .

وقوله تعالى ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ . قال الشيخ في إملائه ﴿ صَغَتْ ﴾ : بمعنى مالت ورضيت وأحبت ما كره رسول الله صلى الله عليه وسلم اهـ

وقال و ﴿ قُلُوبُكُمَا ﴾ . جمع مع أنه لاثنتين هما حفصة وعائشة فقيل لأن المعنى معلوم والجمع أخف من المثنى إذا أضيف وقيل هو مما استدل به على أن أقل الجمع اثنين كما في الميراث في قوله﴿ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾ [11/4] .

وجواب الشرط في قوله تعالى﴿ إِنْ تَتُوبَا ﴾ محذوف تقديره فقال واجب عليكما لأن قلوبكما مالت إلى ما لا يحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم اهـ

وقدره القرطبي بذلك خير لكم ومعناهما متقارب

قوله تعالى ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: 4] .

قال أبو حيان الوقف على ﴿ مَوْلاهُ ﴾ وتكون الولاية خاصة بالله ويكون جبريل مبتدأ وما بعده عطف عليه و ﴿ ظَهِيرٌ ﴾ خبر وعليه يكون جبريل ذكر مرتين بالخصوص أولا وبالعموم ثانيا

وقيل الوقف على و﴿ جِبْرِيلُ ﴾ معطوفا على لفظ الجلالة في الولاية ثم ابتدىء بصالح المؤمنين وعطف عليهم الملائكة ويدخل فيهم جبريل ضمنا اهـ.

فعلى الوقف الأول يكون درج صالح المؤمنين بين جبريل وبين الملائكة تنبيها على علو منزلة صالح المؤمنين وبيان منزلتهم من عموم الملائكة بعد جبريل وعلى الوقف الثاني فيه عطف جبريل على لفظ الجلالة في الولاية بالواو وليس فيه ما يوهم التعارض مع الحديث في ثم إذ محل العطف هو الولاية وهي قدر ممكن من الخلق ومن الله تعالى كما في قوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [62/8] لأن النصر يكون من الله ويكون من العباد من باب الأخذ بالأسباب ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾ [40/9] .

وكما في قوله تعالى ﴿ وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [8/59]

وقوله ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ [52/3] بخلاف سياق الحديث فقد كان في موضوع المشيئة حينما قال الأعرابي ما شاء الله وشئت فقال له صلى الله عليه وسلم"أجعلتني لله ندا قل ما شاء الله وحده" ، لأن حقيقة المشيئة لله تعالى وحده كما في قوله﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [29/81]، وكقوله ﴿ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً﴾ [13–31]

وكقوله ﴿ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [4/30] .

ومن اللطائف في قوله تعالى ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ إلى آخر ما سمعته من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه أنه قال إن المتظاهرتين على رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأتان فقط تآمرتا عليه فيما بينهما فجاء بيان الموالين له ضدهما كل من ذكر في الآية فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة ما يدل على عظم كيدهن وضعف الرجال أمامهن وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [28/12]، بينما قال في كيد الشيطان ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾ [76/4] .

وقد عبر الشاعر عن ذلك بقوله وقد عبر الشاعر عن ذلك بقوله

ما استعظم الإله كيدهنه . . . إلا لأنهن هن هنه

﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً﴾ [التحريم: 5]

فيه بيان أن الخيرية التي يختارها الله لرسوله صلى الله عليه وسلم في النساء هي تلك الصفات من الإيمان والصلاح.

وجاء الحديث "فعليك بذات الدين تربت يمينك" .

وقوله تعالى ﴿ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾ [221/2] .

وفي تقديم الثيبات على الأبكار هنا في معرض التخيير ما يشعر بأولويتهن مع أن الحديث "هلا بكرا تداعبك وتداعبها" ، ونساء الجنة لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ففيه أولوية الأبكار وقد أجاب المفسرون بأن هذا للتنويع فقط وأن الثيبات في الدنيا والأبكار في الجنة كمريم ابنة عمران والذي يظهر والله تعالى أعلم أنه لما كان في مقام الانتصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتنبيههن لما يليق بمقامه عندهن ذكر من الصفات العالية دينا وخلقا وقدم الثيبات ليبين أن الخيرية فيهن بحسب العشرة ومحاسن الأخلاق

وقوله تعالى ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ ﴾ لم يبين هل طلقهن أم لا مع أن عسى من الله للتحقيق ولكنه لم يقع طلاقهن كما بينه تعالى في سورة "الأحزاب" بأنه تعالى خيرهن بين الله ورسوله وبين الحياة الدنيا وزينتها فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة فلم يطلقهن ولم يبدله أزواجا خيرا منهن

وقد بين الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه هذه المسألة وإحلال الزواج إليه وتحريم النساء بعدهن عليه عند قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ ﴾ الآية [50/33] .

وقوله ﴿ تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ ﴾ [51/33] .

وقوله: ﴿ لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ الآية [3352]

وبين الناسخ من المنسوخ في ذلك في دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ ﴾ [التحريم: 7] .

لم يبين هنا نوع الاعتذار الذي نهوا عنه ولا سبب النهي عنه لماذا ولا زمنه وقد بين تعالى نوع اعتذارهم في مثل قوله تعالى ﴿ ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّ ﴾

[38/7] .

وكقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [23/6]

(222/8)

انظر كيف كذبوا على أنفسهم

وكقوله بعدها ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [27/6] فهذا غاية في الاعتذار ولكنهم نهوا عنه وذلك يوم القيامة كما في قوله﴿ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ ، أي: إلى الدنيا .

وقد نهوا عن هذا الاعتذار لأنه لا ينفعهم كما في قوله تعالى﴿ فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [57/30] .

وقوله ﴿ يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [25/40] . قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً﴾ [التحريم: 8] .

تقدمت الإحالة على كلام الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في بيان أنواع التوبة وشروط كونها نصوحا على قوله تعالى ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً﴾ [31/24] .

قوله تعالى ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ إلى آخر الآية.

تقدم بيان هذا النور وحالتهم تلك للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورة الحديد عند قوله تعالى﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [12/57] .

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: 73] .

فيه الأمر بقتال الكفار والمنافقين والغلظة عليهم ومعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم قاتل الكفار ولم يعلم أنه قاتل المنافقين قتاله للكفار فما نوع قتاله صلى الله عليه وسلم للمنافقين وبينه والله تعالى أعلم .

قوله تعالى: ﴿ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً ﴾ [52/25]، أي بالقرآن لقوله قبله ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً ﴾ [50/25].

ومعلوم أن المنافقين كافرون فكان جهاده صلى الله عليه وسلم للكفار بالسيف ومع المنافقين بالقرآن

(223/8)

كما جاء عنه صلى الله عليه وسلم في عدم قتلهم لئلا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ولكن كان جهادهم بالقرآن لا يقل شدة عليهم من السيف لأنهم أصبحوا في خوف وذعر يحسبون كل صيحة عليهم وأصبحت قلوبهم خاوية كأنهم خشب مسندة وهذا أشد عليهم من الملاقاة بالسيف والعلم عند الله تعالى

قوله تعالى ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ﴾ [التحريم: 10].

أجمع المفسرون هنا على أن الخيانة ليست زوجية

وقال ابن عباس نساء الأنبياء معصومات ولكنها خيانة دينية بعدم إسلامهن وإخبارهن أقوامهن بمن يؤمن مع أزواجهن اهـ.

وقد يستأنس لقول ابن عباس هذا بتحريم التزوج من نساء النبي صلى الله عليه وسلم بعده والتعليل له بأن ذلك يؤذيه كما في قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً ﴾ [53/33].

فإذا كان تساؤلهن بدون حجاب يؤذيه والزواج بهن من بعده عند الله عظيم فكيف إذا كان غير التساؤل وبغير الزواج إن مكانة الأنبياء عند الله أعظم من ذلك

وقوله تعالى ﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ﴾ ، فيه بيان أن العلاقة الزوجية لا تنفع شيئاً مع الكفر وقد بين

تعالى ما هو أهم من ذلك في عموم القرابات كقوله تعالى﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ [88/26] .

وقوله ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾ الآية[34/80–35] .

وجعل الله هاتين المرأتين مثلا للذين كفروا وهو شامل لجميع الأقارب كما قدمنا

وقد سمعت من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في معرض محاضرة له الاستطراد في ذلك وذكر قصة هاتين المرأتين وقصة إبراهيم مع أبيه ونوح مع ولده فاستكمل جهات القرابات زوجة مع زوجها وولد مع والده ووالد مع ولده وذكر حديث"يا فاطمة إعملي فإني لا أغني عنك من الله شيئاً" .

ثم قال ليعلم المسلم أن أحدا لا يملك نفع أحد يوم القيامة ولو كان أقرب قريب

(224/8)

إلا بواسطة الإيمان بالله وبما يكرم الله به من شاء بالشفاعة كما في قوله تعالى﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية[21/52] .

قوله تعالى ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحريم: 11] .

جاء في هذا المثل بيان مقابل للبيان المتقدم والمفهوم المخالف له وهو أن المؤمن لا تضره معاشرة الكافر كما أن الكافر لا تنفعه معاشرة المؤمن وفي هذا المثل قال الشيخ رحمة الله تعالى علي وعليه في مذكرة الإملاء:

لقد اختارت امرأة فرعون في طلبها حسن الجوار قبل الدار اهـ

أي في قولها ﴿ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ﴾ الآية[11/66] .

قوله تعالى ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴾ [التحريم: 12] بين تعالى المراد بالروح بأنه جبريل عليه السلام في قوله﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً﴾ [17/19]، وهو جبريل.

كما في قوله ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [193/26]، أي نزل جبريل بالقرآن وفي هذه الآية رد على النصارى استدلالهم بها على أن عيسى عليه السلام ابن الله ومن روحه تعالى سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا وبيان هذا الرد أن قوله تعالى ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ تعدية أرسل بنفسه يدل على أن الذي أرسل يمكن إرساله بنفسه وهو فرق عند أهل اللغة بينما يرسل نفسه وما يرسل مع غيره كالرسالة والهدية فيقال فيه أرسلت إليه بكذا كما في قوله ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ﴾ الآية[35/27]

فالهدية لا ترسل بنفسها ومثله بعثت تقول بعثت البعير من مكانه وبعثت مبعوثا وبعثت برسالة ثانيا قوله ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا ﴾ لفظ الروح مؤنث كما في قوله تعالى ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ الحلقوم وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ﴾ [56/83–84]، أنت الفعل في بلغت وهنا الضمير مذكر عائد لجبريل

وقوله ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً﴾ ،ولو أنه من روح الله على ما ذهب إليه النصارى لما كان في حاجة إلى هذا التمثيل.

(225/8)

ثالثا قوله لها ﴿ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ [19/19] ورسول ربها هو جبريل عليه السلام وليس روحه تعالى رابعا قوله ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلاما زَكِيّاً﴾ [19/19] ولم يقل لأهب لك روحا من الله.

ومن هذا أيضا قوله تعالى للملائكة ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ﴾ [71/38]، يعني آدم عليه السلام ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [29/15]، أي نفخت فيه الروح التي بها الحياة﴿ فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [29/15] فلو أن الروح من الله لكان آدم أولى من عيسى لأنه لم يذكر إرسال رسول له وقد قال تعالى ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [59/3]، فكذلك عيسى عليه السلام لما بشرتها به الملائكة ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا

قَضَى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [47/3] فكل من آدم وعيسى قال له تعالى ﴿كُنْ﴾ فكان والله تعالى أعلم.

(226/8)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الملك

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: 1].

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه معنى ﴿تَبَارَكَ﴾ وذكر أقوال المفسرين واختلافهم في معناها ورجح أنه بحسب اللغة والاشتقاق أنه تفاعل من البركة والمعنى تكاثرت البركات والخيرات من قبله وهذا يستلزم عظمته وتقديسه إلخ.

ثم ذكر تنبيها في عدم تصريفها واختصاصها بالله تعالى وإطلاق العرب إياها على الله تعالى وقال في إملائه ﴿الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ أي نفوذ المقدور في كل شيء يتصرف في كل شيء بما يشاء لا معقب لحكمه اهـ.

والتقديم للموصول وصلته هنا بالصفة الخاصة به تعالى وهي قوله تعالى ﴿تَبَارَكَ﴾ يدل على عظمة الموصول ويدل له قوله تعالى ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [83/36]، لأن التقديم بالتسبيح وهو التنزيه يساوي التقديم بقوله تعالى ﴿تَبَارَكَ﴾ والموصول بعد التسبيح بصلته كالوصول بعد تبارك وصلته سواء بسواء وهذا يؤيد ما ذكره الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في إملائه والله أعلم وقد تقدمت الإشارة إلى الفرق بين الملك والمالك عند قوله تعالى ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ﴾ [23/59]، وهنا تجتمع الصفتان فالذي بيده الملك وملكوت كل شيء هو المالك له الملك عليه وهو رب

العالمين سبحانه قوله تعالى ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الملك: 2] .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه معنى هذه الآية الكريمة بما يوضحها

(227/8)

الآيات عند الكلام على قوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [56/51]، وقبلها في سورة "هود" على قوله تعالى ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [7/11] .

وقال رحمه الله في إملائه جعل للعالم موتتين وإحياءتين ونبي بقوله تعالى ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ الآية[28/2] .

والآية تدل عن أن الموت أمر وجودي لا عدمي كما زعم الفلاسفة لأنه لو كان عدميا لما تعلق به الخلق قوله تعالى ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ﴾ [الملك: 3] الآية .

ذكر خلق السماوات السبع الطباق على هذا النحو دون تفاوت أو فطور بعد ذكر أول السورة يدل على أن خلق هذه السبع من كمال قدرته.

وقد بين الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الحلمة في خلق السماوات والأرض ضمن تنبيه عقده في أواخر سورة "الذاريات"

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه معنى الآية الكريمة والآيات الموضحة لها عند الكلام على أول سورة ق عند قوله تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ [6/50] قال في إملائه إن قوله تعالى ﴿ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ ﴾ عام في جميع مخلوقاته من معنى الاستواء والحكمة والدقة في الصنع وتدخل السماوات في ذلك بدليل قوله تعالى ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [88/27] . وإتقان كل شيء بحسبه كما في قوله ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [50/20] .

وقوله ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ [7/32] . وهذا الحال للسماء في الدنيا فقط وستنفطر يوم القيامة كما في قوله تعالى ﴿ إِذَا السماء انْفَطَرَتْ﴾ [1/82] ﴿ إِذَا السماء انْشَقَّتْ﴾ [1/84] ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السماء بِالْغَمَامِ﴾ [25/25]، ونحو ذلك من الآيات.

قوله تعالى ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ [الملك: 3] تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك عند قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا

(228/8)

السماء سَقْفاً مَحْفُوظاً﴾ [32/21] في سورة "الأنبياء" .

وعند قوله ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السماء فَوْقَهُمْ﴾ [6/50] في سورة "ق" ولعل مجيء هذه الآية بعد ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [2/67] توجيه لي حسن صنع الله وإبداعه في خلقه﴿ ما تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ [3/67] .

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السماء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: 5] .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان زينة السماء بالمصابيح وجعلها رجوما للشياطين بيانا كاملا عند قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السماء بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ [15/16–18]

وقد ذكر طرفا من هذا البحث في سورة الفرقان لا بد من ضمه لي هذا المبحث هناك لارتباط بعضها ببعض

تنبيه

فقد ظهرت تلك المخترعات الحديثة ونادى أصحاب النظريات الجديدة والناس ينقسمون إلى قسمين قسم يبادر بالإنكار وآخر يسارع للتصديق وقد يستدل كل من الفريقين بنصوص من القرآن أو السنة ولعل من الأولى

أن يقال إن النظريات الحديثة قسمان نظرية تتعارض مع صريح القرآن فهذه مردودة بلا نزاع كنظرية ثبوت الشمس مع قوله تعالى: ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ [38/36] .

ونظرية لا تتعارض مع نص القرآن ولم ينص عليها وليس عندنا من وسائل العلم ما يؤيدها ولا يرفضها فالأولى أن يكون موقفنا موقف التثبت ولا نبادر بحكم قاطع إيجابا أو نفيا وذلك أخذا من قضية الهدهد وسبأ مع نبي الله سليمان لما جاء يخبرهم وكان عليه السلام لم يعلم عنهم شيئًا فلم يكذب الخبر كونه من الهدهد ولم يصدقه لأنه لم يعلم عنهم سابقا مع أنه وصف حالهم وصفا دقيقا.

وكان موقفه عليه السلام موقف التثبت مع ما لديه من إمكانيات الكشف والتحقيق من

(229/8)

الريح والطير والجن فقال للمخبر وهو الهدهد سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين

ونحن في هذه الآونة لسنا أشد إمكانيات من نبي الله سليمان آنذاك وليس المخبرون عن مثل هذه النظريات أقل من الهدهد فليكن موقفنا على الأقل موقف من سينظر أيصدق الخبر أم يظهر كذبه ؟

والغرض من هذا التنبيه هو ألا نحمل لفظ القرآن فيما هو ليس صريحا فيه ما لا يحتمله ثم يظهر كذب النظرية أو صدقها فنجعل القرآن في معرض المقارنة مع النظريات الحديثة والقرآن فوق ذلك كله﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [42/41] .

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك: 4] المنصوص هنا إرجاع البصر كرتين ولكن حقيقة النظر أربع مرات

الأولى في قوله ﴿ ما تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ [3/67] .

والثانية في قوله ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ [3/67] .

والثالثة والرابعة في قوله ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [4/67] .

وليس بعد معاودة النظر أربع مرات من تأكيد والحسير العي الكليل العاجز المتقطع دون غاية كما في قول الشاعر:

من مد طرفا إلى ما فوق غايته. . . ارتد خسآن من الطرف قد حسرا

قال القرطبي يقال قد حسر بصره يحسر حسورا أي كل وانقطع نظره من طول مدى وما أشبه ذلك فهو حسير ومحسور أيضا .

قال :

نظرت إليها بالمحصب من منى. . . فعاد إلي الطرف وهو حسير

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السماء الدُّنْيَا﴾

فالدنيا تأنيث الأدنى أي السماء الموالية للأرض ومفهومه أن بقية السماوات ليس فيها مصابيح التي هي النجوم والكواكب كما قال﴿ بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ [6/37] ويدل لهذا

(230/8)

المفهوم ما جاء به عن قتادة أن الله جعل النجوم لثلاثة أمور أمران هنا وهما زينة السماء الدنيا ورجوما للشياطين والثالثة علامات واهتداء في البر والبحر وهذه الأمور الثلاثة تتعلق بالسماء الدنيا لأن الشياطين لا تنفذ إلى السماوات الأخرى لأنها أجرام محفوظة كما في حديث الإسراء"لها أبواب وتطرق ولا يدخل منها إلا بإذن"

وكقوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السما﴾ [40/7] .

وكذلك ليس هناك من يحتاج إلى اهتداء بها في سيره لأن الملائكة كل في وضعه الذي أوجده الله عليه ولأن الزينة لن ترى لوجود جرم السماء الدنيا فثبت أن النجوم خاصة بالسماء الدنيا

وقد أشار تعالى إلى ذلك في قوله تعالى﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السماء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾

[37/6–7].

ومفهوم الدنيا عدم وجودها فيما بعدها ولا وجود للشيطان في غير السماء الدنيا

وقوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوما لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: 5]. وهي الشهب من النار والشهب النار كما في قوله ﴿ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [27/7]، والرجوم والشهب هي التي ترمي بها الشياطين عند استراق السمع كما في قوله تعالى ﴿ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً﴾ [72/9]

وقوله ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [37/10].

وهنا سؤال وهو إذا كان الجن من نار كما في قوله﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ [55/15]، فكيف تحرقه النار ؟

فأجاب عنه الفخر الرازي بقوله إن النار يكون بعضها أقوى من بعض فالأقوى يؤثر على الأضعف ومما يشهد لما ذهب إليه قوله تعالى بعده ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [67/5] والسعير أشد النار.

ومعلوم أن النار طبقات بعضها أشد من بعض وهذا أمر ملموس فقد تكون الآلة مصنوعة من حديد وتسلط عليها آلة من حديد أيضا أقوى منها فتكسرها.

(231/8)

كما قيل لا يقل الحديد إلا الحديد فلا يمنع كون أصله من نار ألا يتعذب بالنار كما أن أصل الإنسان من طين من حما مسنون ومن صلصال كالفخار وبعد خلقه فإنه لا يحتمل التعذيب بالصلصال ولا بالفخار فقد يقضي عليه بضربة من قطعة من فخار والعلم عند الله تعالى

قوله تعالى ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [الملك: 8]. قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في إملائه في هذه الآية إثبات أن للنار حسا وإدراكا وإرادة والقرآن أثبت للنار أنها تغتاظ وتبصر وتتكلم وتطلب المزيد كما قال هنا﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [67/8].

وقال ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾ [12/25]

وقال ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [30/50] .

قوله تعالى ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ [الملك: 8] .

بين تعالى أن النار خزنة وقد بين تعالى أن هؤلاء الخزنة هم الملائكة الموكلون بالنار كما في قوله تعالى﴿ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [6/66] .

كما بين عدتهم في قوله تعالى ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [30/74] .

وقال ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [31/74] .

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في إملائه دلت هذه الآية على أن أهل النار يدخلونها أمة بعد جماعة كما في قوله تعالى ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [38/8] .

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: 8] .

قال رحمة الله تعالى علينا وعليه في إملائه هذا سؤال الملائكة لأهل النار والنذير بمعنى المنذر فهو فعيل بمعنى مفعل وإن ذكر عن الأصمعي إنكاره ونظيره من

القرآن ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ﴾ [117/2] بمعنى مبدع و ﴿ أَلِيمٌ﴾ [10/2]: بمعنى مؤلم.

ومن كلام العرب قول عمرو بن معد يكرب:

أمن ريحانه الداعي السميع. . . يؤرقني وأصحابي هجوع

فالسميع بمعنى المسمع.

ويرفع من صدور شمردلات. . . يصد وجوهها وهج أليم

وقول غيلان: أي: مؤلم والإنذار إعلام مقترن بتخويف

وقال وهذه الآية تدل على أن الله تعالى لا يعذب بالنار أحدا إلا بعد أن ينذره في الدنيا وقد بين هذا المعنى بأدلته بتوسع عند قوله تعالى﴿ وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [15/17]، وساق هذه الآية هناك.

قوله تعالى ﴿ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾ [الملك: 9] .

قد اعترفوا بمجيء النذير إليهم

وقد بين تعالى ذلك في قوله﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [24/35] .

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: 10] .

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في إملائه أي قال أهل النار﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ من يعقل عن الله حججه ﴿ أَوْ نَعْقِلُ﴾ حجج الله ﴿ ما كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أي النار فهم يسمعون ولكن لا يسمعون ما ينفعهم في الآخرة ويعقلون ولكن لا يعقلون ما ينفعهم في الآخرة لأن الله قال﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ [7/2] .

وقال ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً﴾ [57/18] .

وقد بين هذا الذي ذكره رحمة الله تعالى علينا وعليه عدة نصوص صريحة في ذلك منها أصل خلقتهم الكاملة في قوله تعالى ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ

سَمِيعاً بَصِيراً﴾ [2/76]

وفي آخر سورة الملك هذه قوله﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ﴾ [23/67] .

ولكنهم سمعوا وعصوا كما في قوله﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [93/2] .

وهذا وإن كان في بني إسرائيل إلا أنه قال لهذه الأمة ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾

. [12/8]

وقال تعالى عنهم ﴿ قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ [21/8] .

وقوله عنهم ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ [26/41] .

وقد بين تعالى سبب عدم استفادتهم بما يسمعون في قوله تعالى ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً﴾ [45/7–9] .

وقوله ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا﴾ [31/7] .

فقولهم هنا ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾ ، أي سماع تعقل وتفهم.

قوله تعالى ﴿ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: 11] .

قال رحمة الله تعالى علينا وعليه في إملائه الاعتراف الإقرار أي أقروا بذنبهم يوم القيامة حيث لا ينفع الإقرار والندم وتقدم له رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان انتفاع الكفار بإقرارهم هذا بتوسع عند قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [53/7]

واستدل بهذه الآية، آية الملك هناك

والظاهر أن الأصل في ذلك كله أن اعترافهم وإيمانهم بعد فوات الأوان بالمعاينة،

(234/8)

كما جاء في حق فرعون في قوله تعالى ﴿ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرائيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [90/10]، فقيل له ﴿ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [91/10]

وجاء أصرح ما يكون في قوله ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً ﴾ [158/6].

فلما جاء بعض آيات الله وظهر الحق لم يكن للإيمان محل بعد المعاينة ﴿ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا ﴾ أي من قبل المعاينة كحالة فرعون المذكورة لأن حقيقة الإيمان التصديق بالمغيبات فإذا عاينها لم تكن حينذاك غيبا فيفوت وقت الإيمان والعلم عند الله وعليه حديث التوبة "ما لم يغرغر".

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الملك: 12].

والخشية شدة الخوف كما قال تعالى ﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ [49/21].

وبين تعالى محل تلك الخشية في قوله ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [28/35]، لأنهم يعرفون حق الله تعالى ويراقبونه.

وقد بين تعالى حقيقة خشية الله ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ﴾ [74/2]

وقوله ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [21/59].

فالذين يخشون ربهم بالغيب هم الذين يعرفون حق الله عليهم ومراقبته إياهم في السر والعلن ويعلمون أنه مطلع عليهم مهما تخسفوا وتستروا وهم دائما منيبون إلى الله كما في قوله ﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ [50/32–33]، وهذه أعلى درجات السلوك مع الله تعالى كما بين أنها منزلة العلماء

وقد عاب تعالى أولئك الذين يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله ويخشون

الناس ولا يخشون الله ﴿ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [13/9] .

وإفراد الله بالخشية منزلة الأنبياء كما في قوله ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً﴾ [39/33] .

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه والعرب تمدح من يكون في خلوته كمشهده مع الناس

ومنه قول مسلم بن الوليد ومنه قول مسلم بن الوليد

يتجنب الغوات في خلواته . . . عف السريرة غيبه كالمشهد

والواقع أن هذه الصفة وهي خشية الله بالغيب والإيمان بالغيب أساس عمل المسلم كله ومعاملاته لأنه بإيمانه بالغيب سيعمل كل خير طمعا في ثواب الله كما في مستهل المصحف ﴿ الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [2/1–3] .

وبمخافة الله بالغيب سيتجنب كل سوء فيسلم ويتحصل له ما قال الله تعالى عنه ﴿ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [9/5] ﴿ مَغْفِرَةٌ﴾ من ذنوبه ﴿ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ على أعماله رزقنا الله خشيته في السر والعلن

وليعلم أن المراد بالغيب مما هو من جانب العبد لا سيده كما في الحديث في الإحسان "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك" ، وهذا الإحساس هو أقوى عامل على اكتساب خشية الله سبحانه

قوله تعالى ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الملك: 13] .

فيه دلالة على أن السر والجهر عند الله وفي علم الله على حد سواء لأنه عليم بذات الصدور يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

وقوله تعالى ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ [10/13]

وقوله ﴿ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [7/20] .

وتقدم الشيخ عند كل من الآيتين بيان هذه الآية

وقد تقدم قوله تعالى ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ الآية[1/58] .

وقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [16/50] .

وتقدم في سورة التحريم قبل هذه السورة مباشرة قوله تعالى﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ الآية[3/66]، ففيه بيان عملي مشاهد بأنه تعالى يعلم السر وأخفي ولذا قال تعالى هنا:

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: 14]

كما قال في سورة"التحريم" ﴿ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [3/66] .

وقال القرطبي نقلاعن أبي إسحاق الإسفرائيني من أسماء صفات الذات ما هو للعلم منها العليم ومعناه تفهيم جميع المعلومات ومنها الخبير ويختص بأن يعلم ما يكون قبل أن يكون ومنها الحكيم ويختص بأنه يعلم دقائق الأوصاف ومنها الشهيد ويختص بأن يعلم الغائب والحاضر ومعناه ألا يغيب عنه شيء ومنها الحافظ ويختص بأنه لا ينسى ومنها المحصي ويختص بأنه لا تشغله الكثرة عن العلم مثل ضوء النهار واشتداد الريح وتساقط الأوراق فيعلم عند ذلك أجزاء الحركات في كل ورقة وكيف لا يعلم وهو الذي يخلق وقد قال﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ ومن في قوله تعالى ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ ، أجازوا فيها أن تكون فاعل ﴿ يَعْلَمُ﴾ وهو الله تعالى أي إن الذي خلق يعلم ما خلق ومنه ما في الصدور

وأجازوا أن تكون مفعولا والفاعل ضمير مستتر في الفعل﴿ يَعْلَمُ﴾ ، ذكرهما القرطبي وأبو حيان وهو واضح ومحتمل.

ولكن الذي تشهد له النصوص أنها مفعول كما في قوله ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [12/42]: ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [19/40] .

وقوله ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [96/37]، ومن أعمالهم ما يسرون وما يجهرون والعلم عند الله تعالى . قوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ

النُّشُورُ﴾ [الملك: 15]

الذلول فعول بمعنى مفعول وهو مبالغة في الذل

تقول دابة ذلول بينة الذل وقيل في معنى تذليل الأرض عدة أقوال لا تنافي بينها ومجموعها دائر على تمكين الانتفاع منها عن تسهيل الاستقرار عليها وتثبيتها بالجبال كقوله تعالى﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [33–32/79] .

ومن إمكان الزرع فيها كقوله﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً وَعِنَباً وَقَضْباً ﴾ [28–27/80] إلى قوله أيضا ﴿ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ وقد جمع أكثرها في قوله تعالى﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتاً أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتاً﴾ [27–25/77] .

وكنت أسمع الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه يقول في هذه الآية إنها من تسخير الله تعالى للأرض أن جعلها كفاتا للإنسان في حياته بتسهيل معيشته منها وحياته على ظهرها فإذا مات كانت له أيضا كفاتا بدفنه فيها ويقول: لو شاء الله لجعلها حديدا ونحاسا فلا يستطيع الإنسان أن يحرث فيها لا يحفر ولا يبني وإذا مات لا يجد مدفنا فيها .

ومما يشير إلى هذه المعاني كلها قوله تعالى﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ [15/67] لترتبه على ما قبله بالفاء أي بسبب تذليلها بتيسير المشي في أرجائها وطلب الرزق في أنحائها بالتسبب فيها من زراعة وصناعة وتجارة إلخ.

والأمر في قوله تعالى﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ للإباحة ولكن التقديم لهذا الأمر بقوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً﴾ فيه امتنان من الله تعالى على خلقه مما يشعر أن في هذا الأمر مع الإباحة توجيها وحثا للأمة على السعي والعمل والجد والمشي في مناكب الأرض من كل جانب لتسخيرها وتذليلها مما يجعل الأمة أحق بها من غيرها.

كما قال تعالى﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ [65/22] .

(238/8)

وفي قوله ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ﴾ [13/45]، وغير ذلك من الآيات.

ومن رأى هذا التسخير اعترف لله بالفضل والقيام لله بالحمد، وتقديم الشكر كما قال تعالى ﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [36/22].

وقوله ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾ [43/12-14].

أي مع شكر النعمة الاتعاظ والعبرة والاستدلال على كمال القدرة

ومنها المعاد والمنقلب إلى الله تعالى فقوله ﴿ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ بعد المشي في مناكب الأرض وتطلب الرزق وما يتضمن من النظر والتأمل في مسببات الأسباب وتسخير الله لها كقوله تعالى ﴿ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾ بعد ذكر ﴿ خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾، أي: الأصناف وتسخير الفلك والأنعام والبحر والبر فيه ضمنا إثبات القدرة على البعث فيكون المشي في مناكب الأرض واستخدام مناكبها واستغلال ثرواتها والانتفاع من خليها لا لطلب الرزق وحده وإلا لكان يمكن سوقه إليهم ولكن للأخذ بالأسباب أولا وللنظر في المسببات والعبرة بالمخلوقات والتزود لما بعد الممات كما في آية الجمعة" ﴿ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [10/62].

أي: عند مشاهدة آيات قدرته وعظيم امتنانه

وعليه فقد وضع القرآن الأمة الإسلامية في أعز مواضع الغنى والاستغناء والاستثمار والإنتاج فما نقص عليها من أمور دنياها إلا بقدر ما قصرت هي في القيام بهذا العمل وأضاعت من حقها في هذا الوجود

وقد قال النووي في مقدمة المجموع إن على الأمة الإسلامية أن تعمل على استثمار

وإنتاج كل حاجياتها حتى الإبرة لتستغني عن غيرها وإلا احتاجت إلى الغير بقدر ما قصرت في الإنتاج وهذا هو واقع العالم اليوم إذ القدرة الإنتاجية هي المتحكمة وذات السيادة الدولية

وقد أعطى الله العالم الإسلامي الأولوية في هذا كله فعليهم أن يحتلوا مكانهم ويحافظوا على مكانتهم ويشيدوا كيانهم بالدين والدنيا معا وبالله التوفيق

قوله تعالى: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي السماء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ [الملك: 16] . ذكر أبو حيان في قراءة ﴿ ءَأَمِنتُم ﴾ عدة قراءات من تحقيق الهمزتين ومن تسهيل الثانية ومن إدخال ألف بينهما وغير ذلك والخسف ذهابها سفلا كما خسف بقارون والمور الحركة المضطربة أو الحركة بسرعة وقد ثبتها تعالى بالجبال أوتادا كما قال ﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا مَتَاعًا لَّكُمْ ﴾ [79/32-33] و ﴿ مَّن فِي السماء ﴾ قال ابن جرير هو الله تعالى اهـ.

وعزاه القرطبي لابن عباس ويشهد لما قاله ما جاء بعده من خسف الأرض وإرسال الحاصب فإنه لا يقدر عليه إلا الله كما أنه ظاهر النص وبهذا يرد على الكسائي فيما ذهب إليه ومن تبعه عليه كأبي حيان إذ قالوا إنه على تقدير محذوف من قبيل المجاز ومجازه عندهم أن ملكوته في السماء أي على حذف مضاف وملكوته في كل شيء ولكن خص السماء بالذكر لأنها مسكن ملائكته وثم عزته وكرسيه واللوح المحفوظ ومنها تتنزل قضاياه وكتبه وأوامره ونهيه إلخ

وقيل: هو جبريل لأنه الموكل بالخسف وقيل إنه مجاراة لهم في معتقدهم بأن الله في السماء وهذه الأقوال مبناها على نفي صفة العلو لله تعالى وفرارا من التشبيه في نظرهم ولكن ما عليه السلف خلاف ما ذهبوا إليه ومعتقد السلف هو طبق ما قاله ابن جرير لحديث الجارية "أين الله" ؟ قالت في السماء قال: "اعتقها فإنها مؤمنة" ولعدة آيات في هذا المعنى.

وقد بحث الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه هذا المبحث بأوسع وأوضح ما يمكن مما لم يدع لبسا ولا يترك

شبهة ولا يستغني عنه مسلم عالما كان أو متعلما فالعالم يأخذ منه منهج التعليم السليم وأسلوب البيان الحكيم والمتعلم يأخذ منه ما يجب عليه من

(240/8)

معتقد قويم واضح جلي سليم

وقد يقال إن معنى ﴿ في ﴾ هو الظرفية فنجعل السماء ظرفا لله تعالى وهذا يقتضي التشبيه بالمتحيز فيقال إنه سبحانه منزه عن الظرفية بالمعنى المعروف والمنصوص في حق المخلوق

وقد دلت النصوص من السنة على نفي ذلك عنه تعالى واستحالته عقلا عليه سبحانه في حديث "ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة أو دراهم في ترس وما الكرسي في العرش إلا كحلقة في فلاة وما العرش في كف الرحمان إلا كحبة خردل في كف أحدكم" فانتفت ظرفية السماء له سبحانه على المعروف لنا ولأنه سبحانه مستو على عرشه.

وفيما قدمه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في هذا المبحث شفاء وغناء ولله الحمد والمنة قال القرطبي ﴿ إن في السماء ﴾ بمعنى فوق السماء كقوله ﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ [2/9]، أي فوقها لا بالمماسة والتحيز.

وقيل ﴿ في ﴾ بمعنى على كقوله ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ [71/20]، أي عليها إلى أن قال والأخبار في هذا الباب كثيرة صحيحة منتشرة مشيرة إلى العلو لا يدفعها إلا ملحد أو جاهل أو معاند والمراد بها توقيره وتنزيهه عن السفل والتحت ووصفه بالعلو اهـ

وهذا الذي ذكره هو عين مذهب السلف وقد ذكر كلاما آخر فيه التأويل وفيه التنزيه

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ [الملك: 19]

الطير صافات أي مادات أجنحتها ﴿ وَيَقْبِضْنَ ﴾ : أي: يضمنها إلى أجسامها.

قال أبو حيان عطف بالفعل ويقبضن على الاسم صافات ولم يعطف باسم قابضات لأن الأصل في الطيران هو بسط الجناح والقبض طارىء وهذا الذي قال أبو

(241/8)

حيان جار على القاعدة عندهم من أن الاسم للدوام والثبوت والفعل للتجدد والحدوث فالحركة الدائمة في الطيران هي صف الجناح والجديد عليه هو القبض.

وقوله تعالى ﴿ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ دليل على قدرته تعالى وآية لخلقه كما في قوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السماء ما يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [79/16] .

فهي آية على القدرة وقد جاء في آيات أخرى أنه تعالى هو الذي يمسك السماوات والأرض بقدرته جل وعلا كما في قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيما غَفُوراً﴾ [41/35] .

فهو سبحانه ممسكهما بقدرته تعالى عن أن تزولا ولو قدر فرضا زوالهما لا يقدر على إمساكهما إلا هو وكما في قوله ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [65/22] .

تنبيه

ولعل مما يستدعي الانتباه توجيه النظر إلى الطير في الهواء ﴿ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ بعد التخويف بخسف الأرض بأن معلقة في الهواء كتعلق الطير المشاهد إليكم فيمسكها إلا الله وإيقاع الخسف بها كإسقاط الطير من الهواء لأن الجميع ما يمسكه إلا الله تعالى وهو القادر على الخسف بها وعلى إسقاط الطير.

قوله تعالى ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ [الملك: 21] .

يقول تعالى للمشركين من هذا الذي غير سبحانه يرزقكم إن أمسك الله عنكم رزقه

والجواب لا أحد يقدر على ذلك ولا يملكه إلا الله

وقد صرح تعالى بهذا السؤال وجوابه في قوله تعالى ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ [24/34].

أي لا أحد سواه سبحانه لا إله إلا هو قال تعالى ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ

(242/8)

مِنَ السماء وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [3/35].

وذلك لأن الذي يقدر على الخلق هو الذي يملك القدرة على الرزق كما قال تعالى ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السماء وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [31/10].

وكقوله ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [40/30]

وهذا من كمال القدرة على الإحياء والإماتة والرزق وقد بين تعالى أن ذلك لمن بيده مقاليد الأمور سبحانه وتدبير شؤون الخلق كما في قوله تعالى ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ، ثم قال ﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [12/42]، أي يبسط ويقدر بعلم لا عن نقص ولا حاجة ولكن بعلم بمصالح عباده ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [19/42]، أي يعاملهم بلطفه وهو قوي على أن يرزق الجميع رزقا واسعا وهو العزيز في ملكه فهو يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر كما قال تعالى ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [52/39]، أي: بمقتضى اللطف والعلم ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [6/11].

ومن هذا كله يرد على أولئك الذين يطلبون عند غيره الرزق كما في قوله ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ

رِزْقاً مِنَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئاً وَلا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [73/16] .

وقد جمع الأمرين توبيخهم وتوجيههم في قوله تعالى﴿ إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [17/29] .

وقد بين تعالى قضية الخلق والرزق والعبادة كلها في قوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [51/56–58] .

وقد بين تعالى في الآيات المتقدمة أنه يرزق العباد من السماوات والأرض جملة.

(243/8)

ويبين في آيات أخرى كيفية هذا الرزق تفصيلا مما يعجز الخلق عن فعله وذلك في قوله تعالى﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً وَعِنَباً وَقَضْباً وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً وَحَدَائِقَ غُلْباً وَفَاكِهَةً وَأَبّاً مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [80/24–32] .

فجميع أنواع الرزق في ذلك ابتداء من إنزال الماء من السماء ثم ينشأ عنه إشقاق الأرض عن النبات بأنواعه حبا وعنبا وزيتونا ونخلا وحدائق وفاكهة وكلها للإنسان وقضبا وأبا للأنعام والأنعام أرزاق أيضا لحما ولبنا وجميع ذلك قوامه إنزال الماء من السماء ولا يقدر على شيء من ذلك كله إلا الله

فإذا أمسكه الله عن الخلق لا يقوى مخلوق على إنزاله فإذا علم المسلم أن الأرزاق بيد الخلاق ومن بيده مقاليد السماوات والأرض لن يتجه برغبة ولا يتوجه بسؤال إلا إلى الله تعالى موقنا حق اليقين أنه هو سبحانه هو الرزاق ذو القوة المتين.

وكما قال تعالى ﴿ وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَما تُوعَدُونَ فَوَرَبِّ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ [51/22–23] .

وقد جاء عن عائشة رضي الله عنها قولها والله لا يكمل إيمان العبد حتى يكون يقينه بما عند الله أعظم مما بيده.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ [الملك: 30].

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيانه عند قوله تعالى﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [18/23] في سورة "المؤمنون".

(244/8)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة القلم

قوله تعالى: ﴿ ن ﴾

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور عند الكلام على أول سورة "هود" وذكر الأقوال كلها وهي خمسة أقوال

فقيل إنها مما استأثر الله بعلمه أو أنها من أسماء الله أو مركبة من عدة حروف كل حرف من اسم أو أسماء للسور أو أنها للأعجاز وبين رحمه الله وجه كل قول منها ورجح الأخير وأنها للإعجاز بدليل أنه يأتي بعدها دائما الانتصار للقرآن وقد بسط البحث بما يكفي ويشفي

وقال ابن كثير بأقوال أخرى منها أن﴿ ن ﴾ بمعنى الدواة أي بمناسبة ذكر القلم وعزاه إلى الحسن وقتادة وقال إن فيه حديثا مرفوعا ولكن غريب جدا وهو عن ابن عباس "إن الله خلق النون وهي الدواة وخلق القلم فقال أكتب" الحديث.

وعن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "خلق الله النون وهي الدواة"

وذكر ابن جرير كل هذه الأوجه وزاد أوجها أخرى منها أنها افتتاحيات لأوائل السور تسترعي انتباه

المستمعين ثم يتلى عليهم ما بعدها وقيل هي من حساب الجمل وغير ذلك

وقد ذكر ابن جرير عند أول سورة الشورى ﴿ حم عسق ﴾ [42/1-2] أثرا نقله عنه ابن كثير واستغربه واستنكره ولكن وقع ما يقرب من مصداقه ومطابقته مطابقة تامة

ونصه من ابن جرير قال جاء رجل إلى ابن عباس فقال له وعنده حذيفة بن اليمان أخبرني عن تفسير قول الله ﴿ حم عسق ﴾ قال فأطرق ثم أعرض عنه ثم كرر مقالته فأعرض فلم يجبه بشيء وكره مقالته ثم كررها الثالثة فلم يجبه شيئًا.

(245/8)

فقال له حذيفة أنا أنبئك بها وقد عرفت بم كرهها نزلت في رجل من أهل بيته يقال له عبد الإله أو عبد الله ينزل على نهر من أنهار المشرق تنبني عليه مدينتان فشق النهر بينهما شقا فإذا أذن الله في زوال ملكهم وانقطاع دولتهم ومدتهم بعث الله على إحداهما نارا ليلا فتصبح سوداء مظلمة قد احترقت كأنها لم تكن مكانها وتصبح صاحبتها متعجبة كيف أفلتت فما هو إلا بياض يومها ذلك حتى يجتمع فيها كل جبار عنيد منهم ثم يخسف الله بها وبهم جميعا فذلك قوله ﴿ حم عسق ﴾ يعني عزيمة من الله وفتنة وقضاء.

﴿ حم عسق ﴾ يعني عدلا منه ﴿ سين ﴾ يعني سيكون ﴿ ق ﴾ يعني واقع بهاتين المدينتين اهـ

ومع استغراب ابن كثير إياه واستنكاره له فقد وقع مثل ما يشير إليه الحديث على ثورة العراق على عبد الإله في بغداد حيث يشقها النهر شقين، وأنه من آل البيت وقد وقع بها ما جاء وصفه في الأثر المذكور

قوله تعالى ﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: 4].

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان الرد على مقالتهم تلك عند قوله تعالى ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ [23/70] من سورة "المؤمنون".

وساق النصوص، وقال إن في الآية ما يرد عليهم وهو قوله تعالى ﴿ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ [المؤمنون: 70] اهـ.

وهكذا هنا في الآية ما يدل على بطلان دعواهم ويرد عليهم وهو قوله تعالى﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ ، أي على ما جئت به من الحق وقمت به من البلاغ عن الله والصبر عليه كما رد عليهم بقوله﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ [22/81] .

وكذلك قوله تعالى في حق رسوله الكريم الأعظم﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ، لأن المجنون سفيه لا يعني ما يقول ولا يحسن أي تصرف.

والخلق العظيم أرقى منازل الكمال في عظماء الرجال

(246/8)

وقوله تعالى ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ المن القطع أي إن أجره صلى الله عليه وسلم عند الله غير منقطع.

قال الشاعر قال الشاعر:

لمقفر قهر تنازع شلوه. . . عبس كواسب لا يمن طعامها

وقد بين تعالى دوام أجره دون انقطاع في قوله تعالى﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [56/33] .

وصلوات الله تعالى عليه وصلوات الملائكة والمؤمنين لا تنقطع ليلا ولا نهارا وهي من الله تعالى رحمة ومن الملائكة والمؤمنين دعاء.

وفي سورتي "الضحى" و"ألم تشرح" بكاملها: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [93/3–5] .

وقوله ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [4/94] .

ومعلوم من السنة أن من دل على خير فله مثل من عمل به فما من مسلم تكتب له حسنة في صحيفته إلا

وللرسول صلى الله عليه وسلم مثلها .

وقد قال صلى الله عليه وسلم "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث" .

ومنها "أو علم ينتفع به" . وأي علم أعم نفعا مما جاء به صلى الله عليه وسلم وتركه في الأمة حتى قال "تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبدا كتاب الله وسنتي"، إلى غير ذلك من النصوص الدالة على دوام أجره.

أما جزاؤه عند الله فلا يقدر قدره إلا الله تعالى.

وقوله تعالى ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ تقدم أن هذه بمثابة الرد على ادعاء المشركين أولا عليه صلى الله عليه وسلم ورميه بالجنون لأن أخلاق المجانين مذمومة بل لا أخلاق لهم وهنا أقصى مراتب العلو في الخلق.

وقد أكد هذا السياق بعوامل المؤكدات باندراجه في جواب القسم الأول في أول السورة وبإن اللام في ﴿ لَعَلَى ﴾ وجاء بعلى الدالة على الاستعلاء والتمكن بدل من ذو

(247/8)

مثلا ذو خلق عظيم لبيان قوة التمكن والاستعلاء وأنه صلى الله عليه وسلم فوق كل خلق عظيم متمكن منه مستعل عليه

وقد أجمل الخلق العظيم هنا وهو من أعم ما امتدح الله به رسوله صلى الله عليه وسلم في كتابه وقد أرشدت عائشة رضي الله عنها إلى ما يبين هذا الإجمال حينما سئلت عن خلقه صلى الله عليه وسلم الذي امتدح به فقالت "كان خلقه القرآن" تعني والله تعالى أعلم أنه صلى الله عليه وسلم يأتمر بأمره وينتهي بنواهيه كما في قوله تعالى ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [59/7] .

وكما في قوله تعالى ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [17/9] .

وكما قال صلى الله عليه وسلم "لن يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به" فكان هو صلى الله عليه وسلم ممتثلا لتعاليم القرآن في سيرته كلها وقد أمرنا بالتأسي به صلوات الله وسلامه عليه فكان من أهم ما يجب

على الأمة معرفة تفصيل هذا الإجمال ليتم التأسي المطلوب

وقد أخذت قضية الأخلاق عامة وأخلاقه صلى الله عليه وسلم خاصة محل الصدارة من مباحث الباحثين وتقرير المرشدين فهي بالنسبة للعموم أساس قوام الأمم وعامل الحفاظ على بقائها كما قيل خاصة محل الصدارة من مباحث الباحثين وتقرير المرشدين فهي بالنسبة للعموم أساس قوام الأمم وعامل الحفاظ على بقائها كما قيل:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت . . . فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

في قوله صلى الله عليه وسلم "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" .

وقد عنى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رضوان الله تعالى عليهم بقضية أخلاقه بعد نزول هذه الآية فسألوا عائشة رضي الله عنها عن ذلك فقالت "كان خلقه القرآن" وعني بها العلماء بالتأليف كالشمائل للترمذي

أما أقوال المفسرين في الخلق العظيم المعنى هنا فهي على قولين لا تعارض بينهما

منها أنه الدين قاله ابن عباس ومجاهد والسدي وغيرهم

والآخر قول عائشة "كان خلقه القرآن" والقرآن والدين مرتبطان ولكن لم يزل الإجمال موجودا وإذا رجعنا إلى بعض الآيات في القرآن نجد بعض البيان لما كان

(248/8)

عليه صلى الله عليه وسلم من عظيم الخلق مثل قوله تعالى ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [199/7] .

وقوله ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [128/9] .

وقوله ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ ﴾ [159/3] .

وقوله ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [125/16] .

ومثل ذلك من الآيات التي فيها التوجيه أو الوصف بما هو أعظم الأخلاق وإذا كان خلقه صلى الله عليه وسلم هو القرآن فالقرآن يهدي للتي هي أقوم.

والمتأمل للقرآن في هديه يجد مبدأ الأخلاق في كل تشريع فيه حتى العبادات ففي الصلاة خشوع وخضوع وسكينة ووقار فأتوها وعليكم السكينة والوقار.

وفي الزكاة مروءة وكرم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾ [264/2] .

وقوله ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [9/76] .

وفي الصيام "من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه".

وقوله صلى الله عليه وسلم "الصيام جنة"

وفي الحج: ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ .

وفي الاجتماعيات خوطب صلى الله عليه وسلم بأعلى درجات الأخلاق حتى ولو لم يكن داخلا تحت الخطاب لأنه ليس خارجا عن نطاق الطلب ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ ثم يأتي بعدها ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ

(249/8)

ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [17/23–24]، مع أن والديه لم يكن أحدهما موجودا عند نزولها إلى غير ذلك من التعاليم العامة والخاصة التي اشتمل عليها القرآن

وقد عني صلى الله عليه وسلم بالأخلاق حتى كان يوصي بها المبعوثين في كل مكان كما أوصى معاذ بن جبل رضي الله عنه بقوله "اتق الله حيث ما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن"

وقال صلى الله عليه وسلم "إن مما أدرك الناس من كلام النبوة إذا لم تستح فاصنع ما تشاء" أي إن الحياء وهو من أخص الأخلاق سياج من الرذائل وهذا مما يؤكد أن الخلق الحسن يحمل على الفضائل ويمنع من الرذائل كما قيل في ذلك:

إن الكريم إذا تمكن من أذى. . . جاءته أخلاق الكرام فأقلعا

وترى اللئيم إذا تمكن من أذى. . . يطغى فلا يبقى لصلح موضعا

وقد أشار القرآن إلى هذا الجانب في قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [134] .

تنبيه

إن من أهم قضايا الأخلاق بيانه صلى الله عليه وسلم لها بقوله "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" مع أن بعثته بالتوحيد والعبادات والمعاملات وغير ذلك مما يجعل الأخلاق هي البعثة

وبيان ذلك في قضية منطقية قطعية حملية مقدمتها حديث صحيح وهو "الدين حسن الخلق" والكبرى آية كريمة قوله تعالى ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [177/2] .

ولمساواة طرفي الصغرى في الماصدق وهو الدين حسن الخلق يكون التركيب المنطقي بالقياس الاقتراني حسن الخلق هو البر والبر هو الإيمان بالله واليوم

الآخر، إلى آخر ما جاء في الآية الكريمة ينتج حسن الخلق هو الإيمان بالله واليوم الآخر وما عطف عليه

وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الدين كله بأقسامه الثلاثة

الإسلام من صلاة وزكاة إلخ.

والإيمان بالله وملائكته إلخ.

ومن إحسان في وفاء وصدق وصبر وتقوى الله تعالى إذ هي مراقبة الله سرا وعلنا وقد ظهرت نتيجة عظم هذه الأخلاق في الرحمة العامة الشاملة في قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [107/21] .

وكذلك للأمة يوم القيامة كما قال صلى الله عليه وسلم "أقربكم مني منزلة يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا" .

وهي قضية منطقية أخرى "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾

فمكارم الأخلاق رحمة للعالمين في الدنيا ومنزلة عليا للمؤمنين في الآخرة

تنبيه آخر

اتفق علماء الاجتماع أن أسس الأخلاق أربعة

هي الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة .

ويقابلها رذائل أربعة

هي الجهل والشره والجبن والجور.

ويتفرع عن كل فضيلة فروعها:

الحكمة: الذكاء وسهولة الفهم وسعة العلم وعن العفة القناعة والورع والحياء والسخاء والدعة والصبر والحرية وعن الشجاعة النجدة وعظم الهمة وعن السماحة الكرم والإيثار والمواساة والمسامحة.

(251/8)

مكتبة أمة محمد صلى الله عليه وسلم

أما العدالة: وهي أم الفضائل الأخلاقية فيتفرع عنها الصداقة والألفة وصلة الرحم وترك الحقد ومكافاة الشر بالخير واستعمال اللطف فهذه أصول الأخلاق وفروعها فلم تبق خصلة منها إلا وهي مكتملة فيه صلى الله عليه وسلم.

وقد برأه الله من كل رذيلة فتحقق أنه صلى الله عليه وسلم خلق عظيم فعلا وعقلا

وقال الفخر الرازي لقد كان صلى الله عليه وسلم على خلق عظيم والخلق ما تخلق به الإنسان لأن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ ﴾ [90/6]، ولا بد لكل نبي من خصلة فاضلة فاجتمع له صلى الله عليه وسلم جميع خصال الفضل عند جميع الأنبياء وهذا وإن كان له وجه إلا أن واقع سيرته صلى الله عليه وسلم أعم من ذلك

فقد كان قبل البعثة والوحي ملقبا عند القرشيين بالأمين كما في قصة وضع الحجر في الكعبة إذ قالوا عنه الأمين ارتضيناه.

وجاء عن زيد بن حارثة لما أخذ أسيرا وأهدته خديجة رضي الله عنها لخدمته صلى الله عليه وسلم وجاء أهله بالفداء يفادونه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم "ادعوه وأخبروه فإن اختاركم فهو لكم بدون فداء" فقال زيد والله لا أختار على صحبتك أحدا أبدا فقال له "أهله ويحك أتختار الرق على الحرية" فقال نعم والله لقد صحبته فلم يقل لي لشيء فعلته لم فعلته قط ولا لشيء لم أفعله لم تفعله قط ورجع قومه وبقي هو عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ بيده وأعلن تبنيه على ما كان معهودا قبل البعثة

إننا لو قلنا إن اختيار الله إياه قبل وجوده وتعهد الله إياه بعد وجوده من شق الصدر في طفولته ومن موت أبويه ورعاية الله له

كما في قوله تعالى ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ إلى قوله ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [93/3-11] .

إنها نعمة الله تعالى عليه وعلى أمته معه صلوات الله وسلامه عليه ورزقنا التأسي به

﴿ فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ

عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾

[القلم: 8–16]

(252/8)

إذا كان في مجيء الآية قبل هذه ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ على دعواهم الكاذبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنون.

ففي هذه الآية تنزيهه صلى الله عليه وسلم مما اشتملت عليه من رذائل ونقائص وافتضاح لهم وبيان الفرق والبون الشاسع بينه وبينهم ففي الوقت الذي وصفه بأنه على خلق عظيم وصفهم بعكس ذلك من كذب ومداهنة وكثرة حلف ومهانة وهمز ومشي بنميمة ومنع للخير وعتل وتجبر واعتداء وظلم وانقطاع زنيم عشر خصال ذميمة ونتيجتها الوسم بالخزي على الأنوف صغارا لهم

وقد جاءت آيات القرآن تبين مساويء تلك الصفات وتحذر منها ولا يسعنا إيرادها كلها وتكفي الإشارة إلى بعضها تنبيها على جميعها في قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْأِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [49/11–12].

قوله تعالى: ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ .

ذكر القرطبي لمعاني المداهنة فوق عشرة أقوال أرجحها الملاينة وقد ذكر هنا ودادتهم وتمنيهم المداهنة ولم يذكر لنا هل داهنهم صلى الله عليه وسلم أم لا وهل يريدون بذلك مصلحة أم لا ؟

وقد جاء بيان ذلك مفصلا بأنهم أرادوا التدرج من المداهنة وملاينته صلى الله عليه وسلم إلى ما بعدها

من تعطيل الدعوة.

وقد رجح ابن جرير ذلك بقوله ود هؤلاء المشركون يا محمد لو تلين لهم في دينك بإجابتك إياهم إلى الركون إلى آلهتهم فيلينون لك في عبادتك إلهك كما قال جل ثناؤه ﴿ وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ﴾ [74/17] اهـ.

ويشهد لما قاله ابن جرير هذا ما جاء في سبب نزول سورة "الكافرون"

(253/8)

فأنزل الله تعالى ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ السورة [109/1–3]

ومما هو صريح في قصدهم بالمداهنة والدافع عليها والجواب عليهم قد جاء موضحا في قوله تعالى ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ [109/2]، ثم قال تعالى مبينا موقف الرسول الله صلى الله عليه وسلم من هذه المحاولة بقوله ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ [109/2] .

وقد جاء الله بأمره حكما بينه وبينهم وهنا يمكن أن يقال إن كل مداهنة في الدين مع المشركين تدخل في هذا الموضوع.

وقد جاء بعد قوله تعالى ﴿ وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ﴾ إشارة إلى أنهم لا يطاعون في مداهنتهم وأنهم سيبذلون كل ما في وسعهم لترويج مداهنتهم ولو بكثرة الحلف وفرق بين المداهنة في الدين والملاطفة في الدنيا أو التعاون وتبادل المنافع الدنيوية كما قدمنا عند قوله تعالى ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ﴾ [8/60]، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴾ [الطور: 40] .

هذا استفهام إنكاري يدل على أنه لم يسألهم أجرا على دعوته إياهم.

وقال تعالى ﴿ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [23/42] . فالأجر المسؤول المستفهم عنه هو الأجر المادي بالمال ونحوه.

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه مبحث الأجر على الدعوة من جميع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ومبحث أخذ الأجرة على الأعمال التي أصلها مزية الله بحثا وافيا عند قوله تعالى﴿ وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [29/11]من سورة"هود" .

قوله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: 48] .

لم يبين هنا من هو صاحب الحوت ولا نداءه وهو مكظوم ولا الوجه المنهي عنه أن يكون مثله وقد بين تعالى صاحب الحوت في الصافات في قوله تعالى﴿ وَإِنَّ يُونُسَ

(254/8)

لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ إلى قوله ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [139/37–142] .

وأما النداء فقال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه قد بينه تعالى في سورة الأنبياء عند قوله تعالى﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [87/21–88] .

فصاحب الحوت هو يونس ونداؤه هو المذكور في الآية حالة ندائه وهو مكظوم.

أما الوجه المنهي عن أن يكون مثله فهو الحال الذي كان عليه عند النداء وهو في حالة غضبه وهو مكظوم وهذا بيان لجانب من خلقه صلى الله عليه وسلم وتخلقه في قوله تعالى﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ أي على إيذاء قومك ولعل هذا من خصائص وخواص توجيهات الله إليه كما في قوله تعالى﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ

﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [16/126–127] إلى آخر الآية فقد بين تعالى خلقا فاضلا عاما للأمة في حسن المعاملة والصفح .

ثم خص النبي صلى الله عليه وسلم بقوله ﴿وَاصْبِرْ﴾ أي لا تعاقب انتقاما ولو بالمثلية ولكن اصبر وقد كان منه صلى الله عليه وسلم مصداق ذلك في رجوعه من ثقيف حينما آذوه وجاءه جبريل عليه السلام ومعه ملك الجبال يأتمر بأمره إلى أن قال"لا ، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون إني لأرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يؤمن بالله" . فقد صفح وصبر ورجى من الله إيمان من يخرج من أصلابهم

وهذا أقصى درجات الصبر والصفح وأعظم درجات الخلق الكريم قوله تعالى ﴿لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [القلم: 49] .

بين تعالى أنه لم ينبذ بالعراء على صفة مذمومة بل إنه تعالى أنبت عليه شجرة تظله وتستره كما في قوله تعالى ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ﴾ [37/146] .

قوله تعالى ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القلم: 50]

(255/8)

بينه تعالى بقوله ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [37/147–148] .

قوله تعالى ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [القلم: 52] .

فيه عود آخر السورة على أولها وأن الكفار إذا سمعوا الذكر شخصت أبصارهم نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرمونه بالجنون والرد عليهم بأن هذا الذي سمعوه ليس بهذيان المجنون وما هو إلا ذكر للعالمين وفيه ترجيح القول بأن المراد نعمة ربك في أول السورة إنما هي ما أوحاه إليه من الذكر.

(256/8)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحاقة

قوله تعالى: ﴿ الْحَاقَّةُ ﴾ ﴿ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ .

﴿ الحاقة ﴾ من أسماء القيامة وجاء بعدها ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴾ [4/69]، وهي من أسماء القيامة أيضا كما قال تعالى ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾ الآية [101/3–4] .

سميت بالحاقة لأنه يحق فيها وعد الله بالبعث والجزاء وسميت بالقارعة لأنها تقرع القلوب بهولها ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى ﴾ [2/22] .

كما سميت ﴿ الْوَاقِعَةُ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ [56/1–2]

قوله تعالى ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ [الحاقة: 5] والطاغية فاعلة من الطغيان وهو مجاوزة الحد مطلقا كقوله ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ ﴾ [11/69]

وقوله ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ﴾ [6/96]

وقد اختلف في معنى الطغيان هنا فقال قوم طاغية عاقر الناقة كما في قوله تعالى ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾ [91/11–12] فتكون الباء سببية أي بسبب طاغيتها وقيل الطاغية الصيحة الشديدة التي أهلكتهم بدليل قوله تعالى ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾ [31/54] فتكون الباء آلية كقولك كتبت بالقلم وقطعت بالسكين

والذي يشهد له القرآن هو المعنى الثاني لقوله تعالى ﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ [44/51] . قيل لا مانع من إرادة المعنيين لأنهما متلازمان تلازم المسبب للسبب لأن الأول سبب الثاني لما كانوا بعيدا ويشير إليه قوله تعالى ﴿ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾

فالعتو هو الطغيان في الفعل والصاعقة هي الصيحة الشديدة وقد ربط بينهما بالفاء

قوله تعالى ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً ﴾ [الحاقة: 7].

تقدم للشيخ رحمة تعالى علينا وعليه بيان ذلك عند قوله تعالى﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾ [16/41] المتقدم في "فصلت" وفي هذا التفصيل لكيفية إهلاك عاد وثمود بيان لما أجمل في سورة "الفجر" في قوله تعالى ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ [13/89].

قوله تعالى ﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ﴾ [الحاقة: 9

المؤتفكات المنقلبات وهي قرى قوم لوط

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه تفصيل ذلك عند قوله تعالى في هود ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ الآية[82/11]

وفي النجم عند قوله تعالى﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾ [53/53].

تنبيه

نص تعالى هنا أن فرعون ومن قبله والمؤتفكات جاءوا بالخاطئة وهي﴿ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ [10/69]

وكذلك عاد وثمود كذبوا بالقارعة فالجميع اشترك في الخاطئة وهي عصيان الرسول﴿ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ [16/73]، ولكنه قد أخذهم أخذة رابية.

ونوع في أخذهم ذلك فأغرق فرعون وقوم نوح وأخذ ثمود بالصيحة وعادا بريح وقوم لوط بقلب قراهم كما أخذ جيش أبرهة بطير أبابيل فهل في ذلك مناسبة بين كل أمة وعقوبتها أم أنه للتنويع في العقوبة لبيان قدرته تعالى وتنكيله بالعصاة لرسل الله.

الواقع أن أي نوع من العقوبة فيه آية على القدرة وفيه تنكيل بمن وقع بهم ولكن تخصيص كل أمة بما وقع عليها يثير تساؤلا ولعل مما يشير إليه القرآن إشارة خفيفة هو.

(258/8)

الآتي

أما فرعون فقد كان يقول ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي ﴾ [43/51]، فلما كان يتطاول بها جعل الله هلاكه فيها أي في جنسها

وأما قوم نوح فلما يئس منهم بعد ألف سنة إلا خمسين عاما وأصبحوا لا يلدوا إلا فاجرا كفارا فلزم تطهير الأرض منهم ولا يصلح لذلك إلا الطوفان

وأما ثمود فأخذوا بالصيحة الطاغية لأنهم نادوا صاحبهم فتعاطى فعقر فلما كان نداؤهم صاحبهم سببا في عقر الناقة كان هلاكهم بالصيحة الطاغية

وأما عاد فلطغيانهم بقوتهم كما قال تعالى فيهم ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ [89/6–8]، وسواء عماد بيوتهم وقصورهم فهو كناية عن طول أجسامهم ووفرة أموالهم وتوافر القوة عندهم فأخذوا بالريح وهو أرق وألطف ما يكون مما لم يكونوا يتوقعون منه أية مضرة ولا شدة.

وكذلك جيش أبرهة لما جاء مدل بعدده وعدته وجاء معه بالفيل أقوى الحيوانات سلط الله عليه أضعف المخلوقات والطيور ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ﴾ [105/3–4]

وأما قوم لوط فلكونهم قلبوا الأوضاع بإتيان الذكور دون الإناث فكان الجزاء من جنس العمل قلب الله عليهم قراهم والعلم عند الله تعالى.

ولا شك أن في ذلك كله تخويف لقريش.

قوله تعالى ﴿ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ [الحاقة: 14].

تقدم بيانه للشيخ رحمه الله في سورة "الكهف" عند قوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ ﴾ [47/18] .

قوله تعالى ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة: 18] .

تقدم بيانه للشيخ رحمة الله عند قوله تعالى ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ﴾ [49/18] .

(259/8)

قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ [الحاقة: 19] .

تقدم للشيخ رحمه الله بيان قضية أخذ الكتب وحقيقتها عند قوله تعالى ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ ﴾ [49/18] في سورة "الكهف" .

وكذلك بحثها في كتابه دفع إيهام الاضطراب وبيان القسم الثالث من وراء ظهره وفي هذا التفصيل يحقق الكتاب والكتابة وتسجيل الأعمال وإيتائها بنصوص صريحة واضحة كقوله تعالى ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ [49/18] .

وقولهم صراحة ﴿ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ [49/18] .

وقوله ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [18/50] .

وقوله ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [14/17]، فهو كتاب مكتوب ينشر يوم القيامة يقرؤه كل إنسان بنفسه مما يرد قول من يجعل أخذ الكتاب باليمين أو الشمال كناية عن اليمين والشؤم وهذا في الواقع إنما هو من شؤم التأويل الفاسد وبدون دليل عليه والمسمى عند الأصوليين باللعب نسأل الله السلامة والعافية.

قوله تعالى ﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ [الحاقة: 20] .

والظن واسطة بين الشك والعلم وقد يكون بمعنى العلم إذا وجدت القرائن وتقدم للشيخ بيانه عند قوله تعالى ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾ [53/18] أي علموا بقرينة

قوله ﴿ وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً ﴾ [53/18]، وهو هنا بمعنى العلم لأن العقائد لا يصلح فيها الظن ولا بد فيها من العلم والجزم.

وقد دل القرآن على أن الظن قد يكون بمعنى العلم بمفهوم قوله تعالى﴿ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [12/49]، فمفهومه أن بعضه ليس إثما فيكون حقا وكذلك قوله تعالى﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ ﴾ [46/2] .

قوله تعالى ﴿ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ ﴾ [الحاقة: 28]

(260/8)

قيل في ﴿ مَا ﴾ إنها استفهامية بمعنى أي شيء أغنى عني ماليه والجواب لا شيء وقيل نافية أي لم يغن عني ماليه شيئًا في هذا اليوم ويشهد لهذا المعنى الثاني قوله تعالى﴿ يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴾ [88/26] .

وقوله ﴿ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ [2/111] .

وتقدم للشيخ رحمة الله علينا وعليه في سورة "الكهف" على قوله تعالى ﴿ وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي ﴾ [36/18] .

وفي سورة الزخرف عند قوله تعالى﴿ وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا ﴾ الآية[36/43] .

قوله تعالى ﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾ [الحاقة: 29] .

أي: لا سلطان ولا جاه ولا سلطة لأحد في ذلك اليوم كما في قوله تعالى ﴿ وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [48/18] حفاة عراة.

وقوله ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ [94/6] .

قوله تعالى ﴿ إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ [الحاقة: 34] . فيه عطف عدم الحض على طعام المسكين على عدم الإيمان بالله العظيم مما يشير إلى أن الكافر يعذب على الفروع

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه مبحث هذه المسألة في أول سورة فصلت عند قوله تعالى

﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ [41/6–7]، وكنت سمعت منه رحمة الله تعالى علينا وعليه قوله كما أن الإيمان يزيد بالطاعة والمؤمن يثاب على إيمانه وعلى طاعته فكذلك الكفر يزداد بالمعاصي ويجازى الكافر على كفره وعلى عصيانه كما في قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ [16/88].

فعذاب على الكفر وعذاب على الإفساد ومما يدل لزيادة الكفر قوله تعالى ﴿ إِنَّ

(261/8)

الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ﴾ [3/90]، وتقدم للشيخ رحمه الله مبحث زيادة العذاب عند آية "النحل".

قوله تعالى ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ [الحاقة: 40]. إضافة القول إلى الرسول الكريم على سبيل التبليغ كما جاء بعدها قوله ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [70/43] والرسول يحتمل النبي صلى الله عليه وسلم ويحتمل جبريل وقد جاء في حق جبريل قوله تعالى ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [81/19–21].

وهنا المراد به الرسول صلى الله عليه وسلم بقرنية قوله تعالى ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾ [69/41]، وما ع طف عليه لأن من اتهم بذلك هو الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فنفاه ذلك عنه فيكون في ذل كله إثبات الصفة الكريمة لسند القرآن من محمد عن جبريل عن الله وقد أشار لذلك في الآية الأولى في قوله ﴿ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ [81/21–22].

فأثبت السلامة والعدالة لرسل الله في تبليغ كلام الله وفي هذا رد على قريش ما اتهمت به الرسول صلى الله عليه وسلم.

وفيه أيضا الرد على الرافضة دعواهم التغيير أو النقص في القرآن قوله تعالى ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴾

[الحاقة: 44] .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه وبيان هذا المعنى وهو على ظاهره عند الكلام على قوله تعالى﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ الآية[8/46] وهو على سبيل الافتراض بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم.

وقد استبعد أبو حيان أن يكون الضمير في﴿ تقول﴾ راجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم لاستحالة وقوع ذلك منه صلى الله عليه وسلم.

وقال إنها قرئت بالمبني للمجهول ورفع﴿ بعض﴾ وقال وعلى قراءة الجمهور يكون فاعل﴿ تقول﴾ مقدر تقديره ولو تقول علينا متقول وقد ذكر تلك القراءة كل من القرطبي والكشاف ولكن لم يذكرها ابن كثير ولا الطبري ولا النيسابوري ممن يعنون بالقراءات مما يجعل في صحتها نظرا فلو صحت لكانت موجهة ولكن ما استبعده أبو

(262/8)

حيان ومنعه بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم هو في الواقع صحيح ولكن على سبيل الافتراض فليس ممنوعا وقد جاء الافتراض في القرآن فيما هو أعظم من ذلك

كما في قوله تعالى﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [81/43] وقوله ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [22/21]، والنص الصريح في الموضوع ما قاله الشيخ في قولهتعالى ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ [8/46] .

قوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: 74] .

في هذا نفي كل باطل من شعر أو كهانة أو غيرها ولكل نقص أو زيادة.

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان إضافة الحق لليقين ومعنى التسبيح باسم ربك عند آخر سورة

"الواقعة" ، وحق اليقين هو منتهى العلم إذ اليقين ثلاث درجات

الأولى: علم اليقين.

والثانية: عين اليقين.

والثالثة حق اليقين كما في التكاثر﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [102/5–7] فهاتان درجتان والثالثة إذا دخلوها كان حق اليقين ومثله في الدنيا العلم بوجود الكعبة والتوجه إليها في الصلاة ثم رؤيتها عين اليقين ثم بالدخول فيها يكون حق اليقين وكما نسبح الله وهو تنزيهه فكذلك ننزه كلامه لأنه صفة من صفاته.

(263/8)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المعارج

قوله تعالى ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: 1] .

المعلوم أن مادة سأل لا تتعدى بالياء كتعديها هنا ولذا قال ابن كثير إن الفعل ضمن مع فعل آخر يتعدى بالباء وهو مقدر ما استعجل واستدل لذلك بقوله تعالى﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ [29/53]، وذكر عن مجاهد أن سأل بمعنى دعا

واستدل له بقوله تعالى عنهم﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [8/32]، وذكر هذا القول ابن جرير أيضا عن مجاهد

وقرء ﴿ سال ﴾ بدون همزة من السيل ذكرها ابن كثير وابن جرير وقالوا هو واد في جهنم وقيل مخفف ﴿ سَأَلَ﴾ ا هـ.

ولعل مما يرجح قول ابن جرير أن الفعل ضمن معنى مثل آخر قوله تعالى ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾

.[18/42]

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان هذا المعنى عند الكلام على قوله تعالى﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ [32/8] وأحال على سورة سأل وقال وسيأتي زيادة إيضاح إن شاء الله

وقد بين هناك أن قولهم يدل على جهالتهم حيث لم يطلبوا الهداية إليه إن كان هو الحق

وحيث انه رحمه الله أحال على هذه السورة لزيادة الإيضاح فإن المناسب إنما هو هذه الآية﴿ سَأَلَ سَائِلٌ ﴾ بمعنى استعجل أو دعا لوجود الارتباط بين آية﴿ سَأَلَ ﴾ ، وآية ﴿ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ ﴾ المذكورة فإنهما مرتبطان بسبب النزول.

(264/8)

كما قال ابن جرير وغيره عن مجاهد في قوله تعالى﴿ سَأَلَ سَائِلٌ ﴾ قال دعا داع بعذاب واقع قال هو قولهم ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا﴾ والقائل هو النضر بن الحارث بن كلدة

والإيضاح المنوه عنه يمكن استنتاجه من هذا الربط ومن قوله رحمه الله إنه يدل على جهالتهم وبيان ما إذا كان هذا العذاب الواقع هل وقوعه في الدنيا أم يوم القيامة

والذي يظهر والله تعالى أعلم أن جهالة قريش دل عليها العقل والنقل لأن العقل يقضي بطلب النفع ودفع الضر كما قيل:

لما نافع يسعى اللبيب فلا تكن ساعيا.

وأما النقل فلأن مما قص الله علينا أن سحرة فرعون وقد جاءوا متحدين غاية التحدي لموسى عليه السلام ولكنهم لما عاينوا الحق قالوا آمنا وخروا سجدا ولم يكابروا كما قضى الله علينا من نبئهم في كتابه قال تعالى ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ ولما اعترض عليهم فرعون وقال﴿ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ

أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ إلى آخر كلامه قالوا وهو محل الشاهد هنا ﴿ لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ﴾ ولم يبالوا بوعيده ولا بتهديده وقال في استخفاف﴿ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ [20/70–72]، فهم لما عاينوا البينات خروا سجدا وأعلنوا إيمانهم وهؤلاء كفار قريش يقولون مقالتك .

أما وقوع العذاب المسؤول عنه فإنه واقع بهم يوم القيامة وإنما عبر بالمضارع الدال على الحال للتأكيد على وقوعه وكأنه مشاهد وقاله الفخر الرازي وقال هو نظير قوله تعالى﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [16/1] .

وفي قوله تعالى ﴿ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ [المعارج: 3] .

دليل على تأكيد وقوعه لأن ما ليس له دافع لا بد من وقوعه أما متى يكون فقد دلت آية الطور نظيره هذه أن ذلك سيكون يوم القيامة في قوله تعالى﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ [52/7–8]، ثم بين ظرف وقوعه ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً﴾ [52/9–10]، وفي سياق هذه السورة في قوله تعالى ﴿ يَوْمَ تَكُونُ

(8/265)

السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ [70/8–18]، فإنها كلها من أحوال يوم القيامة فدل بذلك على زمن وقوعه ولعل في قوله تعالى ﴿ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ رد على أولئك المستخفين بالعذاب المستعجلين به مجازاة لهم بالمثل كما دعوا وطلبوا لأنفسهم العذاب استخفافا فهي تدعوهم إليها زجرا وتخويفا مقابلة دعاء بدعاء أي إن كنتم في الدنيا دعوتم بالعذاب فهذا هو العذاب يدعوكم إليه﴿ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ﴾ عن سماع الدعوة وأعرض عنها وتولى وهذا الرد بهذه الصفات التي قبله من تغيير السماء كالمهل وتسيير الجبال كالعهن وتقطع أواصر القرابة من الفزع والهول مما يخلع القلوب كما وقع بالفعل في الدنيا كما ذكر القرطبي قصة جبير بن مطعم.

قال قدمت المدينة لأسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم في أسارى بدر فسمعته يقرأ ﴿ وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴾ [52/1–8] فكأنما صدع قلبي فأسلمت خوفا من نزول العذاب وما كنت أظن أن أقوم من مقامي حتى يقع العذاب

وذكر القرطبي أيضا عن هشام بن حسان قال انطلقت أنا ومالك بن دينار إلى الحسن وعنده رجل يقرأ ﴿ وَالطُّورِ ﴾ حتى بلغ ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ فبكى الحسن وبكى أصحابه فجعل مالك يضطرب حتى غشي عليه.

وذكر ابن كثير عن عمر رضي الله عنه أنه كان يعس بالمدينة ذات ليلة إذ سمع رجل يقرأ بالطور قربا لها أعيد منها عشرين يوما فكان هذا الوصف للفزع ردا على ذاك الطلب المستخف والله تعالى أعلم ونأمل أن نكون قد وفينا الإيضاح الذي أراده رحمه الله تعالى قوله تعالى ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج: 4].

في هذه الآية الكريمة مقدار هذا اليوم خمسون ألف سنة وجاءت آيات أخر بأنه ألف سنة في قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [47/22].

وقوله ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [5/32].

(266/8)

فكان بينهما مغايرة في المقدار بخمسين مرة

وقد بحث الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه هذه المسألة في كتاب دفع إيهام الاضطراب وفي الأضواء في سورة "الحج" عند الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ [47/22].

ومما ينبغي أن يلاحظ أن الأيام مختلفة ففي سأل هو يوم عروج الروح والملائكة

وفي سورة "السجدة" هو يوم عروج الأمر فلا منافاة

قوله تعالى ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ [المعارج: 8] .

المهل: دردي الزيت وقيل غير ذلك.

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورة "الرحمن" عند الكلام على قوله تعالى ﴿ فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [37/55] . قوله تعالى ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴾ [المعارج: 9] .

العهن: الصوف وجاء في آية أخرى وصف العهن بالمنفوش في قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ [101/4-5]، وجاءت لها عدة حالات أخرى كالكثيب المهيل وكالسحاب.

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان كل ذلك عند قوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ [47/18] في سورة "الكهف" . قوله تعالى ﴿ وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً﴾ [المعارج: 10] .

الحميم القريب والصديق والولي الموالي كما في قوله تعالى ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [34/41] .

وفي هذه الآية الكريمة أنه في يوم القيامة لا يسأل حميم حميما مع أنهم يبصرونهم بأبصارهم

وقد بين تعالى موجب ذلك وهو اشتغال كل إنسان بنفسه كما في قوله تعالى

(267/8)

﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [37/80]، وكل يفر من الآخر يقول نفسي نفسي كما في قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [80/34-37] .

وقد جاء ما هو أعظم من ذلك في حديث الشفاعة كل نبي يقول نفسي نفسي وجاء قوله تعالى ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ [2/22]، وليس بعد ذلك من فزع إلا المؤمنون ﴿ وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ

آمِنُونَ﴾ [89/27]، جعلنا الله تعالى منهم آمين.

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً﴾ [المعارج: 19] .

الهلوع: فعول من الهلع صيغة مبالغة والهلع قال في الكشاف شدة سرعة الجزع عند مس المكروه وسرعة المنع عند مس الخير وقد فسره الله في الآية﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً﴾ [70/20–21] .

ولفظ ﴿ الْإِنسَانَ﴾ هنا مفرد ولكن أريد به الجنس أي جنس الإنسان في الجملة بدليل استثناء المصلين بعده في قوله تعالى ﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ [70/22]، ومثله قوله تعالى ﴿ وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [103/1–3] ونظيره كثير

وقد قال ابن جرير إن هذا الوصف بالهلع في الكفار ويدل لما قاله أمران:

الأول تفسيره في الآية واستثناء المصلين وما بعده منه لأن تلك الصفات كلها من خصائص المؤمنين ولذا عقب عليهم بقوله

﴿ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾ [70/35]، ومفهومه أن المستثنى منه على خلاف ذلك

والثاني الحديث الصحيح "عجبا لأمر المؤمن شأنه كله خير إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ولا يكون ذلك إلا للمؤمن" فمفهومه أن غير المؤمنين بخلاف ذلك وهو الذي ينطبق عليه الوصف المذكور في الآية أنه هلوع قوله تعالى﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: 23] .

وصف الله تعالى من استثناهم من الإنسان الهلوع بتسع صفات

(268/8)

اثنتان منها تختص بالصلاة وهما الأولى والأخيرة مما يدل على أهمية الصلاة ووجوب شدة الاهتمام بها وهذا من المسلمات في الدين لمكانتها من الإسلام وفي وصفهم هنا بأنهم﴿ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ وفي الأخير ﴿ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [34/70].

قال في الكشاف الدوام عليها المواظبة على أدائها لا يخلون بها ولا يشتغلون عنها بشيء من الشواغل وذكر حديث عائشة مرفوعا "أحب الأعمال إلى الله أدومها ولو قل"

ويشهد لهذا الذي قاله قوله تعالى ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً﴾ [37-36/24].

وقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [9/62].

قال والمحافظة عليها أن يراعوا إسباغ الوضوء لها ومواقيتها ويقيموا أركانها ويكملوها بسننها وآدابها وهذا يشهد له قوله تعالى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [2-1/23]

وحديث المسيء صلاته حيث قال له صلى الله عليه وسلم "ارجع فصل فإنك لم تصل" فنفي عنه أنه صلى مع إيقاعه الصلاة أمامه وذلك لعدم الحفاظ عليها بتوفيتها حقها

وقد بدأ الله أولئك المستثنين وختمهم بالصلاة مما يفيد أن الصلاة أصل لكل خير ومبدأ لهذا المذكور كله لقوله تعالى ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [2-1/23]. فهي عون على كل خير

ولقوله تعالى ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ [45/29]، فهي سياج من كل منكر فجمعت طرفي المقصد شرعا وهما العون على الخير والحفاظ من الشر أي جلب الصالح ودرء المفاسد ولذا فقد عني بها النبي صلى الله عليه وسلم كل عنايتها كما هو معلوم إلى الحد الذي جعلها الفارق والفيصل بين الإسلام والكفر في قوله صلى الله عليه وسلم "العهد الذي بيننا

وبينهم الصلاة من ترك الصلاة فقد كفر"

واتفق الأئمة رحمهم الله على قتل تاركها وكلام العلماء على أثر الصلاة على قلب المؤمن وروحه وشعوره وما تكسبه من طمانينة وارتياح كلام كثير جدا توحي به كله معاني سورة "الفاتحة" .

قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: 25] .

هذا هو الوصف الثاني ويساوي إيتاء الزكاة لأن الحق المعلوم لا يكون إلا في المفروض وهو قول أكثر المفسرين ولا يمنع أن السورة مكية فقد يكون أصل المشروعية بمكة ويأتي التفصيل بالمدينة وهو في السنة الثانية من الهجرة وهنا إجمالا في هذه الآية.

الأول: في الأموال.

والثاني في الحق المعلوم أي القدر المخرج ولم تأت آية تفصل هذا الإجمال إلا آية﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [7/59] وقد بينت السنة هذا الإجمال

أما الأموال فهي لإضافتها تعم كل أموالهم وليس للأمر كذلك فالأموال الزكوية بعض من الجميع وأصولها عند جميع المسلمين هي:

أولا النقدان الذهب والفضة.

ثانيا ما يخرج من الأرض من حبوب وثمار.

ثالثا عروض التجارة.

رابعا الحيوان ولها شروط وأنصباء وفي كل من هذه الأربعة تفصيل وفي الثلاثة الأولى بعض الخلاف

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان كل ما يتعلق بأحكامها جملة وتفصيلا عند آيتي﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [34/9] .

وقوله تعالى ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [141/6]، ولم يتقدم ذكر لزكاة الحيوان

(270/8)

ولا زكاة الفطر وعليه نسوق طرفا من ذلك لتفصيل النصاب في كل منها وما يجب في النصاب وما تدعو الحاجة لذكره من مباحث في ذلك كالخلطة مثلا والصفات في المزكى والراجح فيما اختلف فيثم تتبع ذلك بمقارنة بين هذه الأنصباء في بهيمة الأنعام وأنصباء الذهب والفضة لبيان قوة الترابط بين الجميع ودقة الشارع في التقدير

أولا بيان النوع الزكوي من الحيوان

اعلم رحمنا الله وإياك أن مذهب الجمهور أنه لا زكاة في الحيوان إلا في بهيمة الأنعام الثلاثة الإبل والبقر والغنم الضأن والمعز سواء وألحق بالبقر الجواميس والإبل تشمل العراب والبخاتي والخلاف في الخيل

ولأبي حنيفة رحمه الله تعالى دليل أبي حنيفة رحمه الله استدل لوجوب الزكاة في الخيل بالقياس في حملها على الأصناف الثلاثة الأخرى إذا كانت للنسل أي كانت ذكورا وإناثا بخلاف ما إذا كانت كلها ذكورا بجامع التناسل في كل واشترط لها السوم أيضا.

وبحديث "ما من صاحب ذهب لا يؤدي زكاته إلا إذا كان يوم القيامة صفح له صفائح من نار فتكوى بها جبينه وجنبه وظهره" الحديث وفيه ذكر الأموال الزكوية كلها والإبل والبقر والغنم

فقالوا: والخيل يا رسول الله فقال "الخيل ثلاثة هي لرجل أجر ولرجل ستر ولرجل وزر". أما التي لرجل أجر فرجل ربطها في سبيل الله فأطال لها في مرج أو روضة" إلى آخر ما جاء في هذا القسم.

ورجل ربطها تغنيا وتعففا ثم لم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها فهي لذلك ستر ورجل ربطها رياء وفواء لأهل الإسلام فهي على ذلك وزر.

فقال رحمه الله إن حق الله في رقابها وظهورها هو الزكاة وقد خالفه في ذلك صاحباه أبو يوسف ومحمد ووافقه زفر وبما رواه الدارقطني والبيهقي والخطيب من حديث جابر مرفوعا"في كل فرس سائمة دينار أو عشرة دراهم" أدلة الجمهور على عدم

وجوب الزكاة فيها والرد على أدلة أبي حنيفة رحمه الله

واستدل الجمهور بقوله صلى الله عليه وسلم "ليس على المسلم في عبده ولا فرسه صدقة" .

والفرس اسم جنس يعم وبعدم ذكرها مع بقية الأجناس الأخرى حتى سئل عنها صلى الله عليه وسلم فلو كانت مثلها في الحكم لما تركها في الذكر .

وحديث "قد عفوت عن الخيل فهاتوا زكاة الرقة" . رواه أبو داود .

وأجابوا على استدلال أبي حنيفة بأن حق الله في رقابها وظهورها إعارتها وطرقها إذا طلب ذلك منه

كما أجابوا على حديث جابر بما نقله الشوكاني والدارقطني من أنه لا تقوم به حجة

ورد أبو حنيفة على دليل الجمهور بأن فرسه مجمل وهو يقول بالحديث إذا كان الفرس للخدمة

أما إذا كانت الخيل للتناسل فقد خصها القياس وعلى حديث "عفوت من الخيل" بأنه لم يثبت وهذه دعوى تحتاج إلى إثبات فقد ذكر الشوكاني أنه حسن

ولعل مما يرد استدلال أبي حنيفة نفس الحديث الذي استدل به من قرينة التقسيم إذا أناط الأجر فيها بالجهاد عليها ولم يذكر الزكاة مع أن الزكاة قد تكون ألزم من الأجر أو أعم من الجهاد لأنها تكون لمن لا يستطيع الجهاد كالمرأة مثلا فتزكي فلو كانت فيها الزكاة لما خرجت عن قسم الأجو

ثانيا لو كان حق الله في المذكور هو الزكاة لما ترك لمجرد تذكرها وخيف تعرض للنسيان لأن زكاة الأصناف الثلاثة الأخرى لم تترك لذلك بل يطالب بها صاحبها ويأتي العامل فيأخذها وإن امتنع صاحبها أخذت جبرا عليه وبهذا يظهر رجحان مذهب الجمهور في عدم الوجوب

ومن ناحية أخرى فقد اختلف القول عن أبي حنيفة رحمه الله فيما تعامل به وفيما يخرج في زكاتها فقيل إنه مخير بين أن يخرج عن كل فرس دينارا أو عشرة دراهم وبين أن يقومها ويدفع عن كل مائتي درهم خمسة دراهم وقد جعل الأحناف زكاتها لصاحبها ولا دخل للعامل فيها ولا يجبر الإمام عليها ،

وقد أطال في العداية الكلام عليها ولعل أحسن ما يقال في ذلك ما جاء عن عمر رضي الله عنه في سنن الدارقطني قال جاء ناس من أهل الشام إلى عمر رضي الله عنه فقالوا إنا قد أصبنا أموالا وخيلا ورقيقا وإنا نحب أن نزكيه فقال ما فعله صاحباي قبلي فأفعله أنا ثم استشار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا حسن وسكت علي فسأله فقال هو حسن لو لم تكن جزية راتبة يؤخذون بها بعدك فأخذ من الفرس عشرة دراهم وفيه فوضع على الفرس دينارا.

وفي المنتقى عن أحمد رحمه الله أنهم قالوا نحب أن يكون لنا فيها زكاة وطهور فهي إذا دائرة بين الاستحباب والترك.

وقد جاء في نفس الحديث الطويل المتقدم أنهم قالوا والحمر يا رسول الله فقال "ما أنزل علي فيها شيء إلا هذه الآية الجامعة الفاذة" ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ﴾ [99/7] رواه الستة إلا الترمذي.

وعليه فإن الأحاديث التي هي نص في الوجوب أو للترك لمصلح للاحتجاج والحديث الذي فيه الاحتمال في معنى حق الله في ظهورها ورقابها قال ابن عبد البر إنه مجمل فلم يكن في النصوص المرفوعة متمسك للأحناف في قولهم بوجوب زكاة الخيل وبقي مفهوم الحديث وقول عمر رضي الله عنه

أما مفهوم الحديث فقد أشرنا إلى القرائن التي فيه على عدم الوجوب

وأما فعل عمر رضي الله عنه ففيه قرائن أيضا بل أدلة على عدم الوجوب وهي أولا لأنهم هم الذين طلبوا منه أن يزكيها ويطهرها بالمزكاة وإيجاب الزكاة لا يتوقف على رغبة المالك

ثانيا: توقف عمر وعدم أخذها منهم لأول مرة ولو كانت معلومة له مزكاة لما خفيت عليه ولما توقف

ثالثا: تصريحه بأنه لم يفعله صاحباه من قبله فكيف يفعله هو؟

رابعا: قول علي ما لم تكن جزية من بعدك أي إن أخذها عمر استجابة لرغبة أولئك فلا بأس لتبرعهم بها ما لم يكن ذلك سببا لجعلها لازمة على غيرهم فتكون كالجزية على المسلمين

ومما يستدل به للجمهور حديث "قد عفوت عن الخيل والرقيق فأدوا زكاة

أموالكم" رواه أبو داود.

قال الشوكاني بإسناد حسن، وهذا ما يتفق مع حديث "ليس على المسلم في فرسه ولا في عبدة" رواه الجماعة.

وقد أجاب الأحناف على تردد عمر بأن الخيل لم تكن تعرف سائمة للنسل عند العرب ولكنها ظهرت بعد الفتوحات في عهد عمر وفي هذا القول نظر وعليه فلا دليل على وجوب الزكاة في الخيل فتبقى على البراءة الأصلية ولهذا لم يأت للخيل ذكر في كتاب أنصباء بهيمة الأنعام ولا يرد عليه أن البقر لم يأت ذكرها أيضا فيه لأن زكاة البقر جاءت فيها نصوص متعددة لأصحاب المهن.

وللبخاري وغيره بيان أنصباء الزكاة وما يؤخذ فيها معلوم أنه لم يأت نص من كتاب الله يفصل ذلك ولكن تقدم في مقدمة الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه أن من أنواع البيان بيان القرآن بالسنة وهو نوع من بيان القرآن لقوله تعالى ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [7/59].

وقد بينت السنة أركان الإسلام كعدد الركعات وأوقات الصلوات مفصلة ومناسك الحج

فكذلك بينت السنة مجمل هذا الحق وفي أي أنواع الأموال وإن أجمع نص في ذلك هو كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كتبه وقرنه بسيفه وقد عمل به أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ومضى عليه العمل فيما بعد.

وقد رواه الجماعة عن أنس رضي الله عنه قال أرسل إلي أبو بكر كتابا وكان نقش الخاتم عليه "محمد" سطر و "رسول" سطر و "الله" سطر بسم الله الرحمان الرحيم هذه فريضة الصدقة التي فرضها رسول الله صلى الله عليه وسلم على المسلمين والتي أمر بها رسوله فمن سألها من المسلمين على وجهها فليعطها ومن سأل قومها فلا يعط في أربع وعشرين من الإبل فما دونها من الغنم في كل خمس شاة فإذا بلغت خمسا وعشرين إلى خمس وثلاثين ففيها بنت مخاض فإن لم تكن بنت مخاض فابن لبون فإذا بلغت ستا وثلاثين إلى خمس وأربعين ففيها بنت لبون فإذا بلغت ستا وأربعين إلى ستين ففيها حقة طروقة الجمل فإذا بلغت واحدة وستين إلى خمس وسبعين ففيها جذعة فإذا بلغت ستا وسبعين إلى تسعين

ففيها بنتا لبون فإذا بلغت إحدى وتسعين إلى عشرين ومائة ففيها حقتان طروقتا الجمل فإذا زادت على عشرين ومائة ففي كل أربعين ابنة لبون وفي كل خمسين حقة ومن لم يكن معه إلا أربع من الإبل فليست فيها صدقة إلا أن يشاء ربها فإذا بلغت خمسا ففيها شاة

وصدقة الغنم في سائمتها إذا كانت أربعين إلى عشرين ومائة شاة فإذا زادت على عشرين ومائة إلى مائتين فيها شاتان فإذا زادت على مائتين إلى ثلاث مائة ففيها ثلاث شياه فإذا زادت على ثلاثمائة ففي كل مائة شاة فإذا كانت سائمة الرجل ناقصة عن أربعين شاة واحدة فليس فيها صدقة إلا أن يشاء ربها فلا يجتمع بين مفترق ولا يفرق بين مجتمع خشية الصدقة وما كان من خليطين فإنهما يتراجعان بينهما بالسوية الحديث

فقد بين صلى الله عليه وسلم في هذا الكتاب أنصباء الإبل والغنم وما يجب في كل منهما ولم يتعرض لأنصباء البقر ولكن بين أنصباء البقر حديث معاذ عند أصحاب السنن

قال أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعثني إلى اليمن ألا آخذ من البقر شيئًا حتى تبلغ ثلاثين فإذا بلغت ففيها عجل تبيع جذع أو جذعة حتى تبلغ أربعين فإذا بلغت أربعين ففيها مسنة

ولهذين النصين الصحيحين يكتمل بيان أنصباء بهيمة الأنعام الإبل والبقر والغنم وهو الذي عليه الجمهور وعليه العمل.

وما روي عن سعيد بن المسيب في كل عشر من البقر شاة إلى ثلاثين ففيها تبيع فلم يعمل به أحد.

تنبيه

وليس في الوقص في بهيمة الأنعام زكاة والوقص هو ما بين كل نصاب والذي يليه كما بين الخمسة والتسعة من الإبل وما بين الأربعين والعشرين ومائة من الغنم وما بين الثلاثين والأربعين من البقر وهذا باتفاق إلا خلاف للأحناف في وقص البقر فقط والصحيح هو مذهب الجمهور في الجميع لحديث معاذ لقوله صلى الله عليه وسلم "حتى تبلغ أربعين فإذا بلغت أربعين ففيها مسنة" ، فمفهومه أنه لا زكاة بعد الثلاثين حتى تبلغ أربعين فما بين

الثلاثين والأربعين لا زكاة فيه.

وأبو حنيفة يقول فيه بنسبة من التبيع وقد اشترط لزكاة بهيمة الأنعام النسل والسوم وأنه لا زكاة في المعلوفة ولا التي للعمل كالإبل للحمل عليها والبقر للحرث ونحو ذلك

وقال مالك في المعلوفة وفي العوامل الزكاة قال في الموطإ ما نصه في الإبل النواضح والبقر السواقي وبقر الحرث إني أرى أن يؤخذ من ذلك كله إذا وجبت فيه الصدقة واستدلوا لمالك في ذلك بأمرين

الأول من جهة النصوص.

والثاني من جهة المعنى.

أما النصوص فما جاء عاما في حديث أبي بكر رضي الله عنه في أنصباء الزكاة في أربع وعشرين من الإبل فما دونه الغنم في كل خمس شاة لعمومه في السائمة والمعلوفة هذا في الإبل كذلك في الغنم في كل أربعين شاة شاة أي بدون قيد السوم.

وأما من جهة المعنى فقال الباجي إن كثرة النفقات وقلتها إذا أثرت في الزكاة فإنها تؤثر في تخفيفها وتثقيلها ولا تؤثر في إسقاطها ولا إثباتها كالخلطة والتفرقة والسقي بالنضج والسبح ولا فرق بين السائمة والمعلوفة إلا تخفيف النفقة وتثقيلها.

وأما التمكن من الانتفاع بها فعلى حد واحد لا يمنع علفها من الدر والنسل ورد الجمهور على أدلة مالك أيضا بأمرين:

الأول من جهة النصوص.

والثاني من جهة المعنى.

أما النصوص فما جاء من الإبل في حديث بهز بن حكيم وفيه"في كل أربعين من الإبل سائمة ابنة لبون" رواه أبو داود والنسائي وغيرهما.

وفي الغنم حديث "في سائمة الغنم الزكاة" وهو حديث صحيح.

وفي كتاب أبي بكر وعمر فقالوا جاء قيد السوم في الحديثين وأدلة مالك مطلقة ويحمل المطلق على المقيد كما هو معلوم.

(276/8)

ومما يدل على رجحان أدلة الجمهور أن في حديث الغنم جاء المطلق في بيان العدد في كل أربعين شاة شاة فهو لبيان النصاب أكثر منه لبيان الوصف

وحديث "في سائمة الغنم الزكاة" لبيان محل الوجوب أكثر منه لبيان العدد ومن جهة أخرى يعتبر الحديثان مترابطان وأن كلا منهما عام من وجه خاص من وجه آخر فحديث "في سائمة الغنم الزكاة" عام في الغنم بدون عدد خاص في السائمة.

وحديث "في كل أربعين شاة شاة" عام في الشياه خاص بالأربعين فيخصص عموم كل منهما بخصوص الآخر فيقال في سائمة الغنم الزكاة إذا بلغت أربعين ويقال في كل أربعين شاة شاة إذا كانت سائمة وبهذا تلتئم الأدلة في الإبل والغنم لاشتراط السوم وتحديد العدد

أما البقر فقد حكي الإجماع على اعتبار السوم ومن أدلة الجمهور من جهة المعنى أن السوم والنسل للنماء فيحتمل المواساة أما المعلوفة والعوامل فليست تحتمل المواساة ومما تقدم يترجح قول الجمهور في اشتراط السوم والنسل والله تعالى أعلم.

ما جاء في الخلطة وهي اختلاط المالين معا لرجلين أو أكثر وهي على قسميتن

أولا: خلطة أعيان.

ثانيا: خلطة أوصاف.

فخلطة الأعيان أن يكون المال مشتركا بين الخلطاء على سبيل المشاع كمن ورثوا غنما أو بقرا مثلا ولم يقتسموه

أو أهدي إليهم ولم يقتسموه وهذه الخلطة يكون حكم المال فيها كحكمه لو كان لشخص واحد أو خلطة الأوصاف فهي أن يكون المال متميزا وكل منهم يعرف حصته وماله بعدد وأوصاف سواء بألوانها أو بوسمها أو نحو ذلك ولكنهم خلطوا المال ليسهل القيام عليه كاختلاطهم في الراعي والمرعي والمسرح والمراح والفحل والدلو والحلب .

ونحو ذلك مما هو منصوص عليه لما فيه من الرفق والاكتفاء بواحد من كل ذلك لجميع المال ولو فرق لاحتاج كل مال منه إلى واحد من ذلك كله فهذه الخلطة لها تأثير في الزكاة عند الأئمة الثلاثة مالك والشافعي وأحمد رحمهم الله ولا تأثير لها عند أبي

(277/8)

حنيفة رحمه الله وإنما التأثير عنده في خلطة المشاع

واختلف القائلون بتأثيرها في الزكاة على من تؤثر

فقال أحمد والشافعي تؤثر على جميع الخلطاء من يملكون نصابا ومن لا يملك

وقال مالك لا تؤثر إلا على من ملك نصابا فأكثر ومن لا يملك نصابا فلا تأثير لها عليه ودليل الجمهور على أبي حنيفة في تأثيرها هو قوله صلى الله عليه وسلم في كتاب بيان أنصباء الصدقة ولا يفرق بين مجتمع ولا يجمع بين مفترق خشية الصدقة وما كان من خليطين فإنهم يتراجعان بالسوية .

فقال الجمهور النهي عن تفريق المجتمع لا يتأتى إلا في اجتماع الأوصاف لأن اجتماع المشاع لا يتأتى تفريقه خشية الصدقة وكذلك التراجع بالسوية لا يقال إلا في خلطة الأوصاف لأن خلطة المشاع ما يؤخذ منها ماخوذ من المجموع وعلى المشاع أيضا لأن كل شريك على المشاع له حصته من كل شاة على المشاع

مثال ذلك عند الجميع وإليك المثال للجميع لو أن ثلاثة أشخص يملك كل واحد منهم أربعين شاة فإن كان كل منهم على حدة فعلى كل واحد منهم شاة فإن اختلطوا كانت عليهم جميعا شاة واحدة بالسوية بينهم لأن

مجموعهم مائة وعشرون وهو حد الشاة

وهذا عند الأئمة الثلاثة القائلين بتأثير الخلطة مالك والشافعي وأحمد ولو أن للأول عشرين شاة وللثاني أربعين وللثالث ستين ففيها أيضا شاة

ولكن عند أحمد والشافعي كل بحصته فلو كانت الشاة بستين درهما لكان على الأول عشرة دراهم بنسبة غنمه من المجموع وعلى الثاني عشرون وعلى الثالث ثلاثون كل بنسبة غنمه من المجموع

وعند مالك: لا شيء على الأول لأنه لم يملك نصابا والشاة على الثاني والثالث فقط وبنسبة غنمهما من المجموع فعلى الثاني خمسا القيمة أربعة وعشرون وعلى الثالث ثلاثة أخماسها ستة وثلاثون درهما وهكذا

(278/8)

والدليل قوله صلى الله عليه وسلم "لا يفرق بين مجتمع ولا يجمع بين مفترق خشية الصدقة وما كان من خليطين فإنما يتراجعان بالسوية"

فقال الجمهور النهي عن تفريق المجتمع وتقاسمهما بالسوية دليل على تأثير الخلطة في الزكاة لما فيه من إرفاق

قال الباجي كما في الإرفاق في سقي الحرث ما سقي بالنضح وما سقي بغير النضح

وقال أبو حنيفة ما كان من خليطين يعني الشريكين ولكن يرده قوله صلى الله عليه وسلم "يتراجعان بالسوية" لأن التراجع لا يتحقق إلا في خلطة الجوار والأوصاف

وقال مالك لا تأثير للخلطة على من لم يملك النصاب لقوله صلى الله عليه وسلم "في كل أربعين شاة شاة" فمن لم يملك أربعين شاة فلا زكاة عليه ولا تأثير للخلطة عليه وعلى من النصوص المقدمة يكون الراجح مذهب أحمد والشافعي في قضية الخلطة والله تعالى أعلم

الشروط المؤثرة في الخلطة عند القائلين بها كالآتي عند أحمد رحمه الله تعالى خمسة أوصاف وهي اتحاد المالين في الآنى المرعى المسرح المبيت المحلب الفحل

وعند الشافعي رحمه الله ذكر النووي عشرة أوصاف الخمسة الأولى وزاد أن يكون الشريكان من أهل الزكاة أن يكون المال المختلط نصابا أن يمضي عليهم حول كامل اتحاد المشرب اتحاد الراعي

وعند مالك الراعي والفحل والمراح والدلو والمراد بالدلو المشرب عند الشافعي وعليه يكون الجميع متفقين تقريبا في الأوصاف وما زاده الشافعي معلوم شرعا لأنها شروط في أصل وجوب الزكاة ولكن اختلفوا في المراد من هذه الأوصاف هل تشترط جميعها أو يكفي وجود بعضها

الواقع أنه لا نص في ذلك ولكن يرجع إلى تحقيق المناط فيما يكون به الإرفاق فمالك اكتفي ببعضها كالفحل والمرعى والراعي والشافعي اشترط توفر جميع تلك

(279/8)

الأوصاف وإلا فلا تكون الخلطة مؤثرة ولكل في مذهبه خلاف في تلك الأوصاف لا نطيل الكلام بتتبعه وإنما يهمنا بيان الراجح فيما فيه الخلاف في أصل المسألة وقد ظهر أن الراجح هو الآتي

أولا صحة تأثير الخلطة.

ثانيا اشتراط الأوصاف التي تتحقق بها الخلطة عرفا.

ملحوظة

لقد عرفنا أنصباء بهيمة الأنعام جملة وتفصيلا وبقي علينا الإجابة عن سؤال طال ما جال تفكر كل دارس فيه وهو ما يقوله جميع الفقهاء إن المقادير توقيفية ومنها أنصباء الزكاة ومعنى توقيفية أنه لا اجتهاد فيها ولكن هل هي جاءت لغوية أو أن بين هذه الأنصباء ارتباط ونسبة مطردة

الواقع أنه وإن كان الواجب على كل مسلم والذي عليه المسلمون قديما وحديثا هو الامتثال والطاعة إلا أننا لما كنا في عصر مادي والنظام الاقتصادي هو الأصل في سياسة العالم اليوم فإن البعض قد يتطلع إلى الإجابة عن هذا السؤال.

وقد حاولت الإجابة عليه بعمل مقارنة عامة توجد بها نسبة مطردة كالآتي

أولا في النقدين معلوم أن نصاب الذهب عشرون مثقالا والفضة مائتا درهم وفي كل منهما ربع العشر وكان صرف الدينار عشرة دراهم فيكون نصاب الذهب من ضرب عشرين في عشرة فيساوي مائتين فهي نسبة مطردة كما ترى .

وإذا جئنا للنسبة بين الذهب والفضة وهي أصل الأثمان وبين الغنم نجد الآتي

أولا في حديث عروة البارقي أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطاه دينارا ليشتري لهم شاة فذهب وأتاهم بشاة ودينار فقال له صلى الله عليه وسلم"ماذا فعلت" فقال اشتريت شاتين بالدينار ثم لقيني رجل فقال أتبيعني شاة فبعته شاة بدينار فقال له صلى الله عليه وسلم"بارك الله لك في صفقة يمينك" .

معنى هذا أن الدينار قيمته الشرائية تعادل شاتين من ضرب عشرين دينارا في اثنتين فيساوي أربعين شاة وهذا هو نصاب الغنم وفي الأربعين شاة شاة وقيمتها الشرائية نصف الدينار وهي خمسة دراهم وهي ما يؤخذ في العشرين مثقالا فاطردت النسبة أيضا

(280/8)

بين الذهب والفضة وبين الغنم

أما بين الغنم والإبل فقد وجدنا أن البدنة عن سبع شياه في الهدي ونصاب الإبل خمسة وتضربها في سبع فيساوي خمسة وثلاثين ولو جعلت ستا لكانت تعادل اثنين وأربعين فأخذنا بالأقل احتياطا لحق المسكين فكان بين نصاب الإبل ونصاب الغنم نسبة مطردة

وكذلك نصاب الغنم ونصاب النقدين نسبة مطردة فظهرت الدقة واطراد النسبة في الأنصباء

ما يجوز أخذه وما لا يجوز أخذه في الزكاة

اتفقوا على أنه لا تؤخذ الذكور في الزكاة اللهم إلا ابن لبون لمن لم تكن عنده بنت مخاض

واختلف فيما لو كان النصاب كله ذكورا والواقع أن هذا نادر ولكن اتفقوا على أنه لا تؤخذ السخال مع وجوب الاعتداد بها على صاحبها.

كما جاء عن عمر رضي الله عنه اعتد عليهم بالسخلة يأتي بها الراعي ولا تأخذها منهم ولا يجوز أخذ فحل الإبل ولا تيس الغنم ولا الربى ولا الحلوبة لما في ذلك من المضرة على صاحب المالى

كما لا تؤخذ السخلة ولا العجفاء لما فيه من مضرة المسكين والأصل في ذلك ما رواه مالك رحمه الله في الموطأ قال اعتد عليهم بالسخلة يحملها الراعي ولا تأخذها ولا تأخذ الأكولة ولا الربى ولا الماخض ولا فحل الغنم وتأخذ الجذعة والثنية وذلك عدل بين غذاء الغنم وخيارها وغذاء الغنم صغارها وخيارها كبارها وأسمنها فهي عدل أي وسط.

وهنا تتحتم كلمة يعتبر كل نظام مالي في العالم نظاما ماديا بحتا يقوم على مباني الأرقام والإحصاء فهو جاف في شكله كالجسم بدون روح إلا نظام الزكاة فهو نظام حي له روحه وعاطفته

ففي الوقت الذي يلزم الغني بدفع قسط للفقير يحظر على العامل أن يأخذ فوق

(281/8)

ما وجب أو أحسن ما وجد.

كما قال صلى الله عليه وسلم "وإياك وكرائم أموالهم" .

وفي الوقت الذي يدفع الغني فيه جزءا من ماله يستشعر أنه يدفعه لوجه الله وينتظر أجره جل وعلا فأصبحت الزكاة بين عامل متحفظ وبين مالك متطوع عامل يخشى قوله صلى الله عليه وسلم "واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب" ، ومالك يرجو في الحسنة عشر أمثالها وسبعمائة وزيادة مضاعفة

وقد وقعت قضية مذهلة لم يشهد نظام مالي في العالم مثلها وهي أنه ذهب عامل رسول الله صلى الله عليه وسلم للصدقة فمر برجل في قرية قريبة من المدينة بصاحب إبل فحسبها فقال لصاحبها أخرج بنت لبون.

فقال صاحب الإبل كيف أخرج بنت لبون في الزكاة وهي لا ظهر يركب ولا ضرع يحلب ولكن هذه ناقة كوماء فخذها في سبيل الله.

فقال العامل وكيف آخذ شيئاً لم يجب عليك فتلاحيا معا العامل وصاحب المال وأخذا قال له العامل إن كنت ولا بد مصرا فها هو رسول الله صلى الله عليه وسلم منك قريب بالمدينة اذهب بها إليه فإن قبلها منك أخذتها فذهب بها فقال له صلى الله عليه وسلم"أعن طيب نفس ؟" قال: نعم يا رسول الله فأمر العامل بأخذها فدعا له صلى الله عليه وسلم بالبركة فعاش حتى عهد معاوية فكانت زكاة إبله هذه هي روح الزكاة في الإسلام لا ما يفعله أصحاب الأموال في النظم الأخرى

أما نظام الضرائب حيث يتهربون ويقللون ويتخذون دفاتر متعددة بعضها لمصلحة الضرائب يقلل فيها دخله وكسبه لتخف الضريبة عليه لأنه يراها مغرما كالجزية وبعضها لنفسه ليعرف حقيقة ماله

أما الزكاة فإن مالكها يقدم زكاتها لوجه الله ليطهر ماله لقوله تعالى﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ [103/9] .

وكما قال صلى الله عليه وسلم "إن أحدكم ليتصدق بالصدقة وإنها لتقع أول ما تقع في كف الرحمان فينميها له كما ينمي أحدكم فلوه" ، أي ولد فرسه حتى تكون مثل جبل أحد.

(282/8)

وكما قال صلى الله عليه وسلم "ما نقصت صدقة من مال"

زكاة الفطر

إن أهم مباحث زكاة الفطر هي الآتي:

أولا حكمها صدر تشريعها.

ثانيا على من تكون.

ثالثا مم تكون.

رابعا كم تكون.

خامسا متى تكون.

سادسا هل تجزىء فيها القيمة أم لا ؟.

وكذلك القيمة في غيرها من الزكوات

أما حكمها فهي فرض عين عند أحمد والشافعي وعند أبي حنيفة هي واجب على اصطلاحه أي ما وجب بالسنة .

وعند المالكية واجبة وقيل: سنة .

قال في مختصر خليل بن إسحاق يجب بالسنة صاع إلخ

والسبب في اختلافهم هذا هل هي داخلة في عموم﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [43/2]، أي شرعت بأصل مشروعية الزكاة في الكتاب والسنة أم أنها شرعت بنص مستقل عنها

فمن قال بفرضيتها قال إنها داخلة في عموم إيجاب الزكاة ومن قال بوجوبها فهذا اصطلاح للأحناف ولا يختلف الأمر في نتيجة التكليف إلا أن عندهم لا يكفر بجحودها.

وقال المالكية: يجب بالسنة صاع من بر إلخ، أي: أن وجوبها بالسنة لا بالكتاب.

وعندهم: لا يقاتل أهل بلد على منعها ويقتل من جحد مشروعيتهاوهذا هو الفرق بينهم وبين الأحناف

(283/8)

ولكن في عبارة مالك في الموطأ إطلاق الوجوب أنه قال: أحسن ما سمعت فيما يجب على الرجل من زكاة الفطر أن الرجل يؤدي ذلك عن كل من يضمن نفقته إلخ

ومن أسباب الخلاف بين الأئمة رحمهم الله نصوص السنة منها قولهم فرض رسول اللهصلى الله عليه وسلم زكاة

الفطر صاعا من تمر أو صاعا من شعير الحديث

فلفظة فرض أخذ منها من قال بالفرضية وأخذ منها الآخرون بمعنى قدر لأن الفرض القدر والقطع

وحديث قيس بن سعد بن عبادة عند النسائي قال:

أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بصدقة الفطر قبل أن تنزل الزكاة فلما نزلت الزكاة لم يأمرنا ولم ينهنا ونحن نفعله.

فمن قال بالوجوب والفرض قال الأمر للأول للوجوب وفرضية زكاة المال شملتها بعمومها فلم يحتج معها لتجديد أمر ولم تنسخ فنهى عنها وبقيت على الوجوب

الأول وحديث: فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث وطعمة للمساكين "من أداها قبل الصلاة فهي زكاة مقبولة ومن أداها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات" فمن لم يقل بفرضيتها قال إنها طهرة للصائم وطعمة للمساكين فهي لعلة مربوطة بها وتفوت بفوات وقتها ولو كانت فرضا لما فاتت بفوات الوقت وأجاب الآخرون بأن ذلك على سبيل الحث على المبادرة لأدائها ولا مانع من أن تكون فرضا وأن تكون طهرة.

ويشهد لهذا قوله تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [103/9]، فهي فريضة وهي طهرة والراجح من ذلك كله أنها فرض للفظ الحديث فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم "زكاة الفطر صاعا من تمر" لأن لفظ فرض إن كان ابتداء فهو للوجوب وإن كان بمعنى قدر فيكون الوجوب بعموم آيات الزكاة وهو أقوى.

وحديث خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر بصدقة الفطر صاعا من تمر الحديث رواه أبو داود والأمر للوجوب ولا صارف له هنا.

(284/8)

وقد قال النووي إن القول بالوجوب هو قول جمهور العلماء وهذا هو القول الذي تبرأ به الذمة ويخرج به العبد من العهدة والله تعالى أعلم.

أما مم تكون فالأصل في ذلك أثر أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ورواه مالك في الموطأ عنه

قال: كنا نخرج صاعا من طعام أو صاعا من أقط أو صاعا من شعير أو صاعا من تمر أو صاعا من زبيب

وجاء لفظ السلت وجاء لفظ الدقيق وجاء لفظ السويق فوقف قوم عند المنصوص عليه فقط وهم الظاهرية

ونظر الجمهور إلى عموم الطعام والغرض من مشروعيتها على خلاف في التفصيل عند الأئمة رحمهم الله كالآتي:

أولا عند الشافعية يجوز إخراجها من كل قوت لأثر أبي سعيد وفيه لفظ الطعام

ثانيا من غالب قوت المكلف بها لأنها الفاضل عن قوته

ثالثا من غالب قوت البلد لأنها حق يجب في الذمة تعلق بالطعام كالكفارة

وقال النووي تجوز من كل حب معشر وفي الأقط خلاف عن الشافعي المالكية.

روى مالك في الموطأ حديث أبي سعيد المتقدم وقال الباجي في شرحه تخرج من القوت ونقل عن مالك في المختصر يؤديها من كل ما تجب فيه الزكاة إذا كان ذلك من قوته وهو مثل قول النووي من كل حب معشر وناقش الباجي مسألة إجزائها من الأرز والذرة والدخن فقال لا تجوزنها عند أشهب ويجوز عند مالك وناقش القطاني الحمص والترمس والجلبان فقال مالك يجوزها إذا كانت قوته وابن حبيب لا يجوزها لأنها ليست من المنصوص.

واتفق مذهب المالكية أن المطعوم الذي يضاف إلى غيره كالأبازير كزبرة وكمون ونحوه أنها لا تجزئ الحنابلة قال في المغني من كل حبة وثمرة تقتات.

وقال في الشرح أي عند عدم الأجناس المنصوص عليها فيجزىء كل مقتات من الحبوب والثمار

قال وظاهر هذا أنه لا يجزئه المقتات من غيرها كاللحم واللبن وعند انعدام هذه أيضا يعطي ما قام مقام الأجناس المنصوص عليها.

وعن ابن حامد عندهم حتى لحم الحيتان والأنعام ولا يردون إلى أقرب قوت الأمصار ويجزىء الأقط لأهل البادية إن كان قوتهم وعندهم من قدر على المنصوص عليه فأخرج غيره لم يجزه

الأحناف: تجوز من البر والتمر والشعير والزبيب والسويق والدقيق ومن الخبز مع مراعاة القيمة وتجوز القيمة عندهم عوضا عن الجميع مع الاختلاف عندهم في مقدار الواجب من هذه الأصناف بين الصاع أو نصف الصاع على ما يأتي إن شاء الله

وقد ناقشهم ابن قدامة في المغني عند قوله

ومن أعطى القيمة لم تجزئه ونقل عن أحمد أخاف ألا تجزئه خلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبهذا العرض نجد الأئمة رحمهم الله اتفقوا على المنصوص عليه في أثر أبي سعيد وزاد بعضهم من غير المنصوص عليه غير المنصوص.

إما بعموم لفظ الطعام وإن كان يراد به عرفا القمح إلا أن العبرة بعموم اللفظ وهو العرف اللغوي

وإما بعموم مدلول المعنى العام والخلاف في الأقط والنص يقضى به

وانفرد الأحناف بالقول بالقيمة وبالنظر إلى المعنى العام لمعنى الزكاة وهو قوله صلى الله عليه وسلم"طعمة للمسكين وطهرة للصائم" .

وقوله: "اغنوهم بها عن السؤال" . لوجدنا إشارة إلى جواز إخراجها من كل ما هو طعمة للمساكين ولا نحده بحد أو نقيده بصنف فإلحاق غير المصوص بالمنصوص بجامع العلة متجه أما القيمة فقد ناقش مسألتها صاحب فتح القدير شرح الهداية في باب زكاة الأموال وعمدة أدلتهم الآتي

أولا: بين الجذعة والمسنة في الإبل بشاتين.

ثانيا: قول معاذ لأهل اليمن: ائتوني بخميص أو لبيس مكان الذرة والشعير؟ أهون عليكم وخير لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. رواه البخاري.

(286/8)

ثالثا: رأى النبي صلى الله عليه وسلم ناقة حسنة في إبل الصدقة فقال"ما هذه ؟" قال صاحب الصدقة إني ارتجعتها ببعيرين من حواشي الإبل قال"نعم" .

رابعا: مثلها مثل الجزية يؤخذ فيها قدر الواجب كما تؤخذ عينهوالجواب عن هذا كله كالآتي:

أما التعويض بين الجذعة والمسنة أو الحقة إلى آخره في الإبل بشاتين أو عشرين درهما وهو المنصوص في حديث أنس في كتاب الأنصباء المتقدم ونصه ومن بلغت عنده من الإبل صدقة الجذعة وليست عنده وعنده حقة فإنه تقبل منه الحقة ويجعل معها شاتين أوعشرين درهما ومن بلغت عنده صدقة الحقة وليست عنده وعنده الجذعة فإنها تقبل منه ويعطيه المصدق عشرين درهما أو شاتين ومن بلغت عنده صدقة الحقة وليست عنده إلا ابنة لبون فإنها تقبل منه ابنة لبون ويعطي شاتين أو عشرين درهما إلى آخر الحديث

فليس في هذا دليل على قبول القيمة في زكاة الفطر لأن نص الحديث فمن وجبت عليه سن معينة وليست عنده وعنده أعلى أو أنزل منها فللعدالة بين المالك والمسكين جعل الفرق لعدم الحيف ولم يخرج عن الأصل وليس فيه أخذ القيمة مستقلة بل فيه أخذ الموجود ثم جبر الناقص

فلو كانت القيمة بذاتها وحدها تجزىء لصرح بها صلى الله عليه وسلم

ولا يجوز هذا العمل إلا عند افتقاد المطلوب والأصناف المطلوبة في زكاة الفطر إذا عدمت أمكن الانتقال إلى الموجود مما هو من جنسه لا إلى القيمة وهذا واضح

وقال ابن حجر رحمه الله في الفتح لو كانت القيمة مقصودة لاختلفت حسب الزمان والمكان ولكنه تقدير شرعي.

أما قول معاذ لأهل اليمن "ائتوني بخميس أو لبيس مكان الذرة والشعير" فقد ناقشه ابن حجر في الفتح من حيث السند والمعنى ولكن السند ثابت أما المعنى فقيل إنه في الجزية

ورد هذا بأن فيه مكان الذرة والشعير والجزية ليست منها

وقيل: إنه بعد أن يستلم الزكاة الواجبة من أجناسها يستبد لها من باب البيع والمعاوضة عملا بما فيه المصلحة للطرفين.

وقيل إنه اجتهاد منه رضي الله عنه ولكنه اجتهاد أعرفهم بالحلال والحرام إلى غير ذلك

والصحيح الثاني: أنه تصرف بعد الاستلام وبلوغها محلها ولا سيما مع نقلها إلى المدينة بخلاف زكاة الفطر فليست تنقل ابتداء ولأن مهمة زكاة المال أعم من مهمة زكاة الفطر ففيها النقدان والحيوان

أما زكاة الفطر فطعمة للمسكين في يوم الفطر فلا تقاس عليها

أما الناقة الحسنة التي رآها صلى الله عليه وسلم وأنها بدل من بعيرين فهو من جنس الاستبدال بالجنس عملا للمصلحة لم تخرج عن جنس الواجب

وأما الجزية يؤخذ منها قدر الواجب فلا دليل فيه إذ زكاة الفطر فيها جانب تعبد وارتباط بركن في الإسلام

وأما الجزية فهي عقوبة على أهل الذمة عن يد وهم صاغرون فأيما أخذ منهم فهو واف بالغرض فلم يبق للقائلين بالقيمة في زكاة الفطر مستند صالح فضلا عن عدم النص عليها.

وختاما إن القول بالقيمة فيه مخالفة للأصول من جهتين

الجهة الأولى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما ذكر تلك الأصناف لم يذكر معها القيمة ولو كانت جائزة لذكرها مع ما ذكر كما ذكر العوض في زكاة الإبل وهو صلى الله عليه وسلم أشفق وأرحم بالمسكين من كل إنسان.

الجهة الثانية وهي القاعدة العامة أنه لا ينتقل إلى البدل إلا عند فقد المبدل عنه وأن الفرع إذا كان يعود على الأصل بالبطلان فهو باطل.

كما رد ابن دقيق العيد على الحنابلة قولهم إن الاشنان يجزىء عن التراب في الولوغ أي لأنه ليس من جنسه ويسقط العمل به.

وكذلك لو أن كل الناس أخذوا بإخراج القيمة لتعطل العمل بالأجناس المنصوصة،

فكأن الفرع الذي هو القيمة سيعود على الأصل الذي هو الطعام بالإبطال، فيبطل

ومثل ما يقوله بعض الناس اليوم في الهدي بمنى مثلا بمثل علما بأن الأحناف لا يجيزون القيمة في الهدي لأن الهدي فيه جانب تعبد وهو النسك

ويمكن أن يقال لهم أيضا إن زكاة الفطر فيها جانب تعبد طهرة للصائم وطعمة للمساكين كما أن عملية شرائها ومكيلتها وتقديمها فيه إشعار بهذه العبادة أما تقديمها نقدا فلا يكون فيها فرق عن أي صدقة من الصقلت من حيث الإحساس بالواجب والشعور بالإطعام

وقد أطلنا الكلام في هذه المسألة لأن القول بالقيمة فيها جزء الناس على ما هو أعظم وهو القول بالقيمة في الهدي وهو ما لم يقله أحد على الإطلاق حتى ولا الأحناف

بيان القدر الواجب في زكاة الفطر:

اتفق الجميع على أن الواجب في زكاة الفطر على كل شخص عن نفسه إنما هو صاع بصاع النبي صلى الله عليه وسلم من جميع الأصناف المتقدم ذكرها.

وخالف أبو حنيفة في القمح فقال نصف الصاع فقط منها يكفي وسيأتي بيان الراجح في ذلك إن شاء الله

ثم اختلفوا بعد ذلك في مقدار الصاع الواجب من حيث الوزن فقال الجمهور هو خمسة أرطال وثلث

وقال أبو حنيفة هو ثمانية أرطال وخالفه أبو يوسف ووافق الجمهور

ما مقدار الصاع فهو في العرف الكيل وهو أربع حفنات بكفي رجل معتدل الكفين ولتفاوت الناس في ذلك عمد العلماء إلى بيان مقداره بالوزن.

وقد نبه النووي أن المقدار بالوزن تقريبي لأن المكيلات تختلف في الوزن ثقلا وخفة باختلاف أجناسها كالعدس والشعير مثلا وما كان عرفه الكيل لا يمكن ضبطه بالوزن ولكنه على سبيل التقريب

ولهذا المعنى قال صاحب المغني إن من أخرج الزكاة بالوزن عليه أن يزيد بالقدر الذي يعلم أنه يساوي الكيل ولا سيما إذا كان الموزون ثقيلا.

(289/8)

ونقل عن أحمد أن من أخرج وزن الثقيل من الخفيف يكون قد أخرج الواجب بالتأكيد

أقوال العلماء في وزن الصاع

قال الجمهور: هو خمسة أرطال وثلث الرطل بالعراقي

وقال أبو حنيفة رحمه الله هو ثمانية أرطال وخالفه أبو يوسف كما تقدم وسبب الخلاف هو أن أبا حنيفة أخذ بقول أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ بمد، وهو رطلان ومعلوم أن الصاع أربعة أمداد فعليه يكون ثمانية أرطال.

ودليل الجمهور هو أن الأصل في الكيل هو عرف المدينة كما أن الأصل في الوزن هو عرف مكة وعرف المدينة في صاع النبي صلى الله عليه وسلم أنه خمسة أرطال وثلث.

كما جاء عن أحمد رحمه الله قال أخذت الصاع من أبي النضر.

وقال أبو النضر أخذته عن أبي ذؤيب

وقال هذا صاع النبي صلى الله عليه وسلم الذي يعرف بالمدينة

قال أبو عبد الله فأخذنا العدس فعبرنا به وهو أصلح ما وقفنا عليه يكال به لأنه لا يتجافى عن موضعه فكلنا به ثم وزناه فإذا هو خمسة أرطال وثلث وقال هذا أصلح ما وقفنا عليه وما تبين لنا من صاع النبي صلى الله عليه وسلم.

وإذا كان الصاع خمسة أرطال وثلثا من البر والعدس وهما أثقل الحبوب فما عداهما من أجناس الفطرة أخف منهما فإذا أخرج منهما خمسة أرطال وثلث فهي أكثر من صاع.

وقال النووي نقل الحافظ عبد الحق في كتاب الأحكام عن أبي محمد بن علي بن حزم أنه قال وجدنا أهل المدينة لا يختلف منهم اثنان في أن مد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يؤدي به الصدقات ليس بأكثر من رطل ونصف ولا دون رطل وربع.

وقال بعضهم ه و رطل وثلث وقال ليس هذا اختلافا ولكنه على حسب رزنه بالراء أي رزانته وثقله من البر والتمر والشعير قال وصاع ابن أبي ذؤيب خمسة أرطال

(290/8)

وثلث وهو صاع رسول الله صلى الله عليه وسلم

ومن أدلة الجمهور وسبب رجوع أبي يوسف عن قول أبي حنيفة ما جاء في المغني وغيره أن أبا يوسف لما قدم المدينة وسألهم عن الصاع فقالوا خمسة أرطال وثلث فطالبهم بالحجة فقالوا غدا فجاء من الغد سبعون شيخا كل واحد منهم أخذ صاعا تحت ردائه فقال صاعي ورثته عن أبي وورثه أبي عن جدي حتى انتهوا به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخذ أبو يوسف يقارنها فوجدها كلها سواء فأخذوا واحدا منها وعايره بالماش وهو العدس غير المدشوش فكان خمسة أرطال وثلثا فرجع إلى قول أهل المدينة

وفي تلك القصة أنه رجع إلى العراق فقال لهم أتيتكم بعلم جديد الصاع خمسة أرطال وثلث فقالوا له خالفت شيخ القوم فقال وجدت أمرا لم أجد له مدفعا .

أما وزن الرطل العراقي فأساس الوحدة فيه هي الدرهم وقد ذكر النووي عنه ثلاثة أقوال

الأول أنه مائة وثلاثون درهما بدراهم الإسلام

والثاني أنه مائة وثمانية وعشرون

والثالث أنه مائة وثمانية وعشرون درهما وأربعة أسباع درهم وهي تسعون مثقالا

وقال في المغني وقد زاده مثقالا فصار واحدا وتسعين مثقالا وكمل به مائة وثلاثون درهما وقصدوا بهذه الزيادة

إزالة كسر الدرهم.

ثم قال والعمل الأول.

أما بالنسبة لبقية الأرطال في الأمصار الأخرى فكالآتي نقلا من كشاف القناع

الرطل البعلي تسعمائة درهم

والقدسي ثمانمائة.

والحلبي سبعمائة وعشرون.

والدمشقي ستمائة.

والمصري مائة وأربعة وأربعون وكل رطل اثنا عشر أوقية في سائر البلاد مقسوم

(291/8)

عليها الدراهم.

وعليه فالصاع يساوي ستمائة وخمسة وثمانين وخمسة أسباع الدرهم وأربعمائة وثمانين مثقالا

وعليه أيضا يكون الصاع بالأرطال الأخرى هو المصري أربعة أرطال وتسع أواق وسبع أوقية وبالدمشقي رطل وخمسة أسباع أوقية وبالحلبي أحد عشر رطلا وثلاثة أسباع أوقية وبالقدسي عشر أواق وسبعا أوقية.

وإذا كانت موازين العالم اليوم قد تحولت إلى موازين فرنسية وهي بالكيلوجرام والكيلو ألف جرام فلزم بيان النسبة بالجرام وهي: أن المكيلات تتفاوت ثقلا وكثافة فأخذت الصاع الذي عندي وعايرته أولا على صاع آخر قديما فوجدت أمرا ملفتا للنظر عند المقارنة وهو أن الصاع الذي عندي يزيد عن الصاع الآخر قدر ملء الكف فنظرت فإذا القدر الذي فوق فتحة الصاعين مختلفة لأن أحد الصاعين فتحته أوسع فكان لزاما المعلى فوق فتحته يشكل مثلثا قاعدته أطول من قاعدة المثلث فوق الصاع الآخر فعايرتهما مرة أخرى على حد

الفتحة فقط بدون زيادة فكانا سواء فعايرتهما بالماء حيث أن الماء لا يختلف وزنه غالبا ما دام صالحا للشرب وليس مالحا وأنه لا يسمح بوجود قدر زائد فوق الحافة فلكن وزن الصاع بعد هذا التأكيد هو بالعدس المجروش 2 006 كيلوين وستمائة جرام.

وبالماء 3 001 ثلاثة كيلوات ومائة جرام.

وأرجو أن يكون هذا العمل كافيا لبيان الوزن التقريبي للصاع النبوي في الزكاة

زكاة الورق المتداول

من المعلوم أن التعامل بالورق بدلا عن الذهب والفضةوأمر قد حدث بعد عصور الأئمة الأربعة وعصور تدوين الفقه الإسلامي وما انتشرت إلا في القرن الثامن عشر ميلاديا فقط ولهذا لم يكن لأحد الأئمة رحمهم الله رأي فيها ومنذ أن وجدت وعلماء المسلمين مختلفون في تقييمها وفي تحقيق ماهيتها ما بين كونها سندات عن ذهب أو فضة أو عروض تجارة أو نقد بذاتها.

والخلاف في ذلك مشهور وإن كان الذي يظهر والله تعالى أعلم أنها وثائق ضمان

(292/8)

من السلطان.

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه إبداء وجهة نظره فيها في الربا وهل يباع بها الذهب والفضة نسيئة أم لا ؟

ومهما يكن من نظريات في ماهيتها فإنها باتفاق الجميع تعتبر مالا وهي داخلة في عموم قوله تعالى﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ﴾ [24/70]، لأنها أصبحت ثمن المبيعات وعوض السلع

فعليه تكون الزكاة فيها واجبة والنصاب بالنسبة إليها يعتبر بما يشترى بها من ذهب وفضة في أي عملة كانت هي.

ففي السعودية مثلا ينظر كم يشترى بها عشرون مثقالا ذهبا أو مائتا درهم فضة فيعتبر هذا القدر هو النصاب وفيه الزكاة وهو ربع العشر سواء بسواء

وهكذا مثل الاسترليني والروبية والدولار لأن كل عملة من ذلك وثيقة ضمان من السلطان الذي أصدرها أي الدولة التي أصدرتها سواء قيل إن الزكاة فيلم ضمنته تلك الوثيقة أو فيها بعينها أو في قيمتها كعرض فهي لن تخرج بحال من الأحوال عن دائرة التمول والاستبدال وإن تحصيل الفقير لشيء منها أيا كانت فإنه بها سيحصل على مطلوبه من مأكل وملبس وما يشاء من مصالح وفق ما يحصل عليه بعين الذهب والفضة

وفي هذا رد على من يقول لا زكاة فيها لأنها ليست بنقد ذهب ولا فضة ولا يخفي أن إسقاط الزكاة عنها إسقاط للزكاة من أغلبية العالم إن لم يكن من جميعه

تنبيه

سبق أن سمعت من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في موضوع زكاة العروض في قول المالكية يشترط أن ينص في يد التاجر المدير ولو درهما أثناء الحول وإلا لما وجبت عليه زكاة في عروض تجارته فقال رحمة الله تعالى علينا وعليه لو كان مالك رحمه الله موجودا اليوم لم يقل ذلك لأن العالم اليوم كله لا يكاد يعرف إلا هذه الأوراق وقد لا ينص في يده درهم

(293/8)

واحد فضة ويترتب على ذلك إسقاط الزكاة عن عروض التجارة وهي غالب أموال الناس اليوم

فكذلك يقال لمن لا يرى الزكاة في الأوراق النقدية أنه يترتب عليه باطل خطير وهو تعطيل ركن الزكاة وحرمان المسكين من حقه المعلوم في أموال الأغنياء وما ترتب عليه باطل فهو باطل

ولعلنا بهذا العرض الموجز نكون قد أوردنا عجالة ما بقي من مبحث الزكاة وإن لم يكن على سبيل التفصيل المعهود من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فقد قدمنا أنه لن يجارى في تفصيله وأن تتبع الجزئيات في هذا

المبحث سيطيل الكتابة وهو بحمد الله مبسوط في كتب الفقه وإنما قصدنا بيان أهم المسائل وبيان ما هو الراجح فيما اختلف فيه وبالله تعالى التوفيق

قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [المعارج: 26] .

يوم الدين هو يوم الحساب كما تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورة "الفاتحة" .

قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ [المعارج: 27] .

أي: خائفون كما بينه تعالى بقوله ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [46/55] .

وقوله ﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [52/26–27] .

قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [7/31] .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عند ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وما بعدها وفي سورة النساء وبين أن كل مبتغ وراء الزوجة وملك اليمين فهو داخل تحت قوله ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ ، وخاصة من قال بنكاح المتعة لأن المستمتع بها ليست زوجة وليست أمة مملوكة

(294/8)

تنبيه

والجدير بالذكر أنه لم يبق من يقول بنكاح المتعة كمذهب لطائفة ما إلا الشيعة بصرف النظر عمن خالف الإجماع من غيرهم ولكن الشيعة أنفسهم شبه متناقضين في كتبهم إذ ينص الحللي وهو من أئمتهم في باب النكاح أن للحر وللعبد على السواء أن ينكح نكاحا مؤقتا وهو نكاح المتعة بأي عدد شاء من النساء وبدون حد فجعل هذا العقد كملك اليمين والحال أن المعقود عليها حرة وهذا متناقض

وفي كتاب الطلاق قال إن المطلقة ثلاثا لا يحلها لزوجها الأول إلا أن تنكح زوجا غيره في نكاح دائم وليس مؤقتا

وهنا يقال لهم إما أن تعتدوا بنكاحها الثاني المؤقت فيلزم أن يحلها للأول لأنه تعالى قال﴿ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ ﴾ [230/2] ، فإن اعتبرتموه نكاحا لزم إحلالها به للزوج الأول وإن لم تعتبروه نكاحا لزمكم القول ببطلانه وهو المطلوب.

وبهذا يظهر أن مبتغى وراء ذلك أي أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم هم العادون

قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ [المعارج: 32] .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيانه في أول سورة﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

وفي المسألة السادسة من مسائل مبحث﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ ﴾ [78/21] قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴾ [المعارج: 33] .

قرئ ﴿ بِشَهَادَاتِهِمْ ﴾ بالجمع وقرئ ﴿ بِشَهَادَتِهِمْ ﴾ بالإفراد فقيل إن الإفراد يؤدي معنى الجمع للمصدر كما في قوله ﴿ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ [19/31] . فأفرد في الصوت مرادا به الأصوات

وقيل الإفراد لشهادة التوحيد مقيمون عليها والجمع لتنوع الشهادات بحسب متعلقها ولا تعارض بين الأمرين فما يشهد لذلك قوله تعالى﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ [30/41] .

(295/8)

قال أبو بكر رضي الله عنه أي داموا على ذلك حتى ماتوا عليه .

ويدل للثاني عمومات آية الشهادة المتنوعة في البيع والطلاق والكتابة في الدين وغير ذلك والله تعالى أعلم

وفي هذه الآية عدة مسائل:

المسألة الأولى أطلق القيام بالشهادة هنا وبين أن قيامهم بها إنما هو لله في قوله تعالى﴿ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ﴾ [2/65] .

وقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ [135/4] .

المسألة الثانية قوله﴿ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ في معرض المدح وإخراجهم من وصف﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ﴾ [19/70] يدل بمفهومه أن غير القائمين بشهاداتهم غير خارجين من ذلك الوصف الذميم

وقد دلت آيات صريحة على هذا المفهوم منها قوله تعالى﴿ وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [283/2] .

وقوله ﴿ وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللّهِ إِنَّا إِذاً لَّمِنَ الآثِمِينَ ﴾ [106/5] .

وكذلك في معرض المدح في وصف عباد الرحمان في قوله﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ [72/25] .

وفي الحديث من عظم جرم شهادة الزور وكان صلى الله عليه وسلم متكئا فجلس فقال"ألا وشهادة الزور ألا وشهادة الزور فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت"

تنبيه

قوله ﴿ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ ، يفيد القيام بالشهادة مطلقا وجاء قوله﴿ وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ ﴾ [282/2]، فقيد القيام بالشهادة بالدعوة إليها.

وفي الحديث "خير الشهود من يأتي بالشهادة قبل أن يسألها" .

(296/8)

وفي حديث آخر في ذم المبادرة بها ويشهدون قبل أن يستشهدوا وقد جمع العلماء بين الحديثين بأن الأول في حالة عدم معرفة المشهود له بما عنده من شهادة أو يتوقف على شهادته حق شرعي كرضاع وطلاق ونحوه والثاني بعكس ذلك.

وقد نص ابن فرحون أن الشهادة في حق الله على قسمين قسم تستديم فيه الحرمة كالنكاح والطلاق فلا يتركها وتركها جرحة في عدالته وقسم لا تستديم فيه الحرمة كالزنى والشرب فإن تركها أفضل ما لم يدع لأدائها لحديث هزال في قصة ماعز حيث قال له صلى الله عليه وسلم"هلا سترته بردائك" .

المسألة الثالثة مواطن الشهادة الواردة في القرآن والتي يجب القيام فيها نسوقها على سبيل الإجمال

الأول: الإشهاد في البيع في قوله تعالى: ﴿ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [282/2] .

الثاني الطلاق والرجعة لقوله تعالى ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ [2/65] .

الثالث كتابة الدين لقوله تعالى ﴿ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ الآية [282/2] .

الرابع الوصية عند الموت لقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ الآية [106/5] .

الخامس دفع مال اليتيم إليه إذا رشد لقوله تعالى ﴿ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾ [6/4] .

السادس إقامة الحدود لقوله تعالى ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [2/24] .

السابع في السنة عقد النكاح لقوله صلى الله عليه وسلم "لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل" ، وهذه كلها مواطن هامة تتعلق بحق الله وحق العباد من حفظ للمال والعرض والنسب وفي حق الحي الميت واليتيم والكبير فهي في شتى مصالح الأمة استوجبت الحث على القيام بها ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ ، والتحذير من كتمانها ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ

(297/8)

يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [283/2] .

وقوله ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ [140/2] .

وقوله ﴿ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ [282/2] .

المسألة الرابعة قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ ، كلها صيغ الجمع والشهادة قد تكون من فرد وقد تكون من اثنين وقد تكون من ثلاثة وقد تكون من أربعة وقد تكون من جماعة

وجملة ذلك أن الشهادة في الجملة من حث الشاهد تكون على النحو الآتي إجمالا رجل واحد ورجل يمين ورجل وامرأتان ورجلان وثلاثة رجال وأربعة وطائفة من المؤمنين وامرأة وامرأتان وجماعة الصبيان

وقد جاءت النصوص بذلك صريحة أما الواحد فقال تعالى ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ ﴾ [26/12].

فهو وإن كان ملفت النظر إلى القرنية في شق القميص إلا أنه شاهد واحد

وجاء في السنة شهادة خزيمة رضي الله عنه لما شهد لرسول الله صلى الله عليه وسلم بشرا الفرس من الأعرابي وجعلها صلى الله عليه وسلم بشهادة رجلين

وجاءت السنة بثبوت شهادة الطبيب والقائف والخارص ونحوهم

وجاء في ثبوت رمضان فقد قبل صلى الله عليه وسلم شهادة أعرابي وقبل شهادة عبد الله بن عمر سواء كان قبولها اكتفاء بها أو احتياطا لرمضان

وأما شهادة الرجل الواحد ويمين المدعي فلحديث ابن عباس قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشاهد واليمين. وتكلم عليه ابن عبد البر وأطال في تصحيحه وتوجيهه

وعند مالك ومذهب لأحمد شهادة امرأتين ويمين المدعي وخالفهما الجمهور

وأما شهادة رجل وامرأتين فلقوله تعالى ﴿ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ ﴾ [282/2].

وبين تعالى توجيه ذلك بقوله ﴿ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا

(298/8)

الْأُخْرَى ﴾ [282/2].

وبهذا النص رد الجمهور مذهب مالك والمذهب المحكي عن أحمد لأنه لم ينقل إلا أربع نسوة ولم تستقل النسوية

بالشهادة.

وأما شهادة الرجلين فلقوله تعالى﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [282/2] .

وأما ثلاثة رجال فلقوله صلى الله عليه وسلم في إثبات الفاقة والإعسار"حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجا من قومه فيقولون لقد أصابت فلانة فاقة" الحديث وهو حديث قبيصة عند مسلم وأحمد.

وأما الأربعة ففي إثبات الزنا خاصة وقد بين الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ذلك في أول سورة النور

وأما الطائفة ففي إقامة الحدود لقوله تعالى﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [2/24] .

وأما شهادة المرأة ففي أحوال النساء خاصة كما في حديث عقبة بن الحارث جاءت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: إني أرضعتهما فقال له صلى الله عليه وسلم"فارقها" فقال كيف أفارقها لقول امرأة فقال له: "كيف وقد قيل" وقد وقع الخلاف في قبول شهادته وحدها ولكن الصحيح ما قدمنا .

وأما المرأتان فعند من لم يقبل شهادة المرأة وقيل عند استهلال الصبي لأن الغالب حضور أكثر من واحدة

وأما جماعة الصبيان ففي جناياتهم على بعض وقبل أن يتفرقوا ولم يدخل فيهم كبير وفيه خلاف

ورجح الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه العلم بها في مذكرة أصول الفقه في مبحث رواية الصغار.

المسألة الخامسة اتفقوا أنه لا دخل للنساء في الشهادة في الحدود وإنما تكون في المال أو ما يؤول إلى المال وفيما يتعلق بما تحت الثياب من النساء.

وفي الشهادة مباحث عديدة مبسوطة في كتب الفقه وكتب القضاء كتبصرة الحكام

(299/8)

لابن فرحون وغيره.

وقد بسط ابن القيم الكلام عليها في الطرق الحكمية وابن فرحون في تبصرة الحكام لمن أحب الرجوع إليه ولكن مما لا بد منه هو شروط الشاهد المعتبرة وكلها تدور على ما تحصل به الطمانينة إلى الحق المشهود به لأمرين

أساسيين هما الضبط كما في قوله تعالى في حق النسوة ﴿ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ﴾ [282/2] .

والثاني العدالة والصدق كما في قوله تعالى ﴿ إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ [6/49] .

وهنا مبحث مشهور وهو هل الأصل في المسلمين العدالة حتى تظهر جرح أم العكس ؟

والصحيح الأول.

وقد كان العمل على ذلك إلى أن جاء رجل من العراق لعمر رضي الله عنه فقال له أدرك الناس لقد تفشت شهادة الزور فقال عمر بتزكية الشهود وإثبات عد التهم

وقد أورد ابن فرحون في مراتب الشهود إحدى عشرة مرتبة وهي

الأولى: الشاهد المبرز في العدالة العالم بما تصح به الشهادة فتجوز شهادته في كل شيء وتجريحه ولا يسأل عن كيفية علمه بما شهد به من ذلك كله إذا أبهمه ولا يقبل فيه التجريح إلا بالعداوة

الثانية: المبرز في العدالة غير العالم بما تصح به الشهادة فحكمه كالأول إلا أنه يسأل عن كيفية علمه بما شهد به إذا أبهم ذلك.

الثالثة: الشاهد المعروف بالعدالة العالم بما تصح به الشهادة فتجوز شهادته إلا في ستة مواضع على اختلاف في بعضها وهي التزكية شهادته لأخيه ولمولاه ولصديقه الملاطف ولشريكه في غير التجارة وإذا زاد في شهادته أو نقص فيها ويقبل فيه التجريح بالعداوة وغيرها ولا يسأل عن كيفية علمه بما شهد به إذا أبهم ذلك

الرابعة: المعروف بالعدالة غير العالم بما تصح به الشهادة حكمه كذلك إلا أنه يسأل عن كيفية علمه بما شهد به إذا أبهم ذلك.

الخامسة: الشاهد المعروف بالعدالة إذا قذف قبل أن يحد فاختلف في قبول شهادته وأجازها ابن القاسم وهو مذهب مالك.

السادسة الذي يتوسم فيه العدالة تجوز دون تزكية فيما يقع بين المسافرين في السفر من المعاملات وفيما عدا ذلك لا بد من تزكيته لأنه هو المعروف بمجهول الحال

والصحيح أن مثله لا بد من التحري عنه حتى ينكشف أمره

السابعة الذي لا يتوسم فيه العدالة ولا الجرحة فلا تجوز شهادته في موضع من المواضع دون تزكية إلا أن شهادته تكون شبيهة في بعض المواضع عند بعض العلماء فتوجب اليمين وتوجب الحميل وتوقيف الشيء على المدعى عليه.

الثامنة الذي يتوسم فيه الجرحة فلا تجوز شهادته دون تزكية ولا تكون شهادته شبهة توجب حكما.

التاسعة: الشاهد الذي ثبت عليه جرحة قديمة أو يعلمها الحاكم فيه فلا تجوز شهادته دون تزكية ولا تقبل فيه التزكية على الإطلاق وإنما تقبل ممن علم بجرحته إذا شهد على توبته منها ونزوعه منها والمحدود في القذف بمنزلته على مذهب مالك لأن تزكيته لا تجوز على الإطلاق وإنما تجوز بمعرفة تزيده في الخير.

العاشرة المقيم على الجرحة المشهود بها فلا تجوز شهادته ولا تقبل التزكية فيه وإن زكى وإنما تقبل تزكيته فيما يستقبل إذا تاب.

الحادية عشرة شاهد الزور فلا تصح شهادته وإن تاب وحسنت حاله وروى أبو زيد عن ابن القاسم أن شهادته تجوز إذا تاب وعرفت توبته بتزيد حاله في الصلاح

قال: ولا أعلمه إلا في قول مالك فقيل إن ذلك اختلاف من القول

وقيل: معنى رواية أبي زيد إذا جاء تائبا مقرا على نفسه بشهادة الزور قبل أن تظهر عليه وهو الأظهر والله سبحانه وتعالى أعلم اهـ.

وقد أوردنا هذه المراتب لأنها شملت أنواع الشهود قوة وضعفا وفيما تقبل شهاداتهم

تنبيه

وقد قيل في تفريق الشهود إن هذا في الزنا خاصة وقيل للقاضي أن يفرقهم متى ما رأى ذلك وأن أول من فرقهم علي رضي الله عنه وذكر الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه تفريق الشهود في قصة سطاين وهو كلام في قضية المرأة التي رميت بالزنا واختلف في تحليف الشاهد

فالجمهور: لا يحلف ورجح ابن القيم جوازه فيما تقبل شهادته للضرورة كالمرأة الواحدة والكافر في السفر

ومدار قبول الشهادة على الطمانينة لصدق الشاهد وذلك يدور على أصلين

الأول هو الضابط كما في قوله تعالى ﴿ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ [282/2] .

والثانية العدالة كما في قوله تعالى﴿ إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [6/49]، والعلم عند الله تعالى.

وللشهادة مباحث عديدة اكتفينا بما أوردنا.

وقد بحث ابن القيم رحمه الله مباحث الشهادة من حيث العدد والموضوع في كتاب الطرق الحكمية

تنبيه

للشهادة علاقة باليمين في الحكم وذلك في قوله صلى الله عليه وسلم"شاهدان أو يمينه" .

فما هي تلك العلاقة وبين هذه العلاقة قوله تعالى﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [19/6] .

وقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [53/41] .

وقوله: ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ [78/21] .

وقوله ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [8/46] . ونحو ذلك من الآيات لأنه تعالى شاهد ومطلع على أحوال العباد لا تخفي عليه خافية يعلم

(302/8)

خائنة الأعين وما تخفي الصدور فإذا أعوز المدعي شاهدا حلف مع الشاهد كأنه قال أستشهد بالله الذي يعلم مني صدق دعواي.

وكذلك المدعى عليه إذا عجز المدعي عن البينة وكلت الدعوى متوجهة ومما يشبه كما يقول المالكية فإن المدعى عليه يقول لدى البينة والشهادة على عدم ثبوت ما ادعى به على ألا وهو خير الشاهدين من هو أكبر شهادة مما عجز عنها المدعي ألا وهو الاستشهاد بالله تعالى فيحلف على براءة ذمته مما ادعى به عليه.

تنبيه

ومن هنا يعلم حقيقة قوله صلى الله عليه وسلم "من حلف بغير الله فقد أشرك" ، أي لأن الحالف يقيم المحلوف به مقام الشهود الذين رأوا أو سمعوا والمخلوق إذا كان غائبا لا يرى ولا يسمع فإذا حلف به كان قد أعطاه صفات من يرى ويسمع والحال أنه بخلاف ذلك ومن ناحية أخرى الحالف والمستحلف بالله يعلمان أن الله تعالى قادر على أن ينتقم من صاحب اليمين الغموس وغير الله إذا ما حلف به لا يقوى ولا يقدر على شيء من ذلك والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى ﴿ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ [المعارج: 37] .

﴿ مُهْطِعِينَ﴾ : أي: مسرعين نافرين، و﴿ عِزِينَ﴾ : جمع عزة وهم الجماعة أي: ما بال أولئك الكفار المنصرفين عنك متفرقين وعليه قول الكميت

ونحن وجندل باغ تركنا . . . كتائب جندل شتى عزين

وكذلك هنا فهم متفرقون عنه صلى الله عليه وسلم جماعات من كل جهة عن اليمين وعن الشمال تفرقت بهم الأهواء وأخذتهم الحيرة كقوله تعالى ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ [74/49–51] .

ونقل ابن كثير عن أحمد رحمه الله في أهل الأهواء فهم مخالفون للكتاب مختلفون في الكتاب متفقون على مخالفة الكتاب.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ [المعارج: 39]

أجمل ما يعلمون في ما الموصولة ﴿ مِمَّا ﴾ وقد بينه تعالى في عدة مراحل من تراب أولا ثم من نطفة وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك في كثر من موضع وأصرح نص في ذلك قوله تعالى ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾ [20/77]، وقوله ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْأِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ [5/86–7]، أي: ماء الرجل وماء المرأة يختلطان معاكما في قوله تعالى ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْأِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً إِنَّا خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ [1/76–2].

وقوله تعالى ﴿ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [39/70]، ليس لمجرد الإخبار لأنهم يعلمون والعالم ليس في حاجة إلى إخبار ولكن يراد بذلك لازم الخبر وهو إفهامهم بأن من خلقهم من هذا الذي يعلمون قادر على إعادتهم وبعثهم ومجازاتهم كما في سورة "الدهر": ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ [2/76].

ثم قال ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ [3/76].

ثم بين المصير ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلا وَأَغْلالاً وَسَعِيراً إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ﴾ [4/76–5].

قوله تعالى ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ [المعارج: 40].

قوله تعالى ﴿ فَلا أُقْسِمُ ﴾ ظاهر النفي والحال أنه أقسم بدليل جواب القسم بعده ﴿ إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ ﴾ [40/70–41]،وللعلماء في مجيء ﴿ لا ﴾ هذه كلام كثير وقد فصله الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب في سورة البلد وسيطبع إن شاء الله في نهاية هذه التتمة

وقوله ﴿ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ [40/70]. فهو الله تعالى رب كل شيء ومليكه وقد نص على نظيره في سورة الرحمان ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [17/55–18].

وقد جمعت ﴿ الْمَشَارِقِ ﴾ هنا وثنيت في الرحمان وأفردت في قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ [115/2]، فالجمع على مشارق الشمس في السنة لكل يوم مشرق،

(304/8)

كما قال ابن عباس والتثنية لمشرق الشمس والقمر والإفراد على الجهة وسيأتي في دفع إيهام الاضطراب أيضا قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا ﴾ [المعارج: 43] .

يبين هنا حالة الخروج من الأجداث وهي القبور وهي أنهم يخرجون سراعا ويبين في موضع آخر أنهم يخرجون مبعثرين هنا وهناك في قوله تعالى ﴿ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴾ [9/100] .

وفي قوله تعالى ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾ [6/99] .

قوله تعالى ﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ [القلم: 43] .

حالة ثانية وقد جمع الحالات في سورة اقتربت الساعة في قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ [54/6–8] نسأل الله تعالى السلامة والعافية.

وفي ختام السورة الكريمة لهذا الوصف والوعيد الشديد تأييد للقول بأن سؤالهم في أولها ﴿ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ ، إنما هو استخفاف واستبعاد فبين لهم تعالى بعد عرض السورة نهاية ما يستقبلون به ليأخذوا حذرهم ويرجعوا إلى ربهم فارتبط آخر السورة بأولها.

(305/8)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة نوح

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [نوح: 1].

فيه بيان أن الله تعالى أرسل رسوله نوحا لينذر قومه قبل أن يأتيهم العذاب فالنذارة أولا وهي عامة في جميع الأمم والرسل.

كقوله تعالى ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [15/17]، وذلك لإقامة الحجة أولا كما في قوله تعالى ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [165/4] وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان هذه المسألة في سورة بني إسرائيل على قوله تعالى﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ قوله تعالى ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ [نوح: 4] الآية.

جعل الطاعة هنا لنبي الله نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام وعلق عليها مغفرة الله لذنوبهم

وقد بين تعالى أن طاعة النبي هي طاعة الله فهي في الأصل طاعة لله لأنه مبلغ عن الله كما في قوله تعالى في سورة النساء ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [79/4–80].

قوله تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً ﴾ [نوح: 5].

أي على الدوام كما قال﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً ﴾ [71/8–9].

أي أن نبي الله نوحا عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام بذل كل ما يمكنه في سبيل الدعوة إلى الله وقد بين تعالى مدة مكثه فيهم على تلك الحالة في قوله تعالى﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً ﴾ [14/29].

(306/8)

قوله تعالى ﴿ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً ﴾ [نوح: 7] بين تعالى الغرض من جعل الأصابع في الآذان لعدم السماع كما في قوله تعالى﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا

الْقُرْآنِ﴾ [26/41]، وإصرارهم واستكبارهم إنما هو عن اتباع ما دعاهم إليه نوح عليه السلام كما قالوا ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ [27/11]، وقريب منه قوله تعالى: ﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [13/42]. قوله تعالى ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً﴾ [نوح: 10–11].

رتب إرسال السماء عليهم مدرارا على استغفارهم وهذا يدل على أن الاستغفار والتوبة والعمل الصالح قد يكون سببا في تيسير الرزق.

وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك في الحديث"من أراد أن ينسأ له في عمره ويوسع له في رزقه فليصل رحمه" .

وقد تكلم الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه على هذه المسألة في سورة"هود" عند قوله تعالى: ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً﴾ الآية[3/11].

كما دلت الآية الأخرى في هذه السورة على أن المعصية سبب للهلاك في قوله﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً﴾ [25/71].

قوله تعالى ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾ [نوح: 14].

هي المبينة في قوله تعالى﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [23/12–14]

وهذا مروي معناه عن ابن عباس قاله ابن كثير والقرطبي

وقيل ﴿أَطْوَاراً﴾ : شبابا وشيوخا وضعفاء.

وقيل ﴿أَطْوَاراً﴾ : أي أنواعا صحيحا وسقيما وبصيرا وضريرا وغنيا وفقيرا

وقيل أطوارا اختلافهم في الأخلاق والأفعال قاله القرطبي

ولكن كما قدم الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه أنه إذا تعددت الأقوال في الآية وكان فيها قرينة دالة على أحد الأقوال فإنه يبينه وهنا قرينة في الآيتعلى أن المراد هو الأول وإن كان الجميع صحيحا والقرينة هي أن الآية في قضية الخلق وهو الإيجاد الأول لأن ما بعد الإيجاد صفات عارضة

وقد جاء نظير الآية في سورة "المؤمنون" كما قدمنا وقد ذيلت بقوله تعالى ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [14/23] .

ومنها أن الآية سيقت في الدلالة على قدرة الله على بعثهم بعد موتهم لمجازاتهم فكان الأنسب بها أن يكون متعلقها كمال الخلقة والقدرة على الإيجاد

والأنسب لهذا المعنى هو خلقهم من نطفة أمشاج وماء مهين ثم تطويرها إلى علقة ثم تطوير العلقة مضغة ثم خلق المضغة عظاما ثم كسو العظام لحما ثم نشأته نشأة أخرى

إنها قدرة باهرة وسلطة قاهرة

ومثله في الواقعة ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ [56/58–59] .

وفي "الطور" في أصل الخلقة ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [52/35] .

إن أصل الخلقة والإيجاد وهو أقوى دليل على القدرة وهو الذي يجاب به على الكفرة كما في قوله تعالى ﴿ قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [80/17] .

ثم قال ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ [80/18–19]، ذلك كله دليل على أن المراد بالأطوار في الآية هو ما جاء عن ابن عباس المشتملة عليه سورة "المؤمنون" .

تنبيه

إن بيان أطوار خلقة الإنسان على النحو المتقدم أقوى في انتزاع الاعتراف بقدرة الله

من العبد من يحيي المخلوق جملة لأنه يوقفه على عدة مراحل من حياته وإيجاده وكل طور منهآلة مستقلة

وهذا التوجيه موجود في الظواهر الكونية أيضا من سماء وأرض فالسماء كانت دخانا وكانت رتقا ففتقهما

والأرض كانت على غير ما هي عليه الآن وبين الجميع في قوله﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾ [79/27–32] . وأجمع من ذلك كله في قوله تعالى في فصلت﴿ قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ﴾ [41/9–12] .

ثم ختم تعالى هذا التفصيل الكامل بقوله﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [41/12]، ففيه بيان أن تلك الأطوار في المخلوقات بتقدير معين وأنه بعلم ومن العزيز سبحانه فكان من الممكن خلقها دفعة واحدة إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون.

ولكن العرض على هذا التفصيل أبعد أثرا في نفس السامع وأشد تأثيرا عليه والعلم عند الله تعالى

﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً ﴾ [نوح: 18]

في هذه الآية مع ما قبلها ثلاثة براهين من براهين البعث الأربعة التي كثر مجيئها في القرآن

الأولى: خلق الإنسان ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [36/79] .

والثانية خلق السماوات والأرض﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [40/57] .

والثالثة: إحياء الأرض بعد موتها ﴿ فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [39/41].

والرابع: الذي لم تذكر هنا هو إحياء الموتى بالفعل كقتيل بني إسرائيل ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ [73/2].

وقد تقدم تفصيل ذلك في أكثر من موضع للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه وهنا سياق هذه البراهين للرد على المكذبين بالبعث ولكن في هذا السياق إشكال فيما يبدو كبير وهو قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً﴾ [15/71].

وإذا كان السياق للاستدلال بالمعلوم المشاهد على المجهول الغيبي فإن خلق الإنسان أطوارا محسوس مشاهد ومسلم به وإنبات الإنسان من الأرض بإطعامه من نباتها وإحيائها بعد موتها واهتزازها وإنباتها النبات أمر محسوس.

ويمكن أن يقال للمخاطب كما شاهدت خلق الإنسان من عدم وتطوره أطوارا وشاهدت إحياء الأرض الميتة فإن الله الذي خلقك وأحيا لك الأرض الميتة قادر على أن يعيدك ويخرجك منها إخراجا

ولكن كيف تقول وكما شاهدت خلق السماوات سبعا طباقا فإن القادر على ذلك قادر على بعثك والحال أن الإنسان لم يشاهد خلق السماوات سبعا طباقا ولا رأى كيف خلقها الله سبعا طباقا والإشكال هنا هو كيف قيل لهم ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ﴾ [15/71].

والكيف للحالة والهيئة وهم لم يشاهدوها كما قال تعالى ﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ [51/18].

وكيف يستدلون بالمجهول عندهم على المغيب عنهم ؟

وهنا تساءل ابن كثير تساؤلا واردا وهو قوله ﴿ طِبَاقاً﴾ ، أي واحدة فوق واحدة وهل هذا يتلقى من جهة السمع فقط ؟ أو هو من الأمور المدركة بالحس مما علم من التسيير والكسوفات وأظنه يعني التسيير من السير فإن الكواكب السبعة السيارة يكسف بعضها بعضا فأدناها القمر في السماء الدنيا وذكر الكواكب السبعة في السماوات السبع وكلام أهل الهيئة ولم يتعرض للإشكال بحل يركن إليه

(310/8)

وقال القرطبي قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ ﴾ على جهة الاخبار لا المعاينة.

كما تقول: ألم تر كيف فعلت بفلان كذا ؟

وعلى كلام القرطبي يرد السؤال الأول إذا كان ذلك على جهة الإخبار فكيف يجعل الخبر دليلا على خبر آخر لا يدرك إلا بالسمع ؟.

والجواب عن ذلك مجملا مما تشير إليه آيات القرآن الكريم كالآتي

أولا: أن تساؤل ابن كثير هل يتلقى ذلك من جهة السمع فقط ؟ أو هو من الأمور المدركة بالحس لا محل له لأنه لا طريق إلا النقل فقط كما قال تعالى ﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ [51/18]، أي آدم فلم نعلم كيف خلق ولا كيف سارت الروح في جسم جماد صلصال فتحول إلى جسم حساس نام ناطق.

وأما قول القرطبي إنه على جهة الإخبار لا المعاينة فهو الذي يشهد له القرآن

ويجيب القرآن على السؤال الوارد عليه وذلك في قوله تعالى ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [41/9–13]

لأن الله تعالى خاطب هنا الكفار قطعا لقوله ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ .

وخاطبهم بأمور مفصلة لم يشهدوها قطعا من خلق الأرض في يومين ومن تقدير أقواتها في أربعة أيام ومن استوائه إلى السماء وهي دخان.

ومن قوله لها وللأرض: ﴿ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾

ومن قولهما ﴿ أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ .

(311/8)

ومن قضائهن سبع سماوات في يومين.

ومن وحيه في كل سماء أمرها.

كل ذلك تفصيل لأمور لم يشهدوها ولم يعلموا عنها بشيء ومن ضمنها قضاؤه سبع سماوات فكان كله على سبيل الإخبار لجماعة الكفار.

وعقبه بقوله ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ فكان مقتضى هذا الإخبار وموجب هذا التقدير من العزيز العليم أن يصدقوا أو أن يؤمنوا وهذا من خصائص كل إخبار يكون مطوعا بصدقه من كل من هو واثق بقوله يقول الخبر وكان لقوة صدقه ملزم لسامعه ولا يبالي قائله بقبول السامع له أو إعراضه عنه

ولذا قال تعالى بعد ذلك مباشرة ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا ﴾ أي: بعد إعلامهم بذلك كله فلا عليك منهم ﴿ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ .

وحيث إن الله خاطبهم هنا ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ ﴾ ؟ فكان هذا أمر لفرط صدق الإخبار به كالمشاهد المحسوس الملزم لهم ؟

وقد جاءت السنة وبينت تلك الكيفية أنها سبع طباق بين كل سماء والتي تليها مسيرة خمسمائة عام وسُمك كل سماء وسمك كل سماء مسيرة خمسمائة عام .

وقد يقال إن الرؤية هنا في الكيفية حاصلة بالعين محسوسة ولكن في شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء والمعراج حيث عرج به ورأى السبع الطباق وكان يستأذن لكل سماء ومشاهدة الواحد من الجنس كمشاهدة الجميع فكأننا شاهدناها كلنا لإيماننا بصدقه صلى الله عليه وسلم والحقيقة معرفتهم إياه

صلى الله عليه وسلم في الصدق من قبل والعلم عند الله تعالى

قوله تعالى ﴿ وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [نوح: 21] .

ينص تعالى هنا أن قوم نوح اتبعوا من هذا وصفه مع أن المال يزيد الإنسان غلو وقد بين تعالى أن المال فعلا قد يورث خسارة وهلاكا كما في قوله تعالى ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾ [96/6–7]، أي بالطغيان يكون إهلاكا .

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح: 27] .

(312/8)

في هذه نص على أن نبي الله نوحا طلب من الله إهلاك من على الأرض جميعا مع أن عادة الرسل الصبر على أممهم وفيه إخبار نبي الله نوح عمن سيولد من بعد وأنهم لم يلدوا إلا فاجرا كفارا فكيف دعا على قومه هذا الدعاء وكيف حكم على المواليد فيما بعد ؟

والقرآن الكريم بين هذين الأمرين

أما الأول فإنه لم يدع عليهم هذا الدعاء إلا بعد أن تحدوه ويئس منهم أما تحديهم ففي قولهم ﴿ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ [32/11] .

وقوله ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴾ [54/9–10] .

وأما يأسه منهم فلقوله تعالى ﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ﴾ [36/11] .

وأما إخباره عمن سيولد بأنه لن يولد لهم إلا فاجر كفار فهو من مفهوم الآية المذكورة آنفا لأنه إذا لم يؤمن من قومه إلا من قد آمن فسواء في الحاضر أو المستقبل

وكذلك بدليل الاستقراء وهو دليل معتبر شرعا وعقلا وهو أنه مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما وما آمن معه إلا قليل كانوا هم ومن معهم غيرهم حمل سفينة فقط فكان دليلا على قومه أنهم فتنوا بالمال ولم يؤمنوا له

وهو دليل نبي الله موسى عليه السلام أيضا على قومه

كما قال تعالى ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [88/10]

فأخبر نبي الله موسى عن قومه أنهم لن يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم وذلك من استقراء حالهم في مصر لما أراهم الآية الكبرى ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَى ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [79/21–24] .

وبعد أن ابتلاهم الله بما قص علينا في قوله ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ

(313/8)

وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ﴾ [133/7] .

وقوله تعالى بعدها ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ [135/134/7] .

فمن كانت هذه حالته وموسى يعاين ذلك منهم لا شك أنه يحكم عليهم أنهم لن يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

وكذلك كان دليل الاستقراء لرسول الله صلى الله عليه وسلم في قومه استدل به على عكس الأقوام الآخرين حينما رجع من الطائف وفعلت معه ثقيف ما فعلت فأدموا قدميه وجاءه جبريل ومعه ملك الجبال واستأذنه في أن يطبق عليهم الأخشبين فقال: "لا اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون إني لأرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يقول لا إله إلا الله" وذلك أنه صلى الله عليه وسلم علم باستقراء حالهم أنهم لا يعلمون فهم يمتنعون عن الإيمان

لقلة تعلمهم وأنهم في حاجة إلى التعليم

فإذا علموا تعلموا، وأن طبيعتهم قابلة للتعليم لا أنهم كثيرهم في إصرارهم لأنه شاهد من كبارهم إذا عرض عليهم القرآن وخوطبوا بخطاب العقل ووعوا ما يخاطبون به وسلموا من العصبية والنوازع الأخرى فإنهم يستجيبون حالاً كما حدث لعمر وغيره رضي الله عنهم إلا من أعلمه الله بحاله مثل الوليد بن المغيرة ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً وَبَنِينَ شُهُوداً وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً﴾ إلى قوله ﴿ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً﴾ إلى قوله ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [74/11–26]، فعلم صلى الله عليه وسلم حاله ومآله ولذا فقد دعا عليه يوم بدر.

ومثله أبو لهب لما تبين حاله بقوله تعالى: ﴿ سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ [111/3–4]، فلكون العرب أهل فطرة ولكون الإسلام دين الفطرة أيضا كانت الاستجابة إليه أقرب

انظر مدة مكثه صلى الله عليه وسلم من البعثة إلى انتقاله إلى الرفيق الأعلى ثلاثا وعشرين سنة كم عدد من أسلم فيها بينما نوح عليه السلام يمكث ألف سنة إلا خمسين عاما فلم يؤمن معه إلا القليل

(314/8)

ولذا كان قول نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ﴿ وَلا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً﴾ ، كان بدليل الاستقراء من قومه والعلم عند الله تعالى.

وقوله تعالى ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ لم يبين هنا هل استجيب له أم لا ؟.

وبينه في مواضع أخر منها قوله ﴿ وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ [76/21] .

وفي هذه السورة نفسها وقبل هذه الآية مباشرة قوله تعالى ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَاراً﴾ [25/71]، فجمع الله لهم أقصى العقوبتين الإغراق والإحراق مقابل أعظم الذنبين الضلال والإضلال.

وكذلك بين تعالى كيفية إهلاك قومه ونجاته هو وأهله ومن معه في قوله﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ [54/10–14] .

قال ابن كثير لقد أغرق الله كل من على وجه الأرض من الكفار حتى ولد نوح من صلبه وهنا تنبيه على قضية ولد نوح في قوله ﴿ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا ﴾ إلى قوله ﴿ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ [11/42–43]، لما أخذت نوحا العاطفة على ولده قال﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ إلى قوله ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ [11/45/46]، أثار بعض الناس تساؤلا حول ذلك في قراءة﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ [11/46]، إنه عمل ماضي يعمل أي بكفره.

وتساءلوا حول صحة نسبه والحق أن الله تعالى قد عصم نساء الأنبياء إكراما لهم وأنه ابنه حقا لأنه لما قال ﴿ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ تضمن هذا القول أمرين نسبته إليه في بنوته

ثانيا نسبته إليه في أهله فكان الجواب عليه من الله بنفي النسبة الثانية لا الأولى﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ ولم يقل إنه ليس ابنك والأهل أعم من الابن ومعلوم أن نفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم والعكس بالعكس فلما نفي نسبته إلى أهله علمنا أن نسبته إليه بالبنوة باقية ولو لم يكن ابنه لصلبه لكان النفي ينصب عليها ويقال إنه ليس ابنك وإذا نفي عنه البنوة انتفت عنه نسبته إلى أهله وكذلك قوله

(315/8)

تعالى بعدها ﴿ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ [11/37]، أي: لأن الظالمين ليسوا من الأهل بالنسبة للدين لأن الدين يربط البعيدين والظلم الذي هو بمعنى الكفر يفرق القريبين والعلم عند الله تعالى

(316/8)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الجن

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً ﴾ [الجن: 2]

فيه إثبات سماع الجن للقرآن وإعجابهم به وهدايتهم بهديه وإيمانهم بالله وتقدمت الإشارة بذلك من كلام الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورة الأحقاف عند قوله تعالى﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ [29/46]، وفي آية الأحقاف بيان لما قام به النفر من الجن بعد سماعهم القرآن بأنهم لما قضى سماعهم ولوا إلى قومهم منذرين.

وفيها بيان أنهم عالمون بكتاب موسى وهو التوراة وقد شهدوا بأن القرآن مصدق لما بين يديه وأنه يهدي إلى صراط مستقيم كما جاء هنا قوله﴿ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً ﴾ .

والشطط البعيد المفرط في البعد قال عنترة في معلقته

شطت مزار العاشقين فأصبحت. . . عسرا على طلابها ابنة مخرم

وروي:

حلت بأرض الزائرين فأصبحت

وأنشد أيضا لغيره:

شط المزار بجذوى وانتهى الأمل

ففي كلا البيتين الشطط الإفراط في البعد إذ في الأول قال فأصبحت عسرا علي طلابها وفي الثاني قال وانتهى الأمل وقد بين القرآن أن المراد بالشطط البعد الخاص،

وهو البعد عن الحق كما في قوله تعالى﴿ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ﴾ [22/38] .

ومنه البعد عن حقيقة التوحيد إلى الشرك وهو المراد هنا كما في سورة الكهف في قوله﴿ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً﴾ [14/18]، لأن دعاءهم غير الله أبعد ما يكون عن الحق

ويدل على أن المراد هنا ما جاء في هذه السورة﴿ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً﴾ [2/72] .

قوله تعالى ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً﴾ [الجن: 8] بين تعالى المراد بتلك الحراسة بأنه لحفظها عن استراق السمع كما في قوله﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظاً﴾ [7-6/37] ، وبين تعالى حالهم قبل ذلك بأنهم كانوا يقعدون منها مقاعد للسمع فيسترقون الكلمة وينزلون بها إلى الكاهن فيكذب معها مائة كذبة كما بين تعالى أن الشهب تأتيهم من النجوم

كما في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ﴾ [5/67] .

قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً﴾ [الجن: 10]

فيه نص على أن الجن لا تعلم الغيب وقد صرح تعالى في قوله﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [14/34] .

وقد يبدو من هذه الآية إشكال حيث قالوا أولا﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ [2-1/72]، ثم يقولون ﴿ وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً﴾ [10/72]، والواقع أنهم تساءلوا لما لمسوا السماء فمنعوا منها لشدة حراستها وأقروا أخيرا لما سمعوا القرآن وعلموا السبب في تشديد حراسة السماء لأنهم لما منعوا ما كان يخطر ببالهم أنه من أجل الوحي لقوله﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً﴾ [7/72] .

وقوله تعالى ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً﴾ [8/72]، يدل بفحواه أنهم منعوا من السمع كما قالوا﴿ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً ﴾ [9/72]

ولكن قد يظن ظان أنهم يحاولون السماع ولو مع الحراسة الشديدة ولكن الله تعالى صرح بأنهم لم ولن يستمعوا بعد ذلك.

كما قال تعالى ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ [212/26].

قوله تعالى ﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴾ [الجن: 16].

وهذا كما قال تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ [66/5]، وقوله ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [96/7]، فكلها نصوص على أن الأمة إذا استقامت على الطريقة القويمة شرعة الله لفتح عليهم بركات من السماء والأرض.

ومثل ذلك قوله تعالى ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ [71/10–12].

ومفهوم ذلك أن من لم يستقم على الطريقة فقد يكون انحرافه أو شركه موجبا لحرمانه من نعمة الله تعالى عليه كما جاء صريحا في قوله ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ﴾ [18/32–34].

فهذه نعمة كاملة كما وصف الله تعالى ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا إلى قوله وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا ﴾ [18/34–43].

وما أشبه الليلة بالبارحة فيما يعيشه العالم الإسلامي اليوم بين الاتجاهين المتناقضين الشيوعي والرأسمالي وما أثبته الواقع من أن المعسكر الشيوعي الذي أنكر وجود الله وكفر بالذي خلقه من تراب ثم من نطفة ثم سواه

رجلا فإنه وكل من يسير في فلكه مع مدى تقدمه الصناعي فإنه مفتقر لكافة الأمم الأخرى في استيراد القمح وإن روسيا بنفسها

(319/8)

لتفرج عن بعض احتياطها من الذهب لتشتري قمحا ولا زالت تشتريه من المعسكر الرأسمالي وهكذا الدول الإسلامية التي تأخذ في اقتصادياتها بالمذهب الاشتراكي المتفرع من المذهب الشيوعي فإنها بعد أن كانت تفيض بإنتاجها الزراعي على غيرها أصبحت تستورد لوازمها الغذائية من خارجها وتلك سنة الله في خلقه ولو كانوا مسلمين كما قص الله تعالى علينا قصة أصحاب الجنة﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلا يَسْتَثْنُونَ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ إلى قوله ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ إلى قوله ﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [68/17–29].

ولذا كانت الزكاة طهرة للمال ونماء له

وقوله ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [72/17]، أي: نختبرهم فيما هم فاعلون من شكر النعمة وصرفها فيما يرضي الله أم الطغيان بها ومنع حقها ؟ ﴿ إِنَّ الْأِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ [96/6–7] ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [18/7] ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [64/15–16].

قوله تعالى ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾ [الجن: 18].

﴿ الْمَسَاجِدَ﴾ : جمع مسجد والمسجد لغة اسم مكان من سجد يسجد على وزن مفعل كمجلس على غير القياس مكان الجلوس وهو لغة يصدق على كل مكان صالح للسجود

وقد ثبت من السنة أن الأرض كلها صالحة لذلك كما في قوله صلى الله عليه وسلم"وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا" واستثنى منها أماكن خاصة نهى عن الصلاة فيها لأوصاف طارئة عليها وهي المزبلة

والجزرة والمقبرة وقارعة الطريق وفوق الحمام ومواضع الخسف ومعاطن الإبل والمكان المغصوب على خلاف فيه من حيث الصحة وعدمها والبيع

وقد عد الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه تسعة عشر موضعا عند قوله تعالى﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [80/15] في الكلام على حكم أرض الحجر ومواطن الخسف وساق كل موضع بدليله وهو بحث مطول مستوفي والمسجد عرفا

(320/8)

كل ما خصص للصلاة وهو المراد بالإضافة هنا لله تعالى وهي إضافة تشريف وتكريم مع الإشعار باختصاصها بالله أي بعبادته وذكره

كما قال تعالى ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ﴾ [24/36-37] .

ولهذا منعت من اتخاذها لأمور الدنيا من بيع وتجارة كما في الحديث "إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا له لا أربح الله تجارتك" رواه النسائي والترمذي وحسنه

وكذلك إنشاد الضالة لقوله صلى الله عليه وسلم "إذا سمعتم من ينشد ضالة بالمسجد فقولوا له لا ردها الله عليك فإن المساجد لم تبن لذلك" . رواه مسلم.

وفي حديث الأعرابي الذي بال في المسجد قال له صلى الله عليه وسلم "إن هذه المساجد لم تبن لذلك إنما هي لذكر الله وما والاه" ، وفي موطأ مالك أن عمر رضي الله عنه بنى رحبة في ناحية المسجد تسمى البطحاء وقال من كان يريد أن يلغط أو ينشد شعرا أو يرفع صوته فليخرج إلى هذه الرحبة واللغط هو الكلام الذي فيه جلبة واختلاط.

و﴿ أل ﴾ في المساجد للاستغراق فتفيد شمول جميع المساجد كما تدل في عمومها على المساواة ولكن

جاءت آيات تخصص بعض المساجد بمزيد فضل واختصاص وهي

المسجد الحرام: خصه الله تعالى بما جاء في قوله ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِّلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّـنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ [3/96-97] .

فذكر هنا سبع خصال ليست لغيره من المساجد من لأول بيت وضع للناس ومبارك وهدى للعالمين وفيه آيات بينات ومقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا والحج والعمرة إليه وآيات أخر

والمسجد الأقصى قال تعالى ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ [17/1]، فخص بكونه مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه وبالبركة حوله وأري صلى الله عليه وسلم فيه من آيات ربه

(321/8)

وقد كان من الممكن أن يعرج به إلى السماء من جوف مكة وفي المسجد الحرام ولكن ليريه من آيات الله كعلامات الطريق لتكون دليلا له على قريش في إخباره بالإسراء والمعراج وتقديم جبريل له الأقداح الثلاثة بالماء واللبن والخمر واختياره اللبن رمزا للفطرة واجتماع الأنبياء له والصلاة بهم في المسجد الأقصى بينما رآهم في السماوات السبع وكل ذلك من آيات الله أريها صلى الله عليه وسلم في المسجد الأقصى

والمسجد النبوي ومسجد قباء فمسجد قباء نزل فيه قوله تعالى ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [9/108] .

فجاء في صحيح مسلم أن أبا سعيد سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي مسجد أسس على التقوى من أول يوم ؟ فأخذ صلى الله عليه وسلم حفنة من الحصباء وضرب بها أرض مسجده وقال "مسجدكم هذا"

.

وجاء في بلوغ المرام وغيره حديث ابن عباس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل أهل قباء

فقال: "إن الله يثني عليكم" فقالوا: إنا نتبع الحجارة الماء. رواه البزار بسند ضعيف.

قال في سبل السلام وأصله في أبي داود والترمذي في السنن عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "نزلت هذه الآية في أهل قباء ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ [108/9].

قال ابن حجر وصححه ابن خزيمة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بدون ذكر الحجارة

وقال صاحب وفاء الوفاء وروى ابن شيبة من طرق ما حاصله أن الآية لما نزلت أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل قباء. وفي رواية أهل ذلك المسجد. وفي رواية: بني عمرو بن عوف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن الله قد أحسن عليكم الثناء في الطهور فما بلغ من طهوركم ؟قالوا: نستنجي بالماء.

قال: وروى أحمد وابن شيبة واللفظ لأحمد عن أبي هريرة قال انطلقت إلى مسجد التقوى أنا وعبد الله بن عمر وسمرة بن جندب فأتينا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا لنا انطلقوا إلى مسجد التقوى فانطلقنا نحوه فاستقبلنا يداه على كاهل أبي بكر وعمر فثرنا في وجهه فقال "من هؤلاء يا أبا بكر؟" قال: عبد الله بن عمر، وأبو هريرة وجندب.

(322/8)

فحديث مسلم في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلك النصوص في مسجد قباء

وقد قال ابن حجر رحمه الله والحق أن كلا منهما أسس على التقوى وقوله تعالى ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ﴾ [108/9]، ظاهر في أهل قباء.

وقيل: إن حديث مسلم في خصوص مسجد النبي صلى الله عليه وسلم جاء ردا على اختلاف رجلين في المسجد المعنى بها فأراد صلى الله عليه وسلم أن يبين لهم أن الآية ليست خاصة بمسجد قباء وإنما هي عامة في كل مسجد أسس على التقوى وأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو معلوم في الأصول

وعليه، فالآية إذا اشتملت وتشتمل على كل مسجد أينما كان إذا كان أساسه من أول يوم بنائه على التقوى

ويشهد لذلك سياق الآية بالنسبة إلى ما قبلها وما بعدها فقد جاءت قبلها قصة مسجد الضرار بقوله ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ [9/107–108].

ومعلوم أن مسجد الضرار كان بمنطقة قباء وطلبوا من الرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلي لهم فيه تبركا في ظاهر الأمر وتقريرا لوجوده يتذرعون بذلك ولكن الله كشف عن حقيقتهم

وجاءت الآية بمقارنة بين المسجدين فقال تعالى له ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ [9/108].

وجاء بعد ذلك مباشرة للمقارنة مرة أخرى أعم من الأولى في قوله تعالى﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [9/109–110].

وبهذا يكون السبب في نزول الآيةهو المقارنة بين مبدأين متغايرين وأن الأولية في الآية في قوله﴿ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ [9/108]، أولية نسبية أي بالنسبة لكل مسجد في أول

(323/8)

يوم بنائه وإن كان الظاهر فيها أولية زمانية خاصة وهو أول يوم وصل صلى الله عليه وسلم المدينة ونزل بقباء وتظل هذه المقارنة في الآية موجودة إلى ما شاء الله في كل زمان ومكان كما قدمنا.

وقد اختصت تلك المساجد الأربعة بأمور تربط بينها بروابط عديدة أهمها تحديد مكانها حيث كان بوحي أو شبه الوحي.

ففي البيت الحرام قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [22/26].

وفي المسجد الأقصى ما جاء في الأثر عنه أن الله أوحى إلى نبيه داود أن ابن لي بيتا قال وأين تريدني أبنيه لك يا رب قال حيث ترى الفارس المعلم شاهرا سيفه فرآه في مكانه الآن وكان حوشا لرجل من بني إسرائيل إلى آخر القصة في البيهقي.

وفي مسجد قباء بسند فيه ضعف لما نزل صلى الله عليه وسلم قباء قال "من يركب الناقة" إلى أن ركبها علي، فقال له: "أرخ زمامها" فاستنت فقال "خطوا المسجد حيث استنت" .

وفي المسجد النبوي جاء في السير كلها أنه صلى الله عليه وسلم كان كلما مر بحي من أحياء المدينة وقالوا له هلم إلى العدد والعدة فيقول "خلوا سبيلها فإنها مامورة" ، حتى وصلت إلى أمام بيت أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه وكان أمامه مربد لأيتام ومقبرة ليهود فاشترى المكان ونبش القبور وبنى المسجد

وكذلك في البناء فكلها بناء رسل الله فالمسجد الحرام بناه إبراهيم عليه السلام أي البناء الذي ذكره القرآن وما قبله فيه روايات عديدة ولكن الثابت في القرآن قوله تعالى﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ [127/2] .

وكذلك بيت المقدس وبينه وبين البيت أربعون سنة كما في حديث عائشة في البخاري أي تجديد بنائه

وكذلك مسجد قباء فقد شارك صلى الله عليه وسلم في بنائه وجاء في قصة بنائه أن رجلا لقي النبي صلى الله عليه وسلم حاملا حجرا فقال دعني أحمله عنك يا رسول الله فقال له "انطلق وخذ غيرها فلست بأحوج من الثواب مني" .

وكذلك مسجده الشريف بالمدينة المنورة حين بناه أولا من جذوع النخل وجريده،

(324/8)

ثم بناه مرة أخرى بالبناء بعد عودته من تبوك

ولهذه الخصوصيات لهذه المساجد الأربعة تميزت عن عموم المساجد كما قدمنا

ومن أهم ذلك مضاعفة الأعمال فيها أصلها الصلاة كما بوب لهذا البخاري بقوله "باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة" وساق الحديثين.

الأول حديث: "لا تشدوا الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجد النبي صلى الله عليه وسلم" .

والحديث الثاني قوله صلى الله عليه وسلم "صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام" .

كما اختص المسجد النبوي بروضته التي هي روضة من رياض الجنة.

وبقوله صلى الله عليه وسلم "ومنبري على ترعة من ترع الجنة" وهو حديث مشهور: "ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على ترعة من ترع الجنة" .

واختص مسجد قباء بقوله صلى الله عليه وسلم "من تطهر في بيته ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه ركعتين كان له كأجر عمرة" ، أخرجه ابن ماجه وعمر بن شبة بسند جيد ورواه أحمد والحاكم وقال صحيح الإسناد قال في وفاء الوفاء وقال عمر بن شبة حدثنا سويد بن سعيد قال حدثنا أيوب بن حيام عن سعيد بن الرقيش الأسدي قال جاءنا أنس بن مالك إلى مسجد قباء فصلى ركعتين إلى بعض هذه السواري ثم سلم وجلس وجلسنا حوله فقال:

سبحان الله ما أعظم حق هذا المسجد لو كان على مسيرة شهر كان أهلا أن يؤتى من خرج من بيته يريده معتمدا إليه ليصلي فيه أربع ركعات أقلبه الله بأجر عمرة

وقد اشتهر هذا المعنى عند العامة والخاصة حتى قال عبد الرحمان بن الحكم في قوله:

فإن أهلك فقد أقررت عينا . . . من المعتمرات إلى قباء

من اللائي سوالفهن غيد . . . عليهن الملاحة بالبهاء

وروى ابن شبة بسند صحيح من طريق عائشة بنت سعد بن أبي وقاص قالت سمعت أبي يقول لأن أصلي في مسجد قباء ركعتين أحب إلي من أن آتي بيت المقدس مرتين ولو يعلمون ما في قباء لضربوا إليه أكباد الإبل وغير ذلك من الآثار مرفوعة وموقوفة مما يؤكد هذا المعنى من أن قباء اختص بأن من تطهر في بيته وأتى إليه عامدا وصلى فيه ركعتين كان له كأجر عمرة

تنبيه

وهنا سؤال يفرض نفسه لماذا كان مسجد قباء دون غيره ولماذا اشترط التطهر في بيته لا من عند المسجد ولقد تطلبت ذلك طويلا فلم أقف على قول فيه ثم بدا لي من واقع تاريخه وارتباطه بواقع المسلمين والمسجد الحرام أن مسجد قباء له ارتباطات عديدة بالمسجد الحرام

أولا: من حيث الزمن فهو أسبق من مسجد المدينة

ومن حيث الأولية النسبية فالمسجد الحرام أول بيت وضع للناس.

ومسجد قباء أول مسجد بناه المسلمون.

والمسجد الحرام بناه الخليل.

ومسجد قباء بناه خاتم المرسلين.

والمسجد الحرام كان مكانه باختيار من الله وشبيه به مكان مسجد قباء

ومن حيث الموضوعية فالمسجد الحرام مامنا وموئلا للعاكف والباد

ومسجد قباء مامنا ومسكنا وموئلا للمهاجرين الأولين ولأهل قباء فكان للصلاة فيه شدة ارتباط بالمسجد الحرام تجعل المتطهر في بيته والقاصد إليه للصلاة فيه كأجر عمرة ولو قيل إن اشتراط التطهير في بيته لا عند المسجد شدة عناية به أولا وتمحيص القصد إليه ثانيا وتشبيها أو قريبا لفعل من اشتراط الإحرام للعمرة من الحل لا من عند البيت في العمرة الحقيقة لما كان بعيدا فالتطهر من بيته والذهاب إلى قباء للصلاة فيه كالإحرام من الحل والدخول في الحرم للطواف والسعي كما فيه تعويض المهاجرين عما فاتهم من جوار البيت الحرام قبل الفتح والله تعالى أعلم.

(326/8)

تنبيه آخر

إن مما ينبغي أن يعلم أن للمسجد في المجتمع الإسلامي رسالة عظمى ألزم ما يكون على المسلمين إحياؤها وهي أن المسجد لهم هو بيت الأمة فيهم لجميع مصالحهم العامة والخاصة تقريبا مما يصلح له فكأن المسجد النبوي في أول أمر المسلمين المثال لذلك .

إذ كان المصلى الذي تتضاعف فيه الصلاة وكان المعهد لتلقي العلم منه صلى الله عليه وسلم ومن جبريل عليه السلام ومن الأئمة ورثة الأنبياء ولا يزال بحمد الله كما قال صلى الله عليه وسلم"يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل فلا يجدون عالما كعالم المدينة" .

وكما قال: "من راح إلى مسجدي لعلم يتعلمه أو يعلمه كان كمن غزا في سبيل الله وكان في"تعليم الصبيان للقراءة والكتابة وكان ولا يزال كذلك إلى اليوم بحمد الله وكان مقرا للإفتاء ومجلسا للقضاء ومقرا للضيافة ومنزلا للأسارى ومصحا للجرحى.

وقد ضربت لسعد فيه قبة لما أصابه سهم ليعوده صلى الله عليه وسلم من قريب ومقرا للقيادة فتعقد فيه ألوية الجهاد وتبرم فيه معاهدات الصلح ومنزلا للوفود كوفد تميم وعبد القيس وبيتا للمال كمجيء مال البحرين وحراسة أبي هريرة له.

ولما نقب بيت مال المسلمين قال عمر رضي الله عنه لعامله هناك انقله إلى المسجد لافإنه لا يزال المسجد فيه مصلى أي ليتولى حراسته ومقيلا للعزاب ومبيتا للغرباء إلى غير ذلك مما لا يوجد في أي مؤسسة أخرى ولا تتأتى إلا في المسجد مما يؤكد رسالة المسجد ويستدعي الانتباه إليه وحسن الاستفادة منه

وبمناسبة اختصاص هذه المساجد الأربعة بمزيد الفضل وزيادة مطرعفة الصلاة فإن في المسجد النبوي خاصة عدة مباحث طالما أشير إليها في عدة مواضع وهي من الأهمية بمكان وأهمها أربعة مباحث نوردها بإيجاز وهي:

الأول: مضاعفة الصلاة بألف وهل هي خاصة بمسجده صلى الله عليه وسلم الذي كان من بنائه صلى الله عليه وسلم أم يشمل ذلك ما دخل من زيادات

وكذلك امتداد الصفوف خارجه عن الزحمة وهل هي في الفرض فقط أم فيه وفي النقل وهل هي للرجال والنساء أم للرجال فقط.

(327/8)

وقضية الأربعين صلاة الثانية بعد التوسعة الأولى لعمر وعثمان ونقل المحراب إلى القبلة عن الروضة فأي الصفين أفضل الصف الأول أم صفوف الروضة .

الثالثة صلاة المامومين عند الزحام أمام الإمام

الرابعة: حديث شد الرحال والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يأتي مبحث موجب الربط بين أول الآية وآخرها ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾ لما فيه من التنويه والإيماء إلى بناء المساجد على القبور مع تمحيص العبادة لله وحده

وتلك المباحث كنت قد فصلتها في رسالة المسجد النبوي التي كتبتها من قبل ونجمل ذلك هنا

المبحث الأول

هل الفضلية خاصة بالفرض أم بالنفل اتفق الجمهور على الفرض ووقع الخلاف في النفل ما عدا تحية المسجد ركعتين بعد الجمعة وركعتين قبل المغرب

وأما الخلاف في النوافل الراتبة في الصلوات الخمس وفي قيام الليل وسبب الخلاف هو عموم"صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه" . فمن حمله على العموم شمله بالنافلة ومن حمل العموم على الأصل فيه قصره على الفريضة إذ العام على الإطلاق يحمل على الأخص منه وهي الفريضة

وقد جاء حديث زيد بن ثابت عند أبي داود وغيره"أفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة" .

وجاء التصريح بمسجده بقوله "صلاة المرء في بيته أفضل من صلاته في مسجدي هذا إلا المكتوبة" .

وما جاء عن الترمذي في الشمائل ومجمع الزوائد: أن عبد الله بن سعد سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة في بيته والصلاة في المسجد فقال صلى الله عليه وسلم "قد ترى ما أقرب بيتي من المسجد فلأن أصلي في بيتي أحب إلي من أن أصلي في المسجد إلا أن تكون المكتوبة" .

وفي رواية: "أرأيت قرب بيتي من المسجد ؟" . قال بلى، قال: "فإني

(328/8)

أصلي النافلة في بيتي" .

المبحث الثاني

أقوال الأئمة رحمهم الله وعلى هذا التفصيل كانت أقوال الأئمة رحمهم الله كالتالي

قول الإمام أبي حنيفة إن النافلة في البيت أفضل وإذا وقعت في المسجد النبوي كان لها نفس الأجر أي أنها عامة في كل الصلوات ولكنها في البيت أفضل هي منها في المسجد

وعند الشافعي اختلفت الرواية عنه فذكر النووي في شرح مسلم العموم وجاء عنه في المجموع ما يفيد الخصوص وإن لم يصرح به.

والنصوص في صلاة النافلة في البيت عديدة

منها: "اجعلوا صلاتكم في بيوتكم"

ومنها "أكرموا بيوتكم ببعض صلاتكم" .

وذكر القرطبي عن مسلم "إذا قضى أحدكم الصلاة في مسجده فليجعل لبيته نصيبا من صلاته" .

وعند المالكية يعم الفرض والنفل واستدل لذلك بأن الحديث في معرض الامتنان والنكرة إذا كانت في سياق الامتنان تعم أي قوله صلى الله عليه وسلم "صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه" ، فصلاة

لفظ نكرة.

وفي معرض الامتنان والتفضل بهذا الأجر العظيم فكان عاما في الفرض والنفل والذي يظهر والله تعالى أعلم لا خلاف بين الفريقين إذ فضيلة الألف حاصلة لكل صلاة صلاها الإنسان فيه فرضا كانت أو نفلا وصلاة النافلة في البيت تكون أفضل منها في المسجد بدوام صلاته صلى الله عليه وسلم النوافل في البيت مع قرب بيته من المسجد كما أن هذه الفضيلة تشمل صلاة الرجل والمرأة

(329/8)

ولكن صلاة المرأة مع ذلك أفضل في بيتها منها في المسجد وهذا هو المبحث الثاني أي أيهما أفضل للمرأة صلاتها في بيتها أم في المسجد النبوي؟

وهذه المسألة قد بحثها فضيلة الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عند قوله تعالى ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ﴾ [24/36-37].

وأن مفهوم ﴿رِجَالٌ﴾ مفهوم صفة في هذه المسألة لا مفهوم لقب وعليه فالنساء يسبحن في بيوتهن وقد ساق البحث وافيا في عموم المساجد وخصوص المسجد النبوي مما يكفي توسع

المبحث الثالث

وهو هل المضاعفة خاصة بمسجده صلى الله عليه وسلم الذي بناه والذي كان موجودا أثناء حياته صلى الله عليه وسلم أو أنها توجد فيه وفيما دخله من الزيادة من بعده

أما مثار البحث هو ما جاء في نص الحديث اسم الإشارة في مسجدي هذا فقال بعض العلماء اسم الإشارة موضوع للتعيين وقال علماء الوضع إنه موضوع بوضع عام لموضوع له خاص فيختص عند الاستعمال بمفرد معين وهو ما كان صالحا للإشارة الحسية وهو عين ما كان موجودا زمن النبي صلى الله عليه وسلم

ومعلوم أن الإشارة لم تتناول الزيادة التي وجدت بعد تلك الإشارة فمن هنا جاء الخلاف والتساؤل

وقد نشأ هذا التساؤل في زمن عمر رضي الله عنه عند أول زيادة زادها في المسجد النبوي فرأى بعض الصحابة يتجنبون الصلاة في تلك الزيادة ويرغبون في القديم منها فقال لهم لولا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد توسعة المسجد لما وسعته ووالله إنه لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو امتد إلى ذي الحليفة أو ولو امتد إلى صنعاء فهذا مثار البحث وسببه

ولكن لو قيل إنه في نفس الحديث مبحث لغوي آخر وهو أن قوله صلى الله عليه وسلم"في

(330/8)

مسجدي" بالإضافة إليه صلى الله عليه وسلم والإضافة تفيد التخصيص أو التعريف

وفيه معنى العموم والشمول والآن مع الزيادة في كل زمان وعلى مر الأيام فإنه لم يزل هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه كان تصريح عمر إنه لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم

أقوال العلماء الجمهور على أن المضاعفة في جميع أجزائه بما فيها الزيادة ونقل عن النووي في شرح مسلم أنها خاصة بالمسجد .

الأول قبل الزيادة وقيل إنه رجع عنه وهذا الرجوع موجود في المجموع شرح المهذب وعليه فلم يبق خلاف في المسألة.

وقال ابن فرحون وقفت على كلام لمالك سئل عن ذلك فقال ما أراه عليه السلام أشار بقوله"في مسجدي هذا" إلا لما سيكون من مسجد بعده وأن الله أطلعه على ذلك

وقد قدمت الإشارة إلى أن عمر رضي الله عنه ما زاد في المسجد إلا بعد أن سمع من الرسول صلى الله عليه وسلم رغبته في الزيادة فيكون تأييدا لقول مالك رحمه الله

وروي أيضا أنه صلى الله عليه وسلم قال يوما وهو في مصلاه في المسجد"لو زدنا في مسجدنا" وأشار بيده نحو القبلة.

وفي رواية "إني أريد أن أزيد في قبلة مسجدنا" ، مما يدل على أن الزيادة كانت في حسبان رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومع الرغبة في الزيادة لم تأت إشارة إلى ما يغير حكم الصلاة في تلك الزيادة المنتظرة ولا يقال إنها قبل وجودها لا يتعلق بها حكم لأننا رأينا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رتب أحكاما على أمور لم توجبعد كمواقيت الإحرام المصري والشامي والعراقي وكقوله صلى الله عليه وسلم"ستفتح اليمن وستفتح الشام وستفتح العراق" ومع كل منها يقول "سيؤتى بأقوام يبسون هلم إلى الرخاء والسعة فيحملون بأهليهم ومن أطاعهم والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون"

وقال البعض إن قوله صلى اللهعليه وسلم "في مسجدي هذا" لدفع توهم دخول سائر المساجد المنسوبة إليه بالمدينة غير هذا المسجد لا لإخراج ما سيزاد في المسجد النبوي، قاله

(331/8)

السمهودي ا هـ.

ولكن لم يعلم أنه كانت هناك عدة مساجد له صلى الله عليه وسلم فلم يكن إلا المسجد والمصلى وبقية المساجد أطلقت عليها اصطلاحا .

ولشيخ الإسلام ابن تيمية كلام موجز في ذلك وهو أن الزيادة كانت في عهدي عمر وعثمان رضي الله عنهما وقعت زيادة كل منهما من جهة القبلة ومع هذا فإن كلا منهما كان إذا صلى بالناس قام في القبلة الواقعة في تلك الزيادة فيمتنع أن تكون الصلاةفي تلك الزيادة ليست لها فضيلة المسجد إذ يلزم عليه صلاة عمر وعثمان بالناس.

وصلاة الناس معهم في الصفوف الأولى في المكان المفضول مع ترك الأفضل ا هـ

ومن كل ما قدمنا يتضح أن حكم الزيادة في المسجد النبوي كحكم الأصل في مضاعفة الأجر إلى الألف

وقد كنت سمعت من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ما يفيد ذلك وسيأتي ذلك إن شاء الله في مبحث الأربعين صلاة وصلاة الناس في الصف خارج المسجد.

تنبيه

هذه المضاعفة أجمعوا على أنها في الكيف لا في الكم فلو أن على إنسان فوائت يوم خمس صلوات وصلى صلاة هي خير من ألف صلاة لن تسقط عنه شيئًا من تلك الفوائت فهي في نظري بمثابة ثوب وثوب آخر أحدهما قيمته ألف درهم والآخر بدرهم واحد فكل منهما ثوب في مهمته ولن يلبسه أكثر من شخص في وقت مهما كان ثمنه.

وكذلك كالقلم والقلم فمهما غلا ثمن القلم فلن يكتب به شخصان في وقت واحد

تنبيه آخر

مما لا شك فيه أن للمسجد الأساسي خصائص لم توجد في بقية المسجد كالروضة من الجنة والمنبر على ترعة من ترع الجنة بعض السواري ذات التاريخ.

(332/8)

وقد قال النووي إذا كان الشخص سيصلي منفردا أو نفلا فإن الأفضل أن يكون في الروضة وإلا ففي المسجد الأول وإذا كان في الجماعة فعليه أن يتحرى الصف الأول وإلا ففي أي مكان من المسجد وهذا معقول المعنى والحمد لله.

المبحث الرابع

وهو بعد هذه التوسعة وانتقال الصف الأول عن الروضة فهل الأفضل الصلاة في الجماعة في الصف الأول أم في الروضة مع تخلفه عن الأول ولتصوير هذه المسألة تقدم الآتي

أمام المصلى موضعان أحدهما الروضة بفضلها "روضة من رياض الجنة" .

والصف الأول، وفيه "لو يعلمون ما الصف الأول لاستهموا عليه" ، فأي الموضعين يقدم على الآخر ؟

ومعلوم أنهم كانوا قبل التوسعة يمكنهم الجمع بين الفضيلتين إذ الصف الأول كان في الروضة

أما الآن وبعد التوسعة فقد انفصل الصف الأول عن الروضة ما دام الإمام يصلي في مقدمة المسجد ولم أقف على تفصيل في المسألة.

ولكن عمومات للنووي وللشيخ ابن تيمية رحمهما الله على ما قدمنا في مبحث شمول المضاعفة للزيادة ولكن توجد قضية يمكن استنتاج الجواب منها وهي قبل التوسعة كان للصف الأول ميمنة وميسرة وكان للميمنة فضيلة على الميسرة ومعلوم أن ميمنة الصف قبل التوسعة كانت تقع غربي المنبر أي خارجة عن الروضة والميسرة كلها كانت في الروضة ومع ذلك فقد كانوا يفضلون الميمنة على الميسرة لذاتها عن الروضة لذاتها أيضا فإذا كانت الميمنة وهي خارج الروضة مقدمة عندهم عن الروضة فلأن يقدم الصف الأول من باب أولى.

وهناك حقيقة فقهية ذكرها النووي وهي تقديم الوصف الذاتي على الوصف العرضي وهو هنا الصف الأول وصف ذاتي للجماعة وفضل الروضة وصف عرضي للمكان أي لكل حال من ذكر أو صلاة فريضة أو نافلة فتقديم الصف الأول لكونه ذاتيا

(333/8)

بالنسبة للجماعة أولى من تقديم الروضة لكونه وصفا عرضيا

وقد مثل لهذه القاعدة النووي بقوله فلو أن إنسانا في طريقه إلى الصلاة بالمسجد النبوي فوجد مسجدا آخر يصلي جماعة فكان بين أن يدرك الجماعة مع هؤلاء أو يتركها ويمضي إلى المسجد النبوي وتفوته الصلاة فيصلي منفردا بألف صلاة فقال يصلي في هذا المسجد جماعة أولى له لأنه تحصيل الجماعة وصف ذاتي للصلاة وتحصيل خير من ألف صلاة وصف عرضي بسبب فضل المسجد النبوي اهـ ملخصا .

وقد يقال أيضا إن العبد مكلف بإيقاع الصلاة في جماعة أكثر منه تكليفا بإيقاعها في المسجد النبوي وهكذا الحال فإنا مطالبون بالصف الأول على الإطلاق حيث ما كان أكثر منا مطالبة بطلاة في الروضة والعلم عند الله تعالى.

المبحث الخامس

وهو في حالة ازدحام المسجد وامتداد الصفوف إلى الخارج في الشارع أو البرحة فهل لامتداد الصفوف تلك المضاعفة أم لا لنعلم أن فضيلة الجماعة حاصلة بلا خلاف

أما المضاعفة إلى ألف فلم أقف على نص فيها وقد سألت الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عن ذلك مرتين ففي الأولى مال إلى اختصاص المسجد بذلك وفي المرة الثانية وبينهما نحو من عشر سنوات مال إلى عموم الأجر وقال ما معناه إن الزيادة تفضل من الله وهذا امتنان على عباده فالمؤمل في سعة فضل الله أنه لا يكون رجلان في الصف متجاورين أحدهما على عتبة المسجد إلى الخارج والآخر عليها إلى الداخل ويعطي هذا ألفا ويعطي هذا واحدة وكتفاهما متلاصقتان وهذا واضح والحمد لله

وقد رأيت في مسألة الجمعة عند المالكية نصا وكذلك عند غيرهم ممن يشترطون المسجد للجمعة فإنهم متفقون أن الصفوف إذا امتدت إلى الشوارع والرحبات خارج المسجد أن الجمعة صحيحة مع أنهم أوقعوها في غير المسجد لكن لما كانت الصفوف ممتدة من المسجد إلى خارجه انجر عليها حكم المسجد وصحت الجمعة.

فنقول هنا: كذلك لما كانت الصفوف خارجة عن المسجد النبوي ينجر عليها حكم المسجد إن شاء الله والله تعالى أعلم.

(334/8)

وقد يستدل لذلك بالعرف وهو لو سألت من صلى في مثل ذلك أي صليت أفي قباء ؟ أم في المسجد النبوي لقال بل في المسجد النبوي؟ فلم يخرج بذلك عن مسمى المسجد عرفا

المبحث السادس

وهو عند الزحام في المسجد النبوي خاصة وفي بقية المساجد عامة حينما يضيق لكان ويضطر المصلون للصلاة في صفوف عديدة خارج المسجد وأمام الإمام متقدمين عليه بعدة صفوف فما حكم صلاة هؤلاء ؟

قد ذكر النووي في المجموع الخلاف عن الشافعي وأن الصحيح من المذهب هو الصحة مع الكراهة وذكر المالكية الصحة كذلك وقد استدلوا لها بصلاة ابن عباس رضي اللهعنه ذات ليلة عند ميمونة رضي الله عنها بصلاة النبي صلى الله عليه وسلم وابن عباس آنذاك غلام فقام على يساره صلى الله عليه وسلم وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يمينه تكريما لرسول الله صلى الله عليه وسلم فلما شعر به صلى الله عليه وسلم وبعد أن كبر ودخل في الصلاة فأخذه صلى الله عليه وسلم بيده ونقله من ورائه وجعله صلى الله عليه وسلم عن يمينه بحذائه في موقف الواحد كما هو معلوم من حكم المنفرد مع الإملم

ومحل الاستدلال في ذلك هو أن الجهات بالنسبة للإمام أربع خلفه وهي للكثيرين من اثنين فصاعدا وعن يمينه وهو موقف الفرد ويساره وأمامه أما اليسار فقد وقف فيه ابن عباس وليس بموقف فأخذه صلى الله عليه وسلم وجعله عن يمينه.

ولكن بعد أن دخل في الصلاة وأوقع بعض صلاته في ذلك المقام وقد صحت صلاته حيث بنى على الجزء الذي سبق أن أوقعه عن اليسار لضرورة الجهل بالموقف

وبقيت جهة الإمام فليست بجهة موقف ولكن عند الضرورة وللزحمة لم يكن من التقدم على الإمام بد فجازت أو فصحت للضرورة كما صحت عن يساره صلى الله عليه وسلم والله تعالى أعلم

ويقوي هذا الاستدلال أنه لو جاء شخص إلى الجماعة ولم يجد له مكانا إلا بجوار

الإمام فإنه يقف عن يمينه بجواره كما لو كان منفردا مع وجود الصفوف العديدة ولكن صح وقوفه للضرورة

المبحث السابع

موضوع الأربعين صلاة وهو من جهة خاص بالمسجد النبوي ومن جهة عام في كل مسجد ولكن لا بأربعين صلاة بل بأربعين يوما أما ما يخص المسجد النبوي فقد جاء في حديث أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال" من صلى في مسجدي أربعين صلاة لا تفوته صلاة كتبت له براءة ونجاة من العذاب وبرىء من النفاق"

قال المنذري في الترغيب والترهيب رواته رواة الصحيح أخرجه أحمد في مسنده والطبراني في الأوسط وفي مجمع الزوائد رجاله ثقات وهو عند الترمذي بلفظ "من صلى أربعين يوما في جماعة يدرك التكبيرة الأولى كتب له براءتان براءة من النار وبراءة من النفاق

قال الترمذي هو موقوف على أنس ولا أعلم أحدا رفعه

وقال ملا علي القاري مثل هذا لا يقال بالرأي وقد تكلم بعض الناس في هذا الحديث بروايتين

أما الأولى فبسبب نبيط ابن عمر .

وأما الثانية فمن جهة الرفع والوقف وقد تتبع هذين الحديثين بعض أهل العلم بالتدقيق في السند وأثبت صحة الأول وحكم الرفع للثاني وقد أفردهما الشيخ حماد الأنصاري برسالة رد فيها على بعض من تكلم فيهما من المتأخرين نوجز كلامه في الآتي:

قال الحافظ ابن حجر في تعجيل المنفعة في زوائد الأربعة نبيط بن عمر ذكره ابن حبان في الثقات فاجتمع على توثيق نبيط كل من ابن حبان والمنذري والبيهقي وابن حجر ولم يجرحه أحد من أئمة هذا الشأن فمن ثم لا يجوز لأحد أن يطعن ولا أن يضعف من وثقه أئمة معتبرون ولم يخالفهم إمام من أئمة الجرح والتعديل وكفى من ذكروا من أئمة هذا الشأن قدوة.

ذلك ولو فرض وقدر جدلا أنه في السند مقالا فإن أئمة الحديث لا يمنعون إذا لم يكن في الحديث حلال أو حرام أو عقيدة بل كان باب فضائل الأعمال لا يمنعون العمل به لأن باب الفضائل لا يشدد فيه هذا التشديد .

ونقل السيوطي مثل ذلك عن أحمد وابن المبارك

أما حديث إدراك تكبيرة الإحرام في أي مسجد فهذا أعم من موضوع المسجد النبوي الذي نتحدث عنه وكل أسانيده ضعيفة ولكن قال الحافظ ابن حجر يندرج ضمن ما يعمل به في فضائل الأعمال انتهى ملخصا

وهذا الحث على أربعين صلاة في المسجد النبوي لعله والله تعالى أعلم من باب التعود والتزود لما يكسبه ذلك العمل من مداومة وحرص على أداء الصلوات الخمس ثمانية أيام في الجماعة واشتغاله الدائم بشأن الصلاة وحرصه عليها حتى لا تفوته صلاة مما يعلق قلبه بالمسجد فتصبح الجماعة له ملكة ويصبح مرتا لا لارتياد المسجد وحريصا على بقية الصلوات في بقية أيامه لا تفوته الجماعة إلا من عذر

فلو كان زائرا ورجع إلى بلاده رجع بهذه الخصلة الحميدة ولعل في مضاعفة الصلاة بألف تكون بمثابة الدواء المكثف الشديد الفعالية السريع الفائدة أكثر مما جاء في عامة المساجد بأربعين يوما لا تفوته تكبيرة الإحرام إذ الأربعون صلاة في المسجد النبوي تعادل أربعين ألف صلاة فيما سواه وهي تعادل حوالي صلوات اثنين وعشرين سنة.

ولو راعينا أجر الجماعة خمسا وعشرين درجة لكانت تعادل صلاة المنفرد خمسمائة وخمسين سنة أي في الأجر والثواب لا في العدد أي كيفا لا كما كما قدمنا وفضل الله عظيم.

وليعلم أن الغرض من هذه الأربعين هو كما أسلفنا التعود والحرص على الجماعة

أما لو رجع فترك الجماعة وتهاون في شأن الصلاة عياذا بالله فإنها تكون غاية النكسة نسأل الله العافية كما نعلم أن هذه الأربعين صلاة لا علاقة لها لا بالحج ولا بالزيارة على ما تقدم للشيخ رحمه الله في آداب الزيارة في سورة "الحجرات" .

وأن الزيارة تتم بصلاة ركعتي تحية المسجد والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى

صاحبيه رضوان الله تعالى علينا وعليهم ثم الدعاء لنفسه وللمسلمين بالخير ثم إن شاء انصرف إلى أهله وإن شاء جلس ما تيسر له وبالله تعالى التوفيق.

مبحث السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان جانب من جوانب السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الكلام على قوله تعالى ﴿ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ [2/49] في التحذير من مبطلات الأعمال وبيان ما هو حق لله فلا يصرف لغيره وما هو حق لرسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يتجاوز به وقد يجر الحديث عن السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفضله وفضيلته إلى موضوع شد الرحال إلى المسجد وإلى السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم

شد الرحال إلى المسجد النبوي للسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم

ومما اختص به المسجد النبوي، بل ومن أهم خصائصه بعد الصلاة السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم من داخل هذا المسجد قديما وحديثا.

كما جاء في الصحيح "ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي فأرد عليه السلام" ومجمعون أن ذلك يحصل لمن سلم عليه صلى الله عليه وسلم من قريب وما كان هذا السلام يوما من الأيام إلا من المسجد النبوي سواء قبل أو بعد إدخال الحجرة في المسجد

ومعلوم أن أول آداب الزيارة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم البدء بصلاة ركعتين تحية المسجد وبعد السلام ينصرف عن المواجهة ويدعو ما شاء وهو في أي مكان من المسجد

وهنا مسألة طالما أثير النزاع فيها وهي شد الرحال للسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي إن كان محلها مبحث الزيارة وأحكامها وآدابها إلا أننا نسوق موجزا عنها بمناسبة حديث شد الرحال ونسأل الله تعالى الهداية والتوفيق.

من المعلوم أن أصل هذه المسألة هو حديث "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد" المتقدم ذكره لاختلافهم في تقدير المستثنى منه والمراد بشد الرحال إليه في تلك

(338/8)

المساجد أهو خصوص الصلاة أم للصلاة وغيرها.

ولنتصور حقيقة هذه المسألة ينبغي أن نعلم أولا أن البحث في هذه المسألة له ثلاث حالات

الأولى شد الرحال إلى المسجد النبوي للزيارة وهذا مجمع عليه

الثانية زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم والسلام عليه من قريب بدون شد الرحال وهذا أيضا مجمع عليه.

الثالثة شد الرحال للزيارة فقط

وهذه الحالة الثالثة هي محل البحث عندهم ومثار النقاش السابق

قال ابن حجر في فتح الباري على حديث شد الرحال قال الكرماني وقد وقع في هذه المسألة في عصرنا في البلاد الشامية مناظرات كثيرة وصنفت فيها مسائل من الطرفين

قلت: أي: ابن حجر، يشير إلى ما رد به الشيخ تقي الدين السبكي وغيره على الشيخ تقي الدين بن تيمية وما انتصر به الحافظ شمس الدين بن عبد الهادي وغيره لابن تيمية وهي مشهورة في بلادنا ا ه وهذا يعطينا مدى الخلاف فيها وتاريخه.

وقد أشار ابن حجر إلى مجمل القول فيها بقوله إن الجمهور أجازوا بالإجماع شد الرحال لزيارة النبي صلى الله عليه وسلم وإن حديث "لا تشد الرحال" إنما يقصد به خصوص الصلاة وليس مكان أولى من مكان بالصلاة تشد له الرحال إلا المساجد الثلاثة لما خصت من فضيلة مضاعفة الصلاة فيها

والشيخ تقي الدين جعل موضوع لنهي عن شد الرجال عاما للصلاة وغيرها واعترض عليه باتفاق الأمة على جواز شد الرحال لأي مكان لعدة أمور كما هو معلوم

ومما استدل به على عدم شد الرحال لمجرد الزيارة ما روي عن مالك كراهية أن يقال زرت قبر النبي صلى الله عليه وسلم.

وأجيب عن ذلك بأن كراهية مالك للفظ فقط تأدبا لا أنه كره أصل الزيارة فإنها من أفضل الأعمال وأجل القربات الموصلة إلى ذي الجلال وأن مشروعيتها محل إجماع

(339/8)

بلا نزاع والله الهادي إلى الصواب اهـ

ولعل مذهب البخاري حسب صنيعه هو مذهب الجمهور لأنه أتى في نفس الباب بعد حديث شد الرحال مباشرة بحديث "صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه" مما يشعر بأنه قصد بيان موجب شد الرحال هو فضيلة الصلاة فيكون النهي عن شد الرحال مختصا بالمساجد ولأجل الصلاة إلا في تلك المساجد الثلاثة لاختصاصها بمضاعفة الصلاة فيها دون غيرها من بقية المساجد والأماكن الأخرى.

وقد ناقش ابن حجر لفظ الحديث ورجح هذا المذهب حيث قال

قال بعض المحققين قوله: "إلا إلى ثلاثة مساجد" المستثنى منه محذوف فإما أن يقدر عاما فيصير لا تشد الرحال إلى مكان في أي أمر كان إلا إلى الثلاثة أو أخص من ذلك لا سبيل إلى الأول لإفضائه إلى سد باب السفر للتجارة وصلة الرحم وطلب العلم وغيرها فتعين الثاني

والأولى أن يقدر ما هو أكثر مناسبة وهو لا تشد الرحال إلى مسجد للصلاة فيه إلا إلى الثلاثة فيبطل بذلك قول من منع شد الرحال إلى زيارة قبره الشريف صلى الله عليه وسلم وغيره من قبور الصالحين والله أعلم

وقال السبكي الكبير ليس في الأرض بقعة تفضل لذاتها حتى تشد إليها الرحال غير البلاد الثلاثة ومرادي بالفضل ما شهد الشرع باعتباره ورتب عليه حكما شرعيا أما غيرها من البلاد فلا تشد إليها لذاتها بل لزيارة أو جهاد أو علم أو نحو ذلك من المندوبات أو المباحات

قال وقد التبس ذلك على بعضهم فزعم أن شد الرحال إلى الزيارة لمن في غير الثلاثة داخل في المنع وهو خطأ لأن الاستثناء إنما يكون من جنس المستثنى منه

فمعنى الحديث: لا تشد الرحال إلى مسجد من المساجد أو إلى مكان من الأمكنة لأجل ذلك المكان إلا إلى الثلاثة المذكورة.

وشد الرحال إلى زيارة أو طلب ليس إلى المكان بل إلى من في ذلك المكان والله أعلم اهـ

(340/8)

وبتأمل كلام ابن حجر نجده يتضمن إجراء معادلة على نص الحديث بأن له حالتين فقط

الأولى: أن يقال لا تشد الرحال إلا إلى المساجد الثلاثة لخصوص الصلاة ولا تشد لغيرها من الأماكن لأجل الصلاة فيكون النهي منصبا على شد الرحال لأي مكان سوى المساجد الثلاثة من أجل أن يصلي فيما عداها فيبقى غير الصلاة خارجا عن النهي فتشد له الرحال لأي مكان كان

وغير الصلاة يشمل طلب العلم والتجارة والنزهة والاعتبار والجهاد ونحو ذلك والنصوص في ذلك كله متضافرة.

ففي طلب العلم ما قدمنا من نصوص وقد رحل نبي الله موسى إلى الخضر، كما قال تعالى﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً﴾ إلى قوله ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً﴾ إلى قوله ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾ [18/60–66] .

وفي السفر للتجارة قوله تعالى﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [73/20] .

وقوله ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ [67/15]، وغيرها كثيرة.

والسفر للعبرة قوله تعالى﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا﴾ [27/69] .

وقوله ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [37/136–138] .

وقوله ﴿ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [46-45/22] .

فقد أمر الله العباد بالسير ليعقلوا بقلوبهم حالة تلك القرى الخاوية ليتعظوا بأحوال أهلها

(341/8)

فهذه نصوص جواز السفر لعدة أمور فيكون من ضمنها السفر لزيارة النبي صلى الله عليه وسلم والسلام عليه حيث إن السلام عليه صلى الله عليه وسلم من الأمور المشروعة بلا نزاع والحالة الثانية أن يكون النهي عاما لجميع الأماكن في جميع الأمور فلا تشد الرحال قط إلا إلى الثلاثة المساجد وبلدانها الثلاثة

ولكن لا لخصوص الصلاة فقط بل لكل شيء مشروع بأصله مما قدمنا أنواعه من طلب العلم والتجارة والعظة والنزهة وغير ذلك كصوم واعتكاف ومجاورة وحج وعمرة وصلة رحم ومشاهدة معالم تاريخية ونحو ذلك ومن هذا كله السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا شد الرحال إلى المدينة لكل شيء كان منها الزيارة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا معارضة على حالة من الحالتين ولا يتعارض معهما الحديث المذكور على أي تقدير المستثنى منه في هذا الحديث

وجهة نظر

وبالتحقيق في هذه المسألة وإثارة النزاع فيها يظهر أن النزاع والجدال فيها أكثر مما كانت تحتمل وهو إلى الشكلي أقرب منه إلى الحقيقي ولا وجود له عمليا.

وتحقيق ذلك كالآتي وهو ما داموا متفقين على شد الرحال للمسجد النبوي للسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومتفقون على السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم بدون شد الرحال

فلن يتأتى لإنسان أن يشد الرحال للسلام دون المسجد ولا يخطر ذلك على بال إنسان وكذلك شد الرحل

للصلاة في المسجد النبوي دون أن يسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم لن يخطر على بال إنسان وعليه فلا انفكاك لأحدهما عن الآخر.

لأن المسجد النبوي ما هو إلا بيته صلى الله عليه وسلم وهل بيته إلا جزء من المسجد كما في حديث الروضة "ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة" .

فهذا قوة ربط بين بيته ومنبره في مسجده

ومن ناحية أخرى هل يسلم أحد عليه صلى الله عليه وسلم من قريب لينال فضل رد السلام عليه منه صلى الله عليه وسلم إلا إذا كان سلامه عن قرب ومن المسجد نفسه ؟

(342/8)

وهل تكون الزيارة سنية إلا إذا دخل المسجد وصلى أولا تحية المسجد ؟

وبهذا فلا انفكاك لشد الرحل إلى المسجد عن زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم ولا لزيارته صلى الله عليه وسلم عن المسجد فلا موجب لهذا النزاع

وهنا وجهة نظر أخرى وهي أن قوله صلى الله عليوسلم "ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي فأرد عليه السلام" فإن إطلاقه عن كل قيد من قرب أو بعد مما يدل على العموم من حيث المجيء للسلام عليه فيقال إن هذه فضيلة عظيمة ولا يتأتى للبعيد تحصيلها إلا بشد الرحال إليها كوسيلة لتحصيلها والوسيلة تأخذ حكم الغاية من وجوب أو ندب أو إباحة كالسعي إلى الجمعة واجب لأن أداء الجمعة واجب وإعداد الثياب الجميلة إليها مثلا مندوب لأن التجمل إليها مندوب ومثله إعداد الطيب بالنسبة لحضورها

وقد رأيت لشيخ الإسلام ابن تيمية مناقشة هذه المسألة ولكنه جاء بأمثلة قابلة هي للنقاش فقال ليس كل غاية مشروعة تكون وسيلتها مشروعة كحج المرأة وخروجها إلى المسجد فإن الأول مشروط فيه وجود المحرم والثاني مشروط فيه إذن الزوج

والنقاش لها أن سفر المرأة مطلقا ممنوع إلا مع المحرم سواء كان لهذا المسجد وللحج أو لغيره

وخروجها إلى المسجد ليس بمطلوب منها في الأصل ولكن إذا طلبت الإذن يؤذن لها فالأصل فيه المنع حتى نحصل على الإذن.

وعلى هذا يقال لو كان شد الرحل إليها غير مشروع لما كان لفاعله نصيب في فضلها ولا يحصل على رد السلام منه صلى الله عليه وسلم.

ولو كان كذلك للزم التنبيه عليه عند بيان فضيلته لعدم تأخير البيِّن فكأن يقال مثلا فأرد عليه السلام إلا من شد الرحل لذلك أو يقال من أتاني من قريب فسلم علي إلخ ولكن لم يأت شيء من هذا التنبيه وبقي الحديث على عمومه.

وليعلم أن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يفرق بين السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين عامة المسلمين لما لرسول الله صلى الله عليه وسلم من حقوق وخصائص ليست لغيره من وجوب محبة وتعظيم وفرضية صلاة

(343/8)

وتسليم في صلواتنا وعند دخول المساجد والخروج منها بل وعند سماع ذكره مما ليس لغيره قط

كما أن زيارة غيره صلى الله عليه وسلم للدعاء له والترحم عليه بينما زيارته صلى الله عليه وسلم والسلام عليه ليرد الله تعالى عليه روحه فيرد علينا السلام

وزيارة غيره في أي مكان من العالم لا مزية له بينما زيارته صلى الله عليه وسلم من مسجده وقد خص بما لم يختص به غيره.

وأعتقد أن هذه المسألة لولا نزاع معاصري شيخ الإسلام معه في غيرها لما كان لها محل ولا مجال.

ولكنهم وجدوها حساسة ولها مساس بالعاطفة ومحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأثاروها وحكموا

عليه بالالتزام أي يلازم كلامه حينما قال:

لا يكون شد الرحال لمجرد الزيارة بل تكون للمسجد من أجل الزيارة عملا بنص الحديث فتقولوا عليه ما لم يقله صراحة ولو حمل كلامه على النفي بدل من النهي لكان موافقا أي لا يتأتى ذلك لأنه رحمه الله لم يمنع زيارته صلى الله عليه وسلم ولا السلام عليه بل يجعلها من الفضائل والقربات وإنما يلتزم بنص الحديث في جعل شد الرحال إلى المسجد ولكل شيء ومنه السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم كما صرح بذلك في كتبه

قال في بعض رسائله وردوده ما نصه

فصل

قد ذكرت فيما كتبته من المناسك أن السفر إلى مسجده وزيارة قبره كما يذكر أئمة المسلمين في مناسك الحج عمل صالح مستحب.

وقد ذكرت في عدة مناسك الحج السنة في ذلك وكيف يسلم عليه وهل يستقبل الحجرة أم القبلة على قولين فالأكثرون يقولون يستقبل الحجرة كمالك والشافعي وأحمد إلى أن قال:

والصلاة تقصر في هذا السفر المستحب باتفاق أئمة المسلمين لم يقل أحد من أئمة

(344/8)

المسلمين إن هذا السفر لا تقصر فيه الصلاة ولا نهى أحد عن السفر إلى مسجده وإن كان المسافر إلى مسجده يزور قبره صلى الله عليه وسلم بل هذا من أفضل الأعمال الصالحة ولا في شيء من كلامي وكلام غيري نهى عن ذلك ولا نهي عن المشروع في زيارة قبور الأنبياء والصالحين ولا عن المشروع في زيارة سائر القبور

إلى أن قال:

وإذا كانت زيارة قبور عموم المؤمنين مشروعة فزيارة قبور الأنبياء والصالحين أولى.

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم له خاصية ليست لغيره من الأنبياء والصالحين وهو أن أمرنا أن نصلي

عليه ونسلم عليه في كل صلاة ويتأكد ذلك في الصلاة وعند الأذان وسائر الأدعية وأن نصلي ونسلم عليه عند دخول المسجد مسجده وغير مسجده وعند الخروج منه فكل من دخل مسجده فلا بد أن يصلي فيه ويسلم عليه في الصلاة.

والسفر إلى مسجده مشروع لكن العلماء فرقوا بينه وبين غيره حين كره مالك رحمه الله أن يقال زرت قبر النبي صلى الله عليه وسلم لأن المقصود الشرعي بزيارة القبور السلام عليها والدعاء لهم وذلك السلام والدعاء قد حصل على أكمل الوجوه في الصلاة في مسجده وغير مسجده وعند سماع الأذان وعند كل دعاء فتشرع الصلاة عليه عند كل دعاء فإنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم ا هـ

وإذا كان هذا كلامه رحمه الله فإن المسألة شكلية وليست حقيقية إذ أنه يقرر بأن السفر إلى مسجده صلى الله عليه وسلم مشروع وإن كان يزور قبره صلى الله عليه وسلم ويسلم عليه وأن ذلك من أفضل القربات ومن صالح الأعمال.

أي وإن كانت الزيارة مقصودة عند السفر.

وإذا كان السفر إلى المسجد لا ينفك عن السلام عليه صلى الله عليه وسلم والسلام عليه لا ينفك عن الصلاة في المسجد فلا موجب لهذا النقاش وجعل هذه المسألة مثار نزاع أو جدال

وقد صرح رحمه الله بما يقرب من هذا المعنى في موضع آخر من كلامه إذ يقول في ج 27 ص 243 من المجموع ما نصه:

فمن سافر إلى المسجد الحرام أو المسجد الأقصى أو مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم فصلى في مسجده وصلى في مسجد قباء وزار القبور كما قضت به سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهذا هو الذي عمل العمل الصالح.

ومن أنكر هذا السفر فهو كافر يستتاب فإن تاب وإلا قتل

وأما من قصد السفر لمجرد زيارة القبر ولم يقصد الصلاة في المسجد وسافر إلى مدينته فلم يصل في مسجده صلى الله عليه وسلم ولا يسلم عليه في الصلاة بل أتى القبر ثم رجع فهذا مبتدع ضال مخالف لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولإجماع أصحابه ولعلماء الأمة

وهو الذي ذكر فيه القولان أحدهما أنه محرم والثاني أنه لا شيء عليه ولا أجر له

والذي يفعله علماء المسلمين هو الزيارة الشرعية يصلون في مسجده صلى الله عليه وسلم ويسلمون عليه في الدخول للمسجد وفي الصلاة وهذا مشروع باتفاق المسلمين إلى أن قال وذكرت أنه يسلم على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى صاحبيه اهـ

فأي موجب لنزاع أو خلاف في هذا القول فإن كان في قوله رحمه الله فيمن قصد السفر لمجرد زيارة القبر ولم يقصد الصلاة في المسجد وسافر إلى مدينته فلم يصل في مسجده صلى الله عليه وسلم في الصلاة بل أتى القبر ثم رجع فهذا مبتدع. . . إلخ.

فمن من المسلمين يجيز لمسلم أن يشد رحله إلى المدينة لمجرد زيارة القبر دون قصد الصلاة في مسجده صلى الله عليه وسلم ودون أن يصلي عليه صلى الله عليه وسلم في الصلاة وهو يعلم أن الصلاة في مسجده صلى الله عليه وسلم بألف صلاة.

فدل كلامه رحمه الله أن زيارة القبر والصلاة في المسجد مرتبطان ومن ادعى انفكاكهما عمليا فقد خالف الواقع وإذا ثبت الرابطة بينهما انتفي الخلاف وزال موجب النزاع والحمد لله رب العالمين

وصرح في موضع آخر ص643 في قصر الصلاة في السفر لزيارة قبور الصالحين عن أصحاب أحمد أربعة أقوال الثالث منها تقصر إلى قبر نبينا عليه الصلاة والسلام

وقال في التعليل لهذا القول إذا كان عامة المسلمين لا بد أن يصلوا في مسجده،

فكل من سافر إلى قبره المكرم فقد سافر إلى مسجده المفضل

وكذلك قال بعض أصحاب الشافعي إلى أن قال وكذلك كثير من العلماء يطلق السفر إلى قبره المكرم وعندهم أن هذا يتضمن السفر إلى مسجده إذ كان كل مسلم لا بد إذا أتى الحجرة المكرمة أن يصلي في مسجده فهما عندهم متلازمان.

وبعد نقله لأقوال العلماء قال ما نصه

وحقيقة الأمر أن فعل الصلاة في مسجده من لوازم هذا السفر فكل من سافر إلى قبره المكرم لا بد أن تحصل له طاعة وقربة يثاب عليها بالصلاة في مسجده

وأما نفس القصد فأهل العلم بالحديث يقصدون السفر إلى مسجده وإن قصد منهم من قصد السفر إلى القبر أيضا إذا لم يعلم النهي.

وهذا غاية في التصريح منه رحمه الله أنه لا انفكاك من حيث الواقع بين الزيارة والصلاة في المسجد عند عامة العلماء.

ثم قال في حق الجاهل وأما من لم يعرف هذا فقد لا يقصد إلا السفر إلى القبر ثم إنه لا بد أن يصلي في مسجده فيثاب على ذلك وما فعله وهو منهي عنه ولم يعلم أنه منهي عنه لا يعاقب عليه فيحصل له أجر ولا يكون عليه وزر اهـ.

وقد أكثرنا النقول عنه رحمه الله لما وجدنا من ليس في هذا الموضوع على كثير من الناس حتى قال ابن حجر في فتح الباري فيها وهذا أعظم ما أخذ على شيخ الإسلام ابن تيمية فهي وإن كانت شهادة من ابن حجر أنها أشد ما أخذ عليه مع ما رمي به من خصومه في العقائد ومحاربة البدع إلا أنها بحمد الله بعد هذه النقول عنه من صريح كلام لم يعد فيها ما يتعاظم منه فعلى كل متكلم في هذه المسألة أن يرجع إلى أقواله رحمه الله فلم يترك جانبا إلا وبينه سواء في حق العالم أو الجاهل وبالله تعالى التوفيق

هذا ما يتعلق بخصوص السفر إلى المدينة المنورة للمسجد وللزيارة معا على التفصيل المتقدم

أما بقية الأماكن ما عدا المساجد الثلاثة فلا تشد الرحال إليها للصلاة أو الدعاء أو الاعتكاف ونحو ذلك مما لا مزية لها في مكان دون آخر قط أيا كانت تلك البقعة أو

كانت تلك العبادة وذلك لحديث أبي هريرة في الموطأ في الساعة التي في يوم الجمعة قال "خرجت إلى الطور فلقيت كعب الأحبار فجلست معه فحدثني عن التوراة وحدثته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان فيما حدثته أن قلت له قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أهبط وفيه تيب عليه وفيه مات وفيه تقوم الساعة وما من دابة إلا وهي مصيخة يوم الجمعة من حين تطلع الشمس شفقا من الساعة إلا الجن والإنس وفيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلي يسأل الله شيئًا إلا أعطاه إياه" .

قال: كعب ذلك في كل سنة يوم فقلت بل في كل جمعة فقرأ كعب التوراة فقال صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال أبو هريرة فلقيت بصرة بن أبي بصرة الغفاري قال من أين أقبلت فقلت من الطور فقال لو أدركتك قبل أن تخرج إليه ما خرجت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "لا تعمل المطي إلا إلى ثلاثة مساجد إلى المسجد الحرام وإلى مسجدي هذا وإلى مسجد إيلياء أو بيت المقدس" يشك أبو هريرة.

ثم لقيت عبد الله بن سلام فحدثته بمجلسي مع كعب الأحبار وما حدثته به في يوم الجمعة إلى آخر الحديث هذا العظيم.

قال الباجي على هذا الحديث خروج أبو هريرة إلى الطور يحتمل أن يكون لحاجة عنت له فيه ويحتمل أن يكون قصده على معنى التعبد والتقرب بإتيانه إلا أن قول بصرة لو أدركتك قبل أن تخرج إليه ما خرجت دليل على أن فهم منه التقرب بقصده وسكوت أبي هريرة حين أنكر عليه دليل على أن الذي فهم منه كان قصده أقول لقد صرح أبو هريرة أنه كان للصلاة كما في مجمع الزوائد لأحمد عن شهر وقال حسن.

والحديث يدل على أن من نذر صلاة بمسجد البصرة أو الكوفة أنه يصلي بموضعه ولا يأتيه لحديث بوق المنصوص في ذلك وذلك أن النذر يكون فيما فيه القربة ولا فضيلة لمساجد البلاد على بعضها البعض تقتضي

قصده بإعمال المطي إليه إلا المساجد الثلاثة فإنها تختص بالفضيلة

وأما من نذر الصلاة والصيام في شيء من مساجد الثغور فإنه يلزمه إتيانها والوفاء

(348/8)

بنذره لأن نذره قصدها لم يكن لمعنى الصلاة فيها بل قد اقترن بذلك الرباط فوجب الوفاء به

ولا خلاف في المنع من ذلك من غير المساجد الثلاثة إلا ما قاله محمد بن مسلمة في المبسوط فإنه أضاف إلى ذلك مسجدا رابعا وهو مسجد قباء فقال من نذر أن يأتيه فيصلي فيه كان عليه ذلك ا.ه

ولعل مقصد محمد بن مسلمة في إضافته مسجد قباء العمل بما جاء في مسجد قباء من أثر اختص به عن أنس بن مالك فيما رواه عمر بن شيبة قال حدثنا سويد بن سعيد قال حدثنا أيوب بن صيام عن سعيد بن الرقيش الأسدي قال جاءنا أنس بن مالك إلى مسجد قباء فصلى ركعتين إلى بعض هذه السواري ثم سلم وجلسنا حوله فقال: سبحان الله ما أعظم حق هذا المسجد ولو كان على مسيرة شهر كان أهلا أن يؤتى من خرج من بيته يريده معتمدا إليه ليصلي فيه أربع ركعات أقلبه الله بأجر عمرة

وتقدم عن وفاء الوفاء نقله بقوله

وكان هذا الحكم معلوما عند العامة حتى قال ابن شيبة قال أبو غسان ومما يقوي هذه الأخبار ويدل على تظاهرها في العامة والخاصة قول عبد الرحمان بن الحكم في شعر له

فإن أهلك فقد أقررت عينا . . . من المعتمرات إلى قباء

من اللاتي سوالفهن غيد . . . عليهن الملاحة بالبهاء

تنبيه

إن قول أنس ليشعر بجواز شد الرحل إلى قباء لو كان بعيدا ولكنه للمعاني في المساجد الثلاثة الأخرى فلا يتعارض مع الحديث الأول.

تنبيه آخر

أبيات الشاعر تشعر بخطأ التجمع في يوم معين لقباء واجتماع الرجال والنساء

(349/8)

تنبيه ثالث

يوجد فرق بصفة إجمالية عامة بين زيارة عموم المقابر لعامة الناس وخصوص زيارة القبور الثلاثة إذ الغرض من زيارة عامة المقابر هو الدعاء لها وتذكر الآخرة كما قال صلى الله عليه وسلم"كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنها تذكر الآخرة" .

أما هذه الثلاثة المشرفة فلها خصائص لم يشاركها فيها غيرها

أولا: ومن حيث الموضوع ارتباطها بالمسجد النبوي أحد المساجد التي من حقها شد الرحال إليها

ثانيا: عظيم حق من فيها على المسلمين إذ بزيارتهم لا يتذكر الآخرة فحسب بل ويستفيد ذكريات الدنيا وعظيم جهادهم في سبيل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه وهداية الأمة والقيام بأمر الله حتى عبد الله وحده وعمل بشرعه فيما يثير إحساس المسلم وجوب تجديد العهد مع الله تعالى وحده على العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وهدي خلفائه الراشدين رضوان الله عليهم

وهذا ما يجعل الإنسان يتوجه إلى الله عقب السلام عليهم بخالص الدعاء أن يجزيهم على ذلك ما يعلم سبحانه أنهم أهل له.

ثالثا: عظيم الفضل من الله على من سلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرد الله تعالى عليه صلى الله عليه وسلم روحه فيرد عليه السلام وكل ذلك أو بعضه لا يوجد عند عامة المقابر وهذا مع مراعاة الآداب الشرعية في الزيارة لما تقدم.

مسألة

في هذه الآية الكريمة ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُو مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾ [18/72]، جمع بين مسألتين فكأن الأولى تدل على الثانية بمفهومها وكأن الثانية تكون منطوق الأولى لأن كون المساجد لله يقتضي إفراده تعالى بالعبادة وألا يدعي معه أحد.

أما إفراده بالعبادة فقد كتب الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه على ذلك مبحثا كاملا في سورة الحجرات في مسألة من المسائل على قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ

(350/8)

أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ [2/49].

وبين في هذه المسألة ما هو حق لله وما هو حق لرسول الله ووجوب إفراد الله تعالى بما هو حقه تعالى وبين فيها آداب السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن وضع اليد على اليد كهيأة الصلاة من أنواع العبادة التي لا تنبغي إلا لله تعالى اهـ

وأن الجمع هنا بين المفهوم والمنطوق بنفس المفهوم لما يدل على شدة الاهتمام به والعناية بأمره وإنه ليلفت النظر إلى ما جاء في الأحاديث الصحيحة من النهي الأكيد والوعيد الشديد بالنسبة لقضية المساجد ودعوة التوحيد وما كان يفعله الأولون من بناء المساجد على القبور ويفتحون بذلك بابا مطلا على الشرك كحديث أم سلمة وأم حبيبة رضي الله عنهما عند البخاري ومسلم في قصتيهما على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاهدتاه بالحبشة من هذا القبيل فقال صلى الله عليه وسلم"أولئك كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجدا أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة".

وكحديث الصحيحين "لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد" قالت عائشة ولولا ذلك لأبرز قبره أي خشية اتخاذه مسجدا

حديث الموطأ قوله صلى الله عليه وسلم "اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد" ، فكل ذلك مما يشدد الحذر من الجمع بين القبور والمساجد خشية الفتنة وسدا للذريعة

ويشهد لهذا ما ذكره علماء التفسير رحمهم الله من سبب النزول أن اليهود والنصارى كانوا إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا مع الله غيره فحذر الله المسلمين أن يفعلوا ذلك

وهذه المسألة مما تفشت في كثير من البلدان الإسلامية مما يستوجب التنبه لها وربط هذه الآية بها مع تلك النصوص النبوية الصريحة في شأنها مهما كان المسجد

وذكر ابن كثير عن ابن عباس أنه قال لم نزلت هذه الآية لم يكن في الأرض مسجد إلا المسجد الحرام ومسجد إيليا بيت المقدس.

تنبيه

قد أثير في هذه المسألة تساؤلات من بعض الناس بالنسبة للمسجد النبوي وموضع الحجرة منه بعد إدخالها فيه.

(351/8)

وقد أجاب عن ذلك ابن حجر في فتح الباري بقوله على حديث عائشة رضي الله عنها أنه صلى الله عليه وسلم قال في مرضه الذي مات فيه "لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد" قالت ولولا ذلك لأبرز قبره غير أني أخشى أن يتخذ مسجدا رواه البخاري في كتاب الجنائز

وفي بعض رواياته غير أنه خشي فقال ابن حجر وهذا قالته عائشة قبل أن يوسع المسجد النبوي ولهذا لما وسع المسجد جعلت حجرتها مثلثة الشكل محددة حتى لا يتأتى لأحد أن يصلي إلى جهة القبر مع استقبال القبلة اهـ.

وذكرت كتب السيرة وتاريخ المسجد النبوي بعض الأخبار في ذلك من ذلك ما رواه السمهودي في وفاء الوفاء

قال وعن المطلب قال كانوا يأخذون من تراب القبر فأمرت عائشة بجدار فضرب عليهم وكان في الجدار كوة فأمرت بالكوة فسدت هي أيضا. ونقل عن ابن شيبة قال أبو غسان بن يحيى بن علي بن عبد الحميد وكان عالما بأخبار المدينة ومن بيت كتابة وعلم لم يزل بيت النبي صلى الله عليه وسلم الذي دفن فيه وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما ظاهرا حتى بنى عمر بن عبد العزيز عليه الخطار المزور الذي هو عليه اليوم حين بنى المسجد في خلافة الوليد بن عبد الملك وإنما جعله مزورا كراهة أن يشبه تربيع الكعبة وأن يتخذ قبلة يصلى إليه.

قال أبو زيد بن شيبة قال أبو غسان وقد سمعت غير واحد من أهل العلم يزعم أن عمر بن عبد العزيز بنى البيت غير بنائه الذي كان عليه وسمعت من يقول بنى علي بيت النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة أجدر فدون القبر ثلاثة أجدر جدار بناء بيت النبي صلى الله عليه وسلم وجدار البيت الذي يزعم أنه بنى عليه يعني عمر بن عبد العزيز وجدار الخطار الظاهر وقال قال أبو غسان فيما حكاه الأقشهدي أخبرني الثقة عن عبد الرحمان بن مهدي عن منصور بن ربيعة عن عثمان بن عروة قال قال عروة نازلت عمر بن عبد العزيز في قبر النبي صلى الله عليه وسلم ألا يجعل في المسجد أشد المنازلة فأبى وقال كتاب أمير المؤمنين لا بد من إنفاذه.

قال: قلت: فإن كان لا بد فاجعل له جؤجؤا، أي: وهو الموضع لنزور خلف الحجرة ا هـ

(352/8)

فهذه منازلة في موضوع الحجرة والمسجد وهذا جواب عمر بن عبد العزيز

وقد آلت إليه الخلافة وهو الخليفة الراشد الخامس وقد أقر هذا الوضع لما اتخذ تلك الاحتياطات من أن يكون القبر قبلة للمصلين وهذا مما لا شك فيه في خير القرون الأولى ومشهد من أكابر المسلمين مما لا يدع لأحد مجالا لاعتراض أو احتجاج أو استدلال وقد بحثت هذه المسألة من علماء المسلمين في كل عصر

وقال القرطبي: بالغ المسلمون في سد الذريعة في قبر النبي صلى الله عليه وسلم فأعلوا حيطان تربته وسدوا

المدخل إليها وجعلوها محدقة بقبره صلى الله عليه وسلم ثم خافوا أن يتخذ موضع قبره قبلة إذا كان مستقبل المصلين فتصور الصلاة إليه بصورة العبادة فبنوا جدارين من ركني القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا على زاويتي مثلثة من ناحية الشمال حتى لا يتمكن أحد من استقبال قبره اه من فتح المجيد

وقد قال بعض العلماء إن هذا العمل الذي اتخذ حيال القبر الشريف وقبري صاحبيه إنما هو استجابة دعائه صلى الله عليه وسلم "اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد" كما قال ابن القيم في نونيته كابن تمية قال:

فأجاب رب العالمين دعاءه . . . وأحاطه بثلاثة الجدران

حتى غدت أرجاؤه بدعائه . . . في عزة وحماية وصيان

وقال صاحب فتح المجيد ودل الحديث أن قبر النبي صلى الله عليه وسلم لو عبد لكان وثنا ولكن حماه الله تعالى بما حال بينه وبين الناس فلا يوصل إليه

ودل الحديث على أن الوثن هو ما يباشره العابد من القبور والتوابيت التي عليها اهـ

وهذا الذي قاله حقيقة دقيق ماخذها لأنه لو لم يكن بعد إدخال الحجرة في مامن من الصلاة إليه لكان وثنا وحاشاه صلى الله عليه وسلم يكون في حياته داعيا إلى الله وبعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى يكون قبره وثنا ينافي التوحيد ويهدم ما بناه في حياته

وكيف يرضى الله لرسوله ذلك حاشا وكلا هذا مجمل ما قيل في هذه المسألة

(353/8)

وجهة نظر

وهنا وجهة نظر وإن كنت لم أقف على قول فيها وهي أن كل نص متقدم صريح في النهي عن اتخاذ المساجد على القبور بأن يكون القبر أولا ثم يتخذ عليه المسجد كما جاء في قصة أصحاب الكهف ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾ [21/18]، أي: أن القبر أولا والمسجد ثانيا.

أما قضية الحجرة والمسجد النبوي فهي عكس ذلك إذ المسجد هو الأول وإدخال الحجرة ثانيًا فلا تنطبق عليه تلك النصوص في نظري. والله تعالى أعلم.

ومن ناحية أخرى لم يكن الذي أدخل في المسجد هو القبر أو القبور بل الذي أدخل في المسجد هو الحجرة أي بما فيها وقد تقدم كلام صاحب فتح المجيد في تعريف الوثن أنه ما سجد إليه من قريب وعليه فما من مصل يبعد عن مكة إلا ويقع بينه وبين الكعبة قبور ومقابر ولا يعتبر مصليا إلى القبور لبعدها ووجود الحواجز دونه وإن كان البعد نسبيا فكذلك في موضوع القبور الثلاثة في الحجرة فإنها بعيدة عن مباشرة الصلاة إليها والحمد لله رب العالمين.

وأيضا لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كلاما في ذلك ملخصه من المجموع جلد 72 ص 323 وكأن النبي صلى الله عليه وسلم لما مات ودفن في حجرة عائشة رضي الله عنها وكانت هي وحجز نسائه في شرقي المسجد وقبليه لم يكن شيء من ذلك داخلا المسجد واستمر الأمر على ذلك إلى أن انقرض عصر الصحابة بالمدينة.

ثم بعد ذلك في خلافة الوليد بن عبد الملك بن مروان بنحو من سنة من بيعته وسع المسجد وأدخلت فيه الحجرة للضرورة فإن الوليد كتب إلى نائبه عمر بن عبد العزيز أن يشتري الحجر من ملاكها ورثة أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فإنهن كن توفين كلهن رضي الله عنهن فأمره أن يشتري الحجر ويزيدها في المسجد فهدمها وأدخلها في المسجد وبقيت حجرة عائشة على حالها وكانت مغلقة لا يمكن أحد من الدخول إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم لا لصلاة عنده ولا لدعاء ولا غير ذلك إلى حين كانت عائشة في الحياة وهي توفيت قبل إدخال الحجرة بأكثر من عشرين أو ثلاثين سنة

وقال في صفحة 823: ولم تكن تمكن أحدا أن يفعل عند قبره شيئًا مما نهى عنه

وبعدها كانت مغلقة إلى أن أدخلت في المسجد فسد بابها وبنى عليها حائط آخر

فكل ذلك صيانة له صلى الله عليه وسلم أن يتخذ بيته عيدا وقبره وثنا وإلا فمعلوم أن أهل المدينة كلهم مسلمون ولا يأتي إلى هناك إلا مسلم وكلهم معظمون للرسول صلى الله عليه وسلم فما فعلوا ذلك ليستهان بالقبر المكرم بل فعلوه لئلا يتخذ وثنا يعبد ولا يتخذ بيته عيدا ولئلا يفعل به كما فعل أهل الكتاب بقبور أنبيائهم انتهى.

وتقدم شرح ابن القيم لوضع الجدران الثلاثة وجعل طرف الجدار الثالث من الشمال على شكل رأس مثلث وأن المشاهد اليوم بعد ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله وجود الشبك الحديدي من وراء ذلك كله ويبعد عن رأس المثلث إلى الشمال ما يقرب من ستة أمتار يتوسطها أي تلك المسافة محراب كبير وهذا كان في المسجد سابقا أي قبل الشبك مما يدل على بعد ما بين المصلى في الجهة الشمالية من الحجرة المكرمة وبين القبور الثلاثة وينفي أي علاقة للصلاة من ورائه بالقبور الشريفة والحمد لله رب العالمين

وفي ختام هذه المسألة وقد أثير فيها كلام في موسم حج سنة 1394 في منى ومن بعض المشتغلين بالعلم تقول لو أنها لم تدخل بالفعل لكان للقول بعدم إدخالها مجال أما وقد أدخلت بالفعل وفي عهد عمر بن عبد العزيز وفي القرون المشهود لها بالخير ومضى على إدخالها ثلاثة عشر قرنا فلا مجال للقول إذا

ومن ناحية أخرى فإن النبي صلى الله عليه وسلم سكت على ما هو أعظم من ذلك ألا وهو وضوع بناء الكعبة وكونها لم تستوعب قواعد إبراهيم ولها باب واحد ومرتفع عن الأرض

وكان باستطاعته صلى الله عليه وسلم أن يعيد بناءها على الوجه الأصح فتستوعب قواعد إبراهيم ويكون لها بابان ويسويهما بالأرض.

ولكنه صلى الله عليه وسلم ترك ذلك لاعتبارات بينها في حديث عائشة رضي الله عنها .

ألا يسع من يتكلم في موضوع الحجرات اليوم ما وسع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الكعبة وما وسع السلف رحمهم الله في عين الحجرة.

ومن ناحية ثالثة لو أنه أخذ بقولهم فأخرجت من المسجد أي جعل المسجد من دونها على الأصل الأولى ثم جاء آخرون وقالوا نعيدها على ما كانت عليه في عهد الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز ألا يقال في ذلك ما قال مالك للرشيد رحمهما الله في خصوص الكعبة لما بناها ابن الزبير وأعادها الحجاج وأراد الرشيد أن يعيدها على بناء ابن الزبير فقال له مالك رحمه الله لا تفعل لأني أخشى أن تصبح الكعبة ألعوبة الملوك فيقال هنا أيضا فتصبح الحجرة ألعوبة الملوك بين إدخال وإخراج وفيه من الفتنة ما فيه والعلم عند الله تعالى

(356/8)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المزمل

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ بين تعالى المراد من المقدار المطلوب قيامه بما جاء بعده ﴿نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ﴾ [3/73]، أي: من نصفه أو زد عليه أي على نصفه وفي هذه الآية الكريمة وما بعدها بيان لمجمل قوله تعالى ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ [79/17] .

وفيها بيان لكيفية القيام وهو بترتيل القرآن وفيها رد على مسألتين اختلف فيهما

الأولى منهما: عدد ركعات قيام الليل أهو ثماني ركعات أو أكثر ؟

وقد خير صلى الله عليه وسلم بين هذه الأزمنة من الليل فترك ذلك لنشاطه واستعداده وارتياحه فلا يمكن التعبد بعدد لا يصح دونه ولا يجوز تعديه واختلف في قيام رمضان خاصة والأولى أن يؤخذ بما ارتضاه السلف وقد قدمنا في هذه المسألة رسالة عامة هي رسالة التراويح أكثر من ألف عام في مسجد النبي عليه السلام وقد استقر العمل على عشرين في رمضان.

والمسألة الثانية ما يذكره الفقهاء في كيفية قيام الليل عامة هل الأفضل كثرة الركعات لكثرة الركوع والسجود

وحيث إن أقرب ما يكون العبد إلى الله وهو ساجد أم طول القيام للقراءة حيث إن للقارىء بكل حرف عشر حسنات فهنا قوله تعالى ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾ [4/73]، نص على أن العبرة بترتيل القرآن ترتيلا وأكد بالمصدر تأكيدا لإرادة هذا المعنى كما قال ابن مسعود.

لا تنثروه نثر الرمل ولا تهذوه هذ الشعر قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ولا يكن هم أحدكم آخر السورة

وقد بينت أم سلمة رضي الله عنها تلاوة رسول الله صلى الله عليه وسلم بقولها كان يقطع قراءته آية آية ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ

(357/8)

الدِّينِ ﴾ [4/1] رواه أحمد

وفي الصحيح عن أنس سئل عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كنت مدا ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمد بسم الله ويمد الرحمن ,ويمد الرحيم

تنبيه

إن للمد حدودا معلومة في التجويد حسب تلقي القراء رحمهم الله فما زاد عنها فهو تلاعب وما قل عنها فهو تقصير في حق التلاوة.

ومن هذا يعلم أن المتخذين القرآن كغيره في طريقة الأداء من تمطيط وتزيد لم يراعوا معنى هذه الآية الكريمة ولا يمنع ذلك تحسين الصوت بالقراءة كما في قوله صلى الله عليه وسلم"زينوا القرآن بأصواتكم" .

وقال أبو موسى رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لو كنت أعلم أنك تسمع قراءتي لحبرته لك تحبيرا وهذا الوصف هو الذي يتأتى منه الغرض من التلاوة وهو التدبر والتأمل كما في قوله لها ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ [82/4]، كما أنه هو الوصف الذي يتأتى معه الغرض من تخشع القلب كما في قوله تعالى ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ

إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [23/39]، ولا تتأثر به القلوب والجلود إلا إذا كان مرتلا فإذا كان هذا كالشعر أو الكلام العادي لما فهم وإذا كان مطربا كالأغاني لما أثر فوجب الترتيل كما بين صلى الله عليه وسلم قوله تعالى﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل: 5].

معلوم أن القول هنا هو القرآن كما قال تعالى﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [40/69]، وقوله ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [51/28].

وقوله ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ [13/86]، وقوله ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [122/4]، ونحو ذلك من الآيات.

ولكن وصفه بالثقل مع أن الثقل للأوزان وهي المحسوسات فقال بعض المفسرين إن الثقل في وزن الثواب وقيل في التكاليف به وقيل من أثناء نزول الوحي عليه وكل ذلك ثابت للقرآن الكريم

فمن جهة نزوله فقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا أتاه الوحي أخذته

(358/8)

برحاء شديدة وكان يحمر وجهه كأنه مذهبة وكان إذا نزل عليه صلى الله عليه وسلم وهو في سفره على راحلته بركت به الناقة وجاء عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان واضعا رأسه على فخذه فأتاه الوحي قال أنس فكان فخذي تكاد تنفصل مني ومن جانب تكاليفه فقد ثقلت على السماوات والأرض والجبال وأشفقن منها كما هو معلوم ومن جانب ثوابه فقد جاء في حديث مسلم "الحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض".

وحديث البطاقة وكل ذلك يشهد بعضه لبعض ولا ينافيه.

وقد بين تعالى أن هذا الثقل قد يخففه الله على المؤمنين كما في الصلاة في قوله﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ أنهم أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ [2/45-46]، وكذلك القرآن ثقيل على الكفار

خفيف على المؤمنين محبب إليهم

وقد جاء في الآثار أن بعض السلف كان يقوم الليل كله بسورة من سور القرآن تلذذا وارتياحا كما قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ﴾ [17/54]، فهو ثقيل في وزنه ثقيل في تكاليفه ولكن يخففه الله وييسره لمن هداه ووفقه إليه.

قوله تعالى ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ [المزمل: 6].

أشد وطأ وأقوم قيلا أي ما تنشأه من قيام الليل أشد مواطأة للقلب وأقوم قيلا في التلاوة والتدبر والتأمل وبالتالي بالتأثر ففيه إرشاد إلى ما يقابل هذا الثقل فيلم سيلقى عليه من القول فهو بمثابة التوجيه إلى ما يتزود به لتحمل ثقل أعباء الدعوة والرسالة.

وقد سمعت من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه قوله لا يثبت القرآن في الصدر ولا يسهل حفظه وييسر فهمه إلا القيام به من جوف الليل وقد كان رحمه الله تعالى لا يترك ورده من الليل صيفا أو شتاء وقد أفاد هذا المعنى قوله تعالى ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ [45/2]، والصلواة فكان صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة.

وهكذا هنا فإن ناشئة الليل كانت عونا له صلى الله عليه وسلم على ما سيلقى عليه من ثقل القول مسأل

قيل: إن قيام الليل كان فرضا عليه صلى الله عليه وسلم قبل أن تفرض الصلوات الخمس لقوله

تعالى: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ ﴾ [79/17]، والنافلة الزيادة وقيل كان فرضا عليه صلى الله عليه وسلم وعلى عامة المسلمين لقوله تعالى في هذه السورة ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ ﴾ ثم خفف هذا كله بقوله ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ إلى

قوله ﴿ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً﴾ [20/73] . ولكنه صلى الله عليه وسلم كان إذا عمل عملا داوم عليه فكان قيام الليل شكرا لله كما في حديث عائشة رضي الله عنها "أفلا أكون عبدا شكورا" ، وبقي سنة لغيره بقدر ما يتيسر لهم والله تعالى أعلم

(360/8)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المدثر

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ [المدثر: 2] .

الإنذار إعلام بتخويف فهو أخص من مطلق الإعلام وهو متعد لمفعولين المنذر باسم المفعول والمنذر به ولم يذكر هنا واحد منهما .

أما المنذر فقد بينت آيات أخر أنه قد يكون للكافرين كما في قوله تعالى﴿ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً﴾ [97/19] تخويفا لهم.

وقد يكون للمؤمنين لأنهم المنتفعون به كما في قوله﴿ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ [11/36] .

وقد يكون للجميع أي لعامة الناس كما في قوله تعالى﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [2/10] .

وأما المنذر به فهو ما يكون يوم القيامة

وقد قدر الأمرين هنا ابن جرير بقوله فأنذر عذاب الله قومك الذين أشركوا بالله وعبدوا غيره

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه تفصيل ذلك عند قوله تعالى﴿ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

[2/7]، في سورة "الأعراف" .

قوله تعالى ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدثر: 4]، قد اختلف المفسرون في المراد من كل من لفظتي الثياب وفطهر

هل هما دلا على الحقيقة ويكون المراد طهارة الثوب من النجاسات أم هما على الكناية ؟

والمراد بالثوب البدن والطهارة عن المعويات من معاصي وآثام ونحوها أم على الحقيقة والكناية فقد ذكر ابن

جرير وغيره نحوا من خمسة أقوال

(361/8)

الأول: عن ابن عباس وعكرمة والضحاك أن معناه لا تلبس ثيابك على معصية ولا على غدرة واستشهد بقول

غيلان:

وإني بحمد الله لا ثوب فاجر . . . لبست ولا من عذرة أتقنع

وقول الآخر وقول الآخر

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه. . . فكل رداء يرتديه جميل

فاستعمل اللفظين في الكناية وقد يستدل له بقوله﴿ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ﴾ [2/94] .

وورد عن ابن عباس لا تلبس ثيابك من كسب غير طيب فاستعمل الثياب في الحقيقة والتطهير في الكناية

وعن مجاهد أصلح عملك وعملك فاصلح فاستعملهما معا في الكناية عن العمل الصالح

وعن محمد بن سيرين وابن زيد على حقيقتهما فطهر ثيابك من النجاسة

ثم قال والذي قاله ابن سيرين وابن زيد أظهر في ذلك

وقول ابن عباس وعكرمة قول عليه أكثر السلف والله أعلم بمراده

وقال غيره: ثيابك هي نساؤك كما في قوله﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ ﴾ [187/2]، فأمرهن بالتطهر وتخيرهن

طاهرات خيرات.

هذه أقوال المفسرين واختيار ابن جرير منها والواقع في السياق ما يشهد لاختيار ابن جرير وهو حمل اللفظين على حقيقتهما .

وترجيح قول ابن سيرين أن المراد طهارة الثوب من النجاسة والقرينة في الآية أنها اشتملت على أمرين الأول طهارة الثوب والثاني هجر الرجز.

ومن معاني الرجز المعاصي فيكون حمل طهارة الثوب على حقيقته وهو الرجز على حقيقته لمعنى جديد أولى .

(362/8)

وهذه الآية بقسميها جاء نظيرها بقسميها أصرح من ذلك في قوله لهي ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ [11/8] والله تعالى أعلم.

وقد جعل الشافعي هذه الآية دليلا على الطهارة للصلاة

قوله تعالى ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: 10] .

الناقور هو الصور وأصل الناقور الصوت وقوله﴿ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ .

وقيل عسير وغير يسير على الكافرين

وقال الزمخشري إن غير يسير كان يكفي عنها يوم عسير إلا أنه ليبين لهأن عسره لا يرجى تيسيره كعسر الدنيا وأن فيه زيادة وعيد للكافرين.

ونوع بشارة للمؤمنين لسهولته عليهم ولعل المعنيين مستقلان وأن قوله تعالى﴿ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ . هذا كلام مستقل وصف لهذا اليوم وبيان للجميع شدة هوله كما جاء في وصفه في قوله تعالى﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [22/1–2] ومثل قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ

مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾ [80/34-35] ونحو ذلك.

ثم بين تعالى أن اليوم العسير أنه على الكافرين غير يسير كما قال تعالى عنهم﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ﴾ [73/17-18]، بينما يكون على المؤمنين يسيرا مع أنه عسير في ذاته لشدة هوله إلا أن الله ييسره على المؤمنين كما بين تعالى هذه الصورة بجانبها في قوله تعالى من سورة النمل":

﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ -إلى قوله-: ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [27/87-90].

(8/363)

فالفزع من صعقة يوم ينفخ في الصور عام لجميع من في السماوات ومن في الأرض ولكن استثنى الله من شاء ثم بين تعالى هؤلاء المستثنين ومن يبقى في الفزع فبين الآمنين وهم من جاء بالحسنة والآخرون من جاء بالسيئة

﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: 31]

في قوله تعالى ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ، حكى القرطبي في معنى الفتنة هنا معنيين الأول التحريق كما في قوله﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [85/10].

والثاني الابتلاء وقد تقدم للشيخ مرارا في كتابه ودروسه أن أصل الفتنة الاختبار

تقول اختبرت الذهب إذا أدخلته النار لتعرف زيفه من خالصه

ولكن السياق يدل على الثاني وهو الاختبار والابتلاء لقوله تعالى

﴿ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ .

وقوله ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ ، أي عددهم فلو كان المراد التحريق والوعيد بالنار لما كان مجال لتساؤل الذين في قلوبهم مرض والكافرين عن هذا المثل ولما كان يصلح أن يجعل مثلا ولما كان الحديث عن عدد جنود ربك بجال وفي هذه الآية الكريمة عدة مسائل هامة

الأولى جعل المثل المذكور أي جعل العدد المعين فتنة لتوجه السؤال أو مقابلته بالإذعان فقد تساءل المستبعدون واستسلم وأذعن المؤمنون كما ذكر تعالى في صريح قوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ [26/2] .

ثم بين تعالى الغرض من ذلك طبق ما جاء في الآية هنا ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ

(364/8)

كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [26/2]، فهذه الآية من سورة البقرة مبينة تماما لآية المدثر" .

المسألة الثانية قوله تعالى ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أن هذا مطابق لما عندهم في التوراة وهذا مما يشهد لقومهم على صدق ما يأتي به النبي صلى الله عليه وسلم، وما ادعاه لإيمانهم وتصديقهم وقد ذكر القرطبي حديثا في ذلك واستغربه ولكن النص يشهد لذلك

المسألة الثالثة أن المؤمن كلما جاءه أمر عن الله وصدقه ولو لم يعلم حقيقته اكتفاء بأنه من الله ازداد بهذا التصديق إيمانا وهي مسألة ازدياد الإيمان بالطاعة والتصديق

المسألة الرابعة بيان أن الواجب على المؤمن المبادرة بالتصديق والانقياد ولو لم يعلم الحكمة أو السر أو الغرض بناء على أن الخبر من الله تعالى وهو أعلم بما رواه.

وفي هذه المسألة مثار نقاش حكمة التشريع وهذا أمر واسع ولكن المهم عندنا هنا ونحن في عصر الماديات وتقدم المخترعات وظهور كثير من علامات الاستفهام عند كثير من آيات الأحكام فإنا نود أن نقول إن كل ما صح عن الشارع الحكيم من كتاب أو سنة وجب التسليم والانقياد إليه علمنا الحكمة أو لم نعلم لأن علمنا قاصر وفهمنا محدود والعليم الحكيم الرؤوف الرحيم سبحانه لا يكلف عباده إلا بما فيه الحكمة ومجمل القول إن الأحكام بالنسبة لحكمتها قد تكون محصورة في أقسام ثلاثة

القسم الأول: حكم تظهر حكمته بنص كما في وجوب الصلاة جاء ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ [45/29]، عن الفحشاء والمنكر وهذه حكمة جليلة والزكاة جاء عنها أنها﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ [103/9].

وفي الصوم جاء فيه ﴿ لعلكم تتقون ﴾ [183/2].

وفي الحج جاء فيه: ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ [28/22]. فمع أنها عبادات لله فقد ظهرت حكمتها جلية وفي الممنوعات كما قالوا في الضروريات الست، حفظ الدين والعقل، والدم،

(365/8)

والعرض والنسب والمال لقيام الحياة ووفرة الأمن وصيانة المجتمع وجعلت فيها حدود لحفظها وغير ذلك وقسم لم تظهر حكمتهبهذا الظهور ولكنه لم يخل من حكمة كالطواف والسعي والركوع والسجود والوضوء والتيمم والغسل ونحو ذلك.

وقسم ابتلاء وامتحان أولا ولحكمة ثانيا كتحويل القبلة كما قال تعالى﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ [143/2].

وفي التحول عنها حكمة كما في قوله تعالى﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ [150/2].

والمسلم في كلتا الحالتين ظهرت له الحكمة أو لم تظهر وجب عليه الامتثال والانقياد كما قال عمر عند استلامه

للحج وإني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك فقبله امتثالا واقتداء بصرف النظر عن ما جاء من أن عليا رضي الله عنه قال له بلى يا أمير المؤمنين إنه يضر وينفع فيأتي يوم القيامة وله لسان وعينان يشهد لمن قبله لأن عمر أقبل عليه ليقبله قبل أن يخبره علي رضي الله عنه.

وقد تتكشف الأمور عن حكمة لا نعلمها كما في قصة الخضر مع موسى عليهما السلام إذ خرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار وكلها أعمال لم يعلم لها موسى عليه السلام حكمة فلما أبداها له الخضر علم مدى حكمتها.

وهكذا نحن اليوم وفي كل يوم وقد بين تعالى هذا الموقف بقوله﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ [7/3].

وقد جاء في نهاية الآية الكريمة ما يلزم البشر بالعجز ويدفعهم إلى التسليم في قوله﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ .

فكذلك بقية الأمور من الله تعالى هو أعلم بها والعلم عند الله تعالى قوله تعالى

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ

(366/8)

وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ [المدثر: 42-47].

في هذه الآية الكريمة أن أصحاب اليمين يتساءلون عن المجرمين وسبب دخولهم النار وكان الجواب أنهم لم يكونوا من المصلين ولم يكونوا يطعموا المسكين وكانوا يخوضون مع الخائضين وكانوا يكذبون بيوم الدين فجعلهم بين الكفر بتكذيبهم بيوم الدين وبين الفروع وهي ترك الصلاة والزكاة المعبر عنها بإطعام المسكين إلى آخره فهذه الآية من الأدلة على أن الكافر مطالب بفروع الشرع مع أصوله

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه مناقشة هذه المسألة عند قوله تعالى﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [7/41] في سورة "فصلت" .

قوله تعالى ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: 48] .

فيه أن الكفار لا تنفعهم شفاعة الشافعين كما أن فيها إثبات الشفاعة للشافعين ومفهوكونها لا تنفع الكفار أنها تنفع غيرهم.

وقد جاءت نصوص في الشفاعة لمن ارتضاهم الله وقد دلت نصوص على كلا الأمرين فمن عدم الشفاعة للكفار قوله تعالى ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [18/40] .

وقوله ﴿ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ [26/99–100] ونحو ذلك من الآيات.

وفي القسم الثاني قوله تعالى﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [28/21] .

وكذلك الشفيع لا يشفع إلا من أذن له ولا يشفعون إلا فيمن أذنوا فيه كما قال تعالى ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [255/2] . وقوله: ﴿ يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ [109/20] .

ومبحث الشفاعة واسع مقرر في كتب العقائد.

وخلاصة القول فيها أنها لا تكون إلا بإذن من الله اللذون له فيها وقد ثبت

(367/8)

للنبي صلى الله عليه وسلم الشفاعة العظمى وهي المقام المحمود وعدة شفاعات بعدها منها ما اختص به صلى الله عليه وسلم كالشفاعة العظمى ودخول الجنة والشفاعة في غير مسلم وهو عمه أبو طالب للتخفيف عنه ومنها ما يشاركه فيها غيره من الأنبياء والصلحاء والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: 51] .

في هذه الآية تشبيه المدعوين في إعراضهم عن الدعوة والتذكرة بالحمر الفارة من الصيادين أو الأسد وتشبيه

أيضا العالم غير المنتفع بعلمه بالحمار يحمل أسفارا فهما تشبيهان بالداعي والمدعو إذا لم تنفعه الدعوة وتقدم للشيخ في مبحث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(368/8)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة القيامة

قوله تعالى: ﴿ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة: 2] .

قال ابن جرير اختلف القراء في قراءة قوله تعالى﴿ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ ، فقرأت ذلك عامة قراء الأمصار ﴿ لا أُقْسِمُ ﴾ مفصولة من أقسم سوى الحسن والأعرج فإنه ذكر عنهما أنهما كانا يقرآن ذلك﴿ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ ، بمعنى أقسم بيوم القيامة.

ثم دخلت عليها لام القسم والقراءة التي لا أستجيز غيرها في هذا الموضع﴿ لا ﴾ مفصولة ﴿ أُقْسِمُ ﴾ مبتدأه على ما عليه قراء الأمصار بإجماع الحجة من القراء عليه

وقد اختلف الذين قرؤوا ذلك على الوجه الذي اخترنا قراءته في تأويله فقال بعضهم لا صلة وإنما معنى الكلام ﴿ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ ، وعزاه إلى سعيد بن جبير.

وقال آخرون بل دخلت﴿ لا ﴾ ، توكيدا للكلام.

وذكر عن أبي بكر بن عياش في قوله﴿ لا أُقْسِمُ ﴾ توكيد للقسم كقوله لا والله.

وقال بعض نحويي الكوفة﴿ لا ﴾ ، رد لكلام قد مضى من كلام المشركين الذين كانوا ينكرون الجنة والناو ثم ابتدىء القسم فقيل ﴿ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ ، وكان يقول كل يمين قبلها رد كلام فلا بد من تقديم﴿ لا ﴾ قبلها ليفرق بذلك بين اليمين التي تكون جحدا واليمين التي تستأنف ويقول ألا ترى أنك تقول مبتدئا والله إن الرسول لحق وإذا قلت لا والله إن الرسول لحق فكأنك أكذبت قوما أنكروه واختلفوا أيضا في ذلك هل هو قسم

أم لا .

وذكر الخلاف في ذلك والواقع أن هذه المسألة من المشكلات من حيث وجود اللام وهل هي نافية للقسم أم مثبتة ؟ وعلى أنها مثبتة فما موجبها ؟ هل هي رد لكلام سابق أم تأكيد للقسم وهل وقع إقسام أم لا كما ذكر كل ذلك ابن جرير.

(369/8)

وقد تناولها الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في كتابه دفع إيهام الاضطراب في موضعين الأول في هذه السورة والثاني في سورة البلد عند قوله تعالى﴿ لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ [1/90]، فبين في الموضع الأول أنها أي ﴿ لا ﴾ نافية لكلام قبلها فلا تعارض مع الإقسام بيوم القيامة فعلا الواقع في قوله تعالى﴿ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴾ [2/85] .

والثاني أنها صلة وقال سيأتي له زيادة إيضاح والموضع الثاني﴿ لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ ، ساق فيه بحثا طويلا مهما جدا نسوق خلاصته.

وسيطبع الكتاب إن شاء الله مع هذه التتمة فليرجع إليه

خلاصة ما ساقه رحمة الله تعالى علينا وعليه

قال الجواب عليها من أوجه الأول وعليه الجمهور أن﴿ لا ﴾ هنا صلة على عادة العرب فإنها ربما لفظت بلفظة ﴿ لا ﴾ من غير قصد معناها الأصلي بل لمجرد تقوية الكلام وتوكيده كقوله

﴿ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ [20/92–93] . يعني أن تتبعني.

وقوله: ﴿ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [29/57]

وقوله ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [65/4] .

وقول امرىء القيس:

فلا وأبيك ابنة العامري . . . لا يدع القوم أني أفر

يعني وأبيك وأنشد الفراء لزيادة لا في الكلام الذي فيه معنى الجحد قول الشاعر

ما كان يرضى رسول الله دينهم . . . والأطيبان أبو بكر ولا عمر

يعني وعمر وأنشد الجوهري لزيادتها قول العجاج

في بئر لا حور سرى وما شعر . . . بإفكه حتى رأى الصبح شجر

الحور: الهلكة: يعني في بئر هلكة وأنشد غيره

تذكرت ليلى فاعترتني صبابة . . . وكاد صميم القلب لا يتقطع

والوجه الثاني: أن ﴿ لا ﴾ نفي لكلام المشركين المكذبين للنبي صلى الله عليه وسلم

(370/8)

وقوله ﴿ أُقْسِمُ ﴾ إثبات مستأنف.

وقال: إن هذا الوجه، وإن قال به كثير من العلماء إلا أنه ليس بوجيه عندي لقوله تعالى في سورة القيامة ﴿ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ ، لأن قوله ﴿ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ ، يدل على أنه لم يرد الإثبات المستأنف بعد النفي بقوله: ﴿ أُقْسِمُ ﴾ والله تعالى أعلم.

الوجه الثالث أنها حرف نفي أيضا ووجهه أن إنشاء القسم يتضمن الإخبار عن تعظيم المقسم به فهو نفي لذلك الخبر الضمني على سبيل الكناية والمراد أنه لا يعظم بالقسم بل هو في نفسه عظيم أقسم به أولا وهذا القول ذكره صاحب الكشاف وصاحب روح المعاني ولا يخلو عندي من نظر.

الوجه الرابع: أن اللام لام الابتداء أشبعت فتحتها والعرب ربما أشبعت الفتحة بألف والكسرة بياء والضمة بواو ومثاله في الفتحة قول عبد يغوث الحارث

وتضحك مني شيخة عبشمية . . . كأن لم ترى قبلي يسيرا يمانيا

فالأصل كأن لم تر ولكن الفتحة أشبعت

وقول الراجز:

إذا العجوز غضبت فطلق . . . ولا ترضاها ولا تملق

وقول عنترة في معلقته:

ينباع من ذفري غضوب جسرة. . . زيافة مثل العتيق المكدم

فالأصل ينبع يعني العرق ينبع من الذفري من ناقته فأشبعت الفتحة فصارت ينباع وقال ليس هذا الإشباع من ضرورة الشعر.

ثم ساق الشواهد على الإشباع بالضمة والكسرة ثم قال يشهد لهذا الوجه قراءة قنبل: "لأقسم بهذا البلد" بلام الابتداء وهو مروي عن البزي والحسن والعلم عند الله تعالى اهـ ملخصا .

فأنت ترى أنه رحمة الله قدم فيها أربعة أوجه صلة ونفي الكلام قبلها ، وتأكيد

(371/8)

للقسم ولام ابتداء واستدل له بقراءة قنبل أي﴿ لا أُقْسِمُ﴾ متصلة أما كونها لام ابتداء لقراءة قنبل والحسن فقد تقدم أن ابن جرير لا يستجيز هذه القراءة لإجماع الحجة من القراء على قراءتها مفصولة﴿ لا أُقْسِمُ﴾ .

ولعل أرجح هذه الأوجه كلها أنها لتوكيد القسم كما ذكر ابن جرير عن نحويي الكوفة والله تعالى أعلم

قوله تعالى ﴿ أَيَحْسَبُ الْأِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ [القيامة: 3] .

هذا الحسبان قد جاء مصرحا به في قوله تعالى﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [78/36] .

وجاءه الجواب ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الآية[79/36] .

قوله تعالى ﴿ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: 4] .

كل المفسرين على أن المعنى نجعل بنانه متساوية ملتحمة كخف البعير أي لا يستطيع أن يتناول بها شيئًا ولا يحسن بها عملا.

وهذا في الواقع لم نفهم لهوجها مع السياق فهو وإن كان دالا على قدرة الله وعجز العبد ولكن السياق في إنكار البعث واستبعاده ومجيء نظير ذلك في سورة "يس" يرشد إلى أن سبحانه قادر بعد موت العبد وتلاشيه في التراب وتحول عظامه رميما فهو قادر على أن يعيده تماما كما أنشأه أول مرة ومن ضمن تلك الإعادة أن يسوي بنانه أي يعدلها وينشؤها كما كانت أول مرة والعلم عند الله تعالى

ويرشد له قوله تعالى ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [36/79]، ومن الخلق ما كان عليه خلق هذا الإنسان المكذب المعترض فهو سبحانه يعيده على ما كان عليه تماما وهذا أبلغ في القدرة وأبلغ في الإلزام يوم القيامة والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ كَلَّا لا وَزَرَ ﴾ [القيامة: 7–11].

قرىء ﴿ بَرِقَ ﴾ بكسر الراء وفتحها فبالكسر فزع ودهش أصله من برق الرجل إذا نظر إلى البرق فدهش بصره ومنه قول ذي الرمة

(372/8)

لو أن لقمان الحكيم تعرضت. . . لعينيه مي سافرا كاد يبرق

وقول الأعشى:

وكنت أرى في وجه مية لمحة. . . فأبرق مغشيا على مكانيا

و ﴿ برق ﴾ بالفتح شق بصره وهو من البريق أي لمع بصره من شدة شخوصه.

قال أبو حيان والواقع أنه لا مانع من إرادة المعنيين ما دامت القراءتان صحيحتان وقد يشهد لهذا النص في

سورة إبراهيم في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ [14/42–43].

قال ابن كثير: ينظرون من الفزع هكذا وهكذا، لا يستقر لهم بصر من شدة الرعب

وقوله ﴿ يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴾ ، تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورة ص على قوله تعالى ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ [38/3].

قوله تعالى: ﴿ يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة: 13].

المراد ﴿ بِمَا قَدَّمَ ﴾ هنا هو ما قدمه من عمل ليوم القيامة كما في قوله تعالى ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ [89/23–24]، وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيانه عند قوله تعالى ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ [39/48] من سورة "الزمر"

قوله تعالى ﴿ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ [القيامة: 14] بينه قوله تعالى ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [17/14].

وقوله ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ﴾ [18/49] وتقدم في سورة "الكهف".

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ [القيامة: 15].

أي: أنها لا تنفعه آنذاك كما في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ [40/52].

(373/8)

وقد بين تعالى بعض معاذيرهم تلك في مثل قوله تعالى ﴿ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ [28/63].

وقوله ﴿ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴾ [37/32].

وقوله ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ قَالَ

اخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [23/106–108].

وقوله ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [67/10–11].

قوله تعالى ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة: 17].

فيه النهي عن تحريك لسانه صلى الله عليه وسلم وبيان أن الله تعالى عليه جمعه وقرآنه وهذا يدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان لشدة حرصه على استيعاب لم يوحى إليه يحرك لسانه عند الوحي فنهى عن ذلك وقد بين تعالى مدى هذا النهي ومدة هذه العجلة في قوله تعالى﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [20/114] وفيه الإيماء إلى حسن الاستماع والإصغاء عند الإيحاء به كما في آداب الاسماع ﴿ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [7/204].

وقوله ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [75/17] قد بين تعالى أن جمعه وقراءته عليه في قوله تعالى﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [15/9].

تنبيه

إن في قوله تعالى ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [75/17]، فيه إشارة إلى أنه نزل مفرقا وإشارة إلى أن جمعه على هذا النحو الموجود برعاية وعناية من الله تعالى وتحقيقا لقوله تعالى﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ ، ويشهد لذلك أن هذا الجمع الموجود من وسائل حفظه كما تعهد تعالى بذلك والله تعالى أعلم

(374/8)

وقال أبو حيان ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ﴾ في صدرك ﴿ وَقُرْآنَهُ﴾ ، أي: تقرأه.

قوله تعالى ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: 18].

تقدم للشيخ بيانه عند قوله تعالى﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [53/5]، من سورة "النجم".

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: 19] .

قد نبه تعالى كما جاء في مقدمة الأضواء أنه ما من مجمل إلا وجاء تفصيله في مكان آخر وقد نص تعالى على هذا في كثير من الآيات كما في قوله﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ [3/41]، وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك في أول "فصلت" قوله تعالى ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ [القيامة: 22] .

تقدم بيانه للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عند قوله تعالى﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي﴾ [143/7] .

قوله تعالى ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ [القيامة: 26–30] .

لم يبين ما هي التي بلغت التراقي ولكنه معلوم أنها الروح كما في قوله تعالى﴿ فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ﴾ –إلى قوله– ﴿ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [56/83–87]، فهذه حالات النزع والروح تبلغ الحلقوم وتبلغ التراقي وقد يترك التصريح للعلم كما في قوله تعالى﴿ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [32/38]، أي الشمس وهكذا هنا فلمعرفتها بالقرائن ترك التصريح بالروح أو النفس وقد صرح تعالى بذلك في قوله ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ الآية[93/6] .

وقوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ اختلف في معنى ﴿ رَاقٍ﴾ هذه فقيل من الرقية أي قال من حوله من يرقيه هل من طبيب يرقيه أي حالة اشتداد الأمر عليه رجاء لشفاه أو استبعادا بأنه لا ينفعوقيل: من الرقى أن تقول الملائكة: من الذي سيرقى بروحه

(375/8)

أملائكة العذاب أم ملائكة الرحمة ؟.

ولكن في الآية قرينة على أن الأول أرجح لأن قول الملائكة يكون في حق الشخص المتردد في أمره وهذا هنا ليس موضع تردد لأن نهاية السياق فيه﴿ فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ [75/31–32]، إلى ما بعده.

وقال أبو حيان على أنه على قول الملائكة من يرقى بروحه يكون ذلك كراهية منهم أن يصعدوا بها وفي هذا نظر لأن الله تعالى جعل ملائكة للمشركين وهم ملائكة العذاب وملائكة للمؤمنين وهم ملائكة الرحمة ولا يستكره فريق منهما أن يصعد بما تخصص له بل قد لا يسمح للآخر بما يخصه

كما في حديث الذي قتل مائة نفس وأدركته الوفاة في منتصف الطريق فحضرته ملائكة الرحمة وملائكة العذاب يختصمون أيهم يصعد بروحه كل يريد أن يتولى قبض روحه أولئك يقولون إنه قتل مائة نفس ولم يعمل خيرا قط وأولئك يقولون إنه خرج تائبا إلى الله تعالى.

وهذا كما تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه من ترجيح أحد المعنيين المختلف فيهما بين المفسرين لوجود قرينة في الآية وقد وجدت القرينة وهي ما في آخر الآية والسياق من أنه ليس موضع تردد﴿ فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى ﴾ الآية[75/31] . والله تعالى أعلم.

قوله تعالى ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: 36] .

رد على زعم أنه خلق سدى وهملا وأنه لا يحاسب ولا يسأل وبالتالي لا يبعث

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك عند قوله تعالى﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [23/115–116]، أي: تعالى الله عن العبث وقد ساق الشيخ الأدلة الوافية هناك

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ [القيامة: 37–40] .

بلى إنه على كل شيء قدير مجيء هذا الاستفهام الإنكاري أو التقريري بعد ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ وسوق هذه الآيات العظيمات الدالة على القدرة الباهرة فيه رد على إنكار ضمني وهو أنه لا يعتقد وجوده سدى ولا حساب عليه إلا من استبعد البعث

ولو أقر بالبعث لآمن بالجزاء واعترف بالسؤال وعلم أنه لم يخلق عبثًا ولن يترك سدى ولكن لما أنكر البعث ظن وحسب أنه يترك سدى فجاء تذكيره بأصل خلقته وتطوره ليستخلص منه اعترافه لأن من قدر على خلقه من مني يمنى وتطويره إلى علقة ثم إلى خلق سوي فهو قادر على بعثه مرة أخرى

وقد بين الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه هذه الأطوار في أكثر من موضع وأحال عليها عند قوله تعالى ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى ﴾ [53/45-47] في سورة "النجم" .

(377/8)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الإنسان

قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [الانسان: 2] .

اتفق المفسرون على أن ﴿ هَلْ ﴾ هنا بمعنى "قد" أي أن الاستفهام تقريري يستوجب الإجابة عليه بنعم ولفظ الإنسان في ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ ﴾ ، وقيل هو الإنسان الأول آدم عليه السلام أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيء يذكر.

وقيل هو عموم الإنسان من بني آدم فيكون المعنى على الأول أن آدم عليه السلام أتى عليه حين من الدهر قيل

أربعون سنة.

ذكر عن ابن عباس كان طينا ثم صلصالا حتى نفخ فيه الروح

ويكون على الثاني أن الإنسان أتى عليه حين من الدهر هو أربعون يوما نطفة ثم أربعون يوما علقة ثم أربعون يوما مضغة وكل ذلك شيء ولكنه لم يكن مذكورا أي ضعيفا وكلاهما محتمل

ولفظ الإنسان الثاني في قوله تعالى ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ اتفقوا على أنه عام في بني آدم لأنه هو الذي خلق من نطفة أمشاج أخلاط وقد رجح الفخر الرازي أن لفظ الإنسان في الموضعين بمعنى واحد وهو المعنى العام ليستقيم الأسلوب بدون مغايرة بين اللفظين إذ لا قرينة مميزة.

ولعل في السياق قرينة تدل على ما قاله وهي أن قوله تعالى ﴿ نَّبْتَلِيهِ ﴾ قطعا لبني آدم لأن آدم عليه السلام انتهى أمره بالسمع والطاعة ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [37/2] ولم يبق مجال لابتلائه إنما ذلك لبنيه والله تعالى أعلم

(378/8)

وقوله تعالى ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ فيه بيان مبدء خلق الإنسان وله أطوار في وجوده بعد النطفة علقة ثم مضغة ثم خلقا آخر وكل ذلك من لا شيء قبله

كما قال تعالى ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ [9/19].

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك عند الآية الكريمة ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ قوله تعالى ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الانسان: 3]. الهداية هنا بمعنى البيان كما في قوله تعالى ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ [17/41].

والسبيل: الطريق السوي وفيه بيان انقسام الإنسان إلى قسمين شاكر معترف بنعمة الله تعالى عليه مقابل لها بالشكر أو كافر جاحد.

وقوله: ﴿ إِمَّا شَاكِراً ﴾ يشير إلى إنعام الله تعالى على العبد وقد ذكر تعالى نعمتين عظيمتين

الأولى: إيجاد الإنسان من العدم بعد أن لم يكن شيئًا مذكورا وهذه نعمة عظمى لا كسب للعبد فيها

والثانية: الهداية بالبيان والإرشاد إلى سبيل الحق والسعادة وهذه نعمة إرسال الرسل وإنزال الكتب ولا كسب للعبد فيها أيضا.

وقد قال العلماء هناك ثلاث نعم لا كسب للعبد فيها

الأولى: وجوده بعد العدم.

الثانية: نعمة الإيمان.

الثالثة: دخول الجنة.

وقالوا: الإيجاد من العدم تفضل من الله تعالى كما قال: ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [42/49–50]، ومن جعله الله عقيما فلن

(379/8)

ينجب قط.

والثانية الإنعام بالإيمان كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [28/56].

وقد جاء في الحديث "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه" الحديث.

وكون المولود يولد بين أبوين مسلمين لا كسب له في ذلك

والثالثة الإنعام بدخول الجنة كما في الحديث "لن يدخل أحدكم الجنة بعلمه" قالوا ولا أنت يا رسول الله قال: "ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته".

وقد ذكر تعالى نعمتين صراحة وهما خلق الإنسان بعد العدم وهدايته السبيلى

والثالثة: تأتي ضمنا في ذكر النتيجة ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ﴾ [5/76] . لأن الأبرار هم الشاكرون بدليل التقسيم ﴿ شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلا وَأَغْلالاً وَسَعِيراً إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ﴾ [3/76–5] .

وقوله تعالى ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾ [3/76] تقدم أنها هداية بيان.

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان الهداية العامة والخاصة والجمع بينهما في أكثر من موضع وفي مستهل هذه السورة بيان لمبدأ الإنسان وموقفه من بعثة الرسل وهدايتهم ونتائج أعمالهم من شكر أو كفر .

وقد جاءت السنة بقراءة هذه السورة في الركعة الثانية من فجر يوم الجمعة مع قراءة سورة "السجدة" في الركعة الأولى .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إن قراءتهما معا في ذلك اليوم لمناسبة خلق آدم في يوم الجمعة ليتذكر الإنسان في هذا اليوم وهو يوم الجمعة مبدأ خلق أبيه آدم ومبدأ خلق عموم الإنسان ويتذكر مصيره ومنتهاه ليرى ما هو عليه من دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم وهل هو شاكر أو كفورا هـ ملخصا

ومضمون ذلك كله أنه رحمه الله يرى أن الحكمة في قراءة السورتين في فجر الجمعة أن يوم

الجمعة هو يوم آدم عليه السلام فيه خلق وفيه نفخ فيه الروح وفيه أسكن الجنة وفيه أهبط إلى الأرض وفيه تيب عليه وفيه تقوم الساعة.

كما قيل يوم الجمعة يوم آدم ويوم الاثنين يوم محمد صلى الله عليه وسلم أي فيه ولد وفيه أنزل عليه وفيه وصل بالمدينة في الهجرة وفيه توفي.

ولما كان يوم الجمعة يوم إيجاد الإنسان الأول ويوم أحداثه كلها إيجادا من العدم وإنعاما عليه بسكنى الجنة

وتواجده على الأرض وتلقى التوبة عليه من الله أي يوم الإنعام عليه حسا ومعنى فناسب أن يذكر الإمام بقراءته سورة السجدة في فجر يوم الجمعة لما فيها من قصة خلق آدم في قوله ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾ [32/7–9] .

وفيها قوله تعالى ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [32/13] ، مما يبث الخوف في قلوب العباد إذ لا يعلم من أي الفريقين هو فيجعله أشد حرصا على فعل الخير وأشد خوفا من الشر.

ثم حذر من نسيان يوم القيامة ﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ [32/14] .

وهكذا في الركعة الأولى يرجع المسلم إلى أصل وجوده ويستحضر قصة الإنسان الأول

وكذلك يأتي في الركعة الثاني بقصته هو منذ بدأ خلقه ﴿ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ ويذكره بالهدى الذي أنزل عليه ويرغبه في شكرانه عليه ويحذره من جحودها وكفرانها.

وقد بين له منتهاه على كلا الأمرين ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ [76/4–5] .

فإذا قرع سمعه ذلك في يوم خلقه ويوم مبعثه حيث فيه تقوم الساعة فكأنه ينظر ويشاهد أول وجوده وآخر ماله فلا يكذب بالبعث.

وقد علم مبدأ خلقه ولا يقصر في واجب وقد علم منتهاه وهذا في غاية الحكمة كما ترى

(8/381)

ومما يشهد لما ذهب إليه رحمه الله اعتبار المناسبات كما في كثير من الأمور كما في قوله تعالى ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [2/185] ، فجميع الشهور من حيث الزمن سواء ولكن بمناسبة بدء نزول القرآن في هذا الشهر جعله الله

محلا للصوم وأكرم فيه الأمة كلها بل العالم كله فتتزين فيه الجنة وتصفد فيه مردة الشياطين وتتضاعف فيه الأعمال.

وكذلك الليلة منه التي كان فيها البدء اختصها تعالى عن بقية ليالي الشهر وهي ليلة القدر جعلها الله تعالى خيرا من ألف شهر وما ذاك إلا لأنها كما قال تعالى﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ [1/97] السورة بتمامها.

مسألة

لقد أكثر الناس القول في اعتبار المناسبات في الإسلام وعدم اعتبارها ووقع فيها الإفراط والتفريط وكما قيل

كلا طرفي قصد الأمور ذميم

ومنطلقا من كلام شيخ الإسلام رحمه الله تقدم هذه النبذة في هذه المسلة وهي أنه بالتأمل في الشرع وأحداث الإسلام عامة وخاصة، أي في عموم الأمم وخصوص هذه الأمة نجد المناسبات قسمين مناسبة معتبرة عني بها الشرع لما فيها من عظة وذكرى تتجدد مع تجدد الأيام والأجيال وتعود على الفرد والجماعة بالتزود منها ومناسبة لم تعتبر إما لاقتصارها في ذاتها وعدم استطاعة الأفراد مسايرتها.

فمن الأول يوم الجمعة وتقدم طرف من خصائص هذا اليوم في سورة الجمعة وكلام شيخ الإسلام رحمه الله وقد عني بها الإسلام في الحث على القراءة المنوه عنها في صلاة الفجر وفي الحث على أدائها والحفاوة بها من اغتسال وطيب وتبكير إليها كما تقدم في سورة "الجمعة"

ولكن من غير غلو ولا إفراط فقد جاء النهي عن صوم يومها وحده دون أن يسبق بصوم قبله أو يلحق بصوم بعده كما نهى عن إفراد ليلتها بقيام والنصوص في ذلك متضافرة ثابتة فكانت مناسبة معتبرة مع اعتدال وتوجه إلى الله أي بدون إفراط أو تفريط.

(382/8)

ومنها يوم الاثنين كما أسلفنا فقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن صيامه يوم الاثنين فقال"هذا يوم ولدت فيه وعلي فيه أنزل" وكان يوم وصوله المدينة في الهجرة وكان يوم وفاته صلى الله عليه وسلم فقد احتفي به صلى الله عليه وسلم للمسببات المذكورة وكلها أحداث عظام ومناسبات جليلة

فيوم مولده صلى الله عليه وسلم وقعت مظاهر كونية ابتداء من واقعة أبرهة وإهلاك جيشه إرهاصا بولده صلى الله عليه وسلم ثم ظهور نجم بني الختان وحدثت أمه وهي حامل به فيما قيل إنها أتيت حين حملت به صلى الله عليه وسلم فقيل لها إنك قد حملت بسيد هذه الأمة فإذا وقع إلى الأرض فقولي:

أعيذه بالواحد . . . من شر كل حاسد

ثم سميه محمدا. وذكر ابن هشام أنها رأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت به قصور بصرى من أرض الشام.

وذكر ابن هشام أن حسان بن ثابت وهو غلام سمع يهوديا يصرخ بأعلى صوته على أطمة بيثرب:يا معشر يهود حتى إذا اجتمعوا إليه قالوا ويلك مالك قال طلع الليلة نجم أحمد الذي ولد به

وساق ابن كثير في تاريخه والبيهقي في خصائصه وابن هشام في سيرته أخبارا عديدة مما شهده العالم ليلة مولده صلى الله عليه وسلم نوجز منها الآتي:

عن عثمان بن أبي العاص أن أمه حضرت مولده صلى الله عليه وسلم قالت فما شيء أنظر إليه في البيت إلا نور وإني أنظر إلى النجوم تدنو حتى إني لأقول ليقعن علي

وعن أبي الحكم التنوخي قال كان المولود إذا ولد في قريش دفعوه إلى نسوة إلى الصبح يكفأن عليه برمة فأكفأن عليه صلى الله عليه وسلم برمة فانفلقت عنه ووجد مفتوح العينين شاخصا ببصره إلى السماء

وقد كان لمولده من الأحداث الكونية ما لفت أنظار العالم كله

ذكر ابن كثير منها انكفاء الأصنام على وجوهها وارتجاس إيوان كسرى وسقوط بعض شرفه وخمود نار فارس ولم تخمد قبلها وغاضت بحيرة ساوة فكان في ذلك إرهاص بتكيس الأصنام وانتشار الإسلام ودخول الفرس في الإسلام ثم كان بدء الوحي

عليه صلى الله عليه وسلم في يوم الاثنين

الحفاوة بهذا اليوم

لا شك أن العالم لم يشهد حدثين أعظم من هذين الحدثين مولد سيد الخلق وبدء إنزال أفضل الكتب فكان صلى الله عليه وسلم يحتفي بهوذلك بصيامه وهو العمل المشروع الذي يعبر به المسلم عن شعوره فيه والعبادة الخالصة التي يشكر الله تعالى بها على هاتين النعمتين العظيمتين

أما ما يفعله بعض الناس من احتفالات ومظاهر فقد حدث ذلك بعد أن لم يكن لا في القرن الأول ولا الثاني ولا الثالث وهي القرون المشهود لها بالخير وأول إحداثه في القرن الرابع

وقد افترق الناس فيه إلى فريقين فريق ينكره وينكر على من يفعله لعدم فعل السلف إياه ولا مجيء أثر في ذلك وفريق يراه جائزا لعدم النهي عنه وقد يشدد كل فريق على الآخر في هذه المسألة

ولشيخ الإسلام ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم كلام وسط في غاية الإنصاف نورد موجزه لجزالته والله الهادي إلى سواء السبيل.

قال ابن تيمية في فصل قد عقده للأعياد المحدثة فذكر أول جمعة من رجب وعيد خم في الثامن عشر من ذي الحجة حيث خطب صلى الله عليه وسلم وحث على اتباع السنة وبأهل بيته ثم أتى إلى عمل المولد فقال:

وكذلك ما يحدثه بعض الناس إما مضاهاة للنصارى في ميلاد عيسى عليه السلام وإما محبة للنبي صلى الله عليه وسلم وتعظيما له والله قد يثيبهم على هذه المحبة والاجتهاد لا على البدع من اتخاذ مولد النبي صلى الله عليه وسلم عيدا مع اختلاف الناس في مولده أي في ربيع أو في رمضان فإن هذا لم يفعله السلف رضي الله عنهم مع قيام المقتضى له وعدم المانع منه

ولو كان هذا خيرا محضا أو راجحا لكان السلف رضي الله عنهم أحق به منا فإنهم كانوا أشد محبة لرسول

الله صلى الله عليه وسلم وتعظيما له منا وهم على الخير أحرص

وإنما كمال محبته وتعظيمه في متابعته وطاعته واتباع أمره وإحياء سنته باطنا

(384/8)

وظاهرا ونشر ما بعث به والجهاد على ذلك بالقلب واليد واللسان فإن هذه طريقة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان وأكثر هؤلاء الذين تراهم حرصاء على أمثال هذه البدع مع ما لهم فيها من حسن القصد والاجتهاد الذي يرجى لهم به المثوبة تجدونهم فاترين في أمر الرسول عما أمروا بالنشاط فيه وإنما هم بمنزلة من يحلي المصحف ولا يقرأ فيه ولا يتبعه وبمنزلة من يزخرف المسجد ولا يصلي فيه أو يصلي فيه قليلا وبمنزلة من يتخذ المسابيح والسجاجيد المزخرفة وأمثال هذه الزخارف الظاهرة التي لم تشرع ويصحبها من الرياء والكبر والاشتغال عن المشروع ما يفسد حال صاحبها

واعلم أن من الأعمال ما يكون فيه خير لاشتماله على أنواع من المشروع

وفيه أيضا من بدعة وغيرها ثم رسم طريق العمل السليم للفرد في نفسه والداعية مع غيره فقال فعليك هنا بأدبين أحدهما أن يكون حرصك على التمسك بالسنة باطنا وظاهرا

الثاني أن تدعو الناس إلى السنة بحسب الإمكان فإذا رأيت من يعمل هذا ولا يتركه إلا إلى شر منه فلا تدعو إلى ترك منكر بفعل ما هو أنكر منه أو بترك واجب أو مندوب تركه أضمر من فعل ذلك المكروه.

ولكن إذا كان في البدعة نوع من الخير فعوض عنه من الخير المشروع بحسب الإمكان إذ النفوس لا تترك شيئًا إلا بشيء.

ولا ينبغي لأحد أن يترك خيرا إلا إلى مثله أو إلى خير منه فإنه كما أن الفاعلين لهذه البدع معيبون قد أتوا مكروها فالتاركون أيضا للسنن مذمومون.

وكثير من المنكرين لبدع العبادات تجدهم مقصرين في فعل السنن من ذلك أو الأمر به

ولعل حال كثير منهم يكون أسوأ من حال من يأتي بتلك العادات المشتملة على نوع من الكراهة بل الدين هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فتعظيم المولد واتخاذه موسما قد يفعله بعض الناس ويكون له فيه أجر عظيم لحسن قصده وتعظيمه لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما قدمته لك أنه يحسن من بعض الناس ما يستقبح من المؤمن المسدد.

(385/8)

ولهذا قيل لأحمد: إن بعض الأمراء ينفق على مصحف ألف دينار ونحو ذلك فقال دعه فهذا أفضل ما أنفق فيه الذهب أو كما قال مع أن مذهبه أن زخرفة المصاحف مكروهة فمثل هؤلاء إن لم يفعلوا هذا وإلا اعتاضوا عنه الفساد الذي لا صلاح فيه مثل أن ينفقها في كتب فجور ككتب الأسمار والأصفار أو حكمة فارس والروم.

ومراتب الأعمال ثلاث إحداها العمل الصالح المشروع الذي لا كراهة فيه

والثانية العمل الصالح من بعض وجوهه أو أكثرها إما لحسن القصد أو لاشتماله مع ذلك على أنواع من المشروع.

والثالثة ما ليس فيه صلاح أصلا.

فأما الأولى فهي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي أعمال السابقين الأولين

وأما الثانية فهي كثيرة جدا في طرق المتأخرين من المنتسبين إلى علم أو عبادة ومن العامة أيضا وهؤلاء خير مما لا يعمل عملا صالحا مشروعا ولا غير مشروع ومع هذا فالمؤمن يعرف المعروف وينكر المنكر ولا يمنعه من ذلك موافقة بعض المنافقين له في ظاهر الأمر بذلك المعروف والنهي عن ذلك المنكر ولا مخالفة بعض علماء المؤمنين فهذه الأمور وأمثالها مما ينبغي معرفتها والعمل بها اهـ

لقد عالج رحمه الله هذه المسألة بحكمة الداعي وسياسة الدعوة مما لا يدع مجالا للكلام فيها

ولكن قد حدث بعده رحمه الله أمور لم تكن من قبل ابتلى بها العالم الغربي وغزا بها العالم الشرقي ولبس بها على المسلمين وهي تلك المبادىء الهدامة والغزو الفكري وإبراز شخصيات ذات مبادىء اقتصادية أو فلسفي ارتفع شأنها في قومهم ونفثت سمومهم إلى بني جلدتنا وصاروا يقيمون لهم الذكريات ويقدمون عنهم الدراسات جهلا أو تضليلا فقام من المسلمين من يقول

نعلم أن المولد ليس سنة نبوية ولا طريقا سلفيا ولا عمل القرون للشهود لها بالخير وإنما نريد مقابلة الفكرة بالفكرة والذكريات بالذكرى لنجمع شباب المسلمين

(386/8)

على سيرة سيد المرسلين ويكون ذلك من باب يحدث للناس من الأحكام بقدر ما أحدثت من البدع إلى آخره

وهنا لا ينبغي الإسراع في الجواب ولكن انطلاقا من كلام شيخ الإسلام المتقدم يمكن أن يقال إن كان المراد إحياء الذكرى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الله تعالى قد تولى ذلك بأوسع نطاق حيث قرن ذكره صلى الله عليه وسلم مع ذكره تعالى في الشهادتين مع كل أذان على كل منارة من كل مسجد وفي كل إقامة لأداء صلاة وفي كل تشهد في فرض أو نفل مما يزيد على الثلاثين مرة جهرا وسرا جهرا يملأ الأفق وسرا يملأ القلب والحس ثم تأتي الذكرى العملية في كل صغيرة وكبيرة في المأكل باليمين لأنه السنة وفي الملبس في التيامن لأنه السنة وفي المضجع على الشق الأيمن لأنه السنة وفي إفشاء السلام وفي كل حركات العبد وسكناته إذا راعى فيها أنها السنة عن النبي صلى الله عليه وسلم

وإن كان المراد التعبير عن المحبة والمحبة هي عنوان الإيمان الحقيقي كما قال صلى الله عليه وسلم "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده وماله والناس أجمعين"

فإن حقيقة المحبة طاعة من تحب وفعل ما يحبه وترك ما لا يرضاه أو لا يحبه ومن هذا يمكن أن يقال إن ما يلابس عمل المولد من لهو ولعب واختلاط غير مشروع وأعمال في أشكال لا أصل لها يجب تركه وتنزيه التعبير عن

محبته صلى الله عليه وسلم عما لا يرضاه صلى الله عليه وسلم.

وقد كان صلى الله عليه وسلم يكرم هذا اليوم بالصوم وإن كان المراد مقابلة فكرة بفكرة فالواقع أنه لا مناسبة بين السببين ولا موجب للربط بين الجانبين لبعد ما بينهما كبعد الحق عن الباطل والظلمة عن النور ومع ذلك فإن كان ولا بد فلا موجب للتقييد بزمن معين بل العام كله لإقامة الدراسات في السيرة وتعريف المسلمين الناشئة منهم والعوام وغيرهم بما تريده من دراسة للسيرة النبوية

وختاما فبدلا من الموقف السلبي عند التشديد في النكير أن يكون عملا إيجابيا في حكمة وتوجيه لما هو أولى بحسب المستطاع كما قال شيخ الإسلام رحمه الله وبالله تعالى التوفيق.

ومن المناسبات ليلة القدر لبدء نزول القرآن فيها لقوله تعالى﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ

(387/8)

الْقَدْرِ ﴾ [1/97]، ثم بين تعالى مقدارها بقوله﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ [3/97]، وبين خواصها بقوله ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ [97/4–5].

الحفاوة بها

لقد بين صلى الله عليه وسلم بقوله "التمسوها في العشر الأواخر وفي الوتر من العشر الأواخر" وكان صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر كلها التماسا لتلك الليلة فكان يحييها قائما في معتكفه كما جاء في الحديث "وإذا جاء العشر شد مئزره وطوى فراشه وأيقظ أهله" فلم يكن بمرح ولا بلعب ولا حتى نوم بل اجتهاد في العبادة وكذلك شهر رمضان بكامله لكونه أنزل فيه القرآن أيضا كما تقدمت الإشارة إليه فكان تكريمه بصوم نهاره وقيام ليله1 لا بالملاهي واللعب والحفلات كما له بعض صار بعد الناس وسائل ترفيه خاصة فيعكس فيه القصد ويخالف المشروع.

ومن المناسبات يوم عاشوراء لقد كان له تاريخ قديم وكانت العرب تعظمه في الجاهلية وتكسو فيه الكعبة ولما قدم صلى الله عليه وسلم المدينة وجد اليهود يصومونه فقال لهم "لم تصومونه" ؟ فقالوا يوما نجى الله فيه موسى من فرعون فصامه شكرا لله فصمناه فقال صلى الله عليه وسلم"نحن أحق بموسى منكم" فصامه وأمر الناس بصيامه إنها مناسبة عظمى نجاة نبي الله موسى من عدو الله فرعون نصرة الحق على الباطل ونصر جند الله وإهلاك جند الشيطان.

وهذا بحق مناسبة يهتم لها كل مسلم ولذا قال صلى الله عليه وسلم"نحن أحق بموسى منكم نحن معشر الأنبياء أبناء علات ديننا واحد" .

وقد كان صيامه فرضا حتى نسخ بفرض رمضان وهكذا مع عظم مناسبته من إعلاء كلمة الله ونصرة رسوله كان ابتهاج موسى عليه السلام به في صيامه شكرا لله.

وكذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا هو الطريق السليم والسنة النبوية الكريمة لا ما يحدثه بعض العوام والجهال من مظاهر وأحداث لا أصل لها ثم يأتي العمل الأعم والمناسبات

---

1 بالصلاة وتلاوة القرءان والذكر والتضرع إلى الله سبحانه وتعالى

المتعددة في مناسك الحج منها الهرولة في الطواف لقد كانت عن مؤامرة قريش في عزمها على الغدر بالمسلمين في عمرة القضية فأمرهم صلى الله عليه وسلم أن يظهروا النشاط في الطواف وذلك حينما جاء الشيطان لقريش وقال لهم: هؤلاء المسلمون مع محمد صلى الله عليه وسلم جاءوا إليكم وقد أنهكتهم حمى يثرب فلو ملتم عليهم لاستأصلتموهم فأخبر جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان الموقف خطيرا جدا وحرجا حيث لا مدد للمسلمين ولا سبيل للانسحاب ولا بد لهم من إتمام العمرة

فكان التصرف الحكيم أن يعكسوا على المشركين نظريتهم ويأتونهم من الباب الذي أتوا منه فقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه "أروهم اليوم منكم قوة" فهرولوا في الطواف وأظهروا قوة ونشاطا مما أدهش المشركين حتى قالوا والله ما هؤلاء بإنس إنهم لكالجن وفوتوا عليهم الفرصة بذلك وسلم المسلمون

فهو أشبه بموقف موسى من فرعون فنجى الله رسوله صلى الله عليه وسلم من غدر قريش فكان هذا العمل مخلدا ومشروعا في كل طواف قدوم حتى اليوم مع زوال السبب حيث هرول المسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع بعد فتح مكة بسنتين

قال العلماء بقي هذا العمل تأسيا برسول الله صلى الله عليه وسلم أولا وتذكروا ولهذا الموقف وما لقيه المسلمون في بادىء الدعوة.

وجاء السعي والهرولة فيه لما فيه من تجديد اليقين بالله حيث تركت هاجر وهي من سادة المتوكلين على الله والتي قالت لإبراهيم اذهب فلن يضيعنا الله تركت حتى سعت إلى نهاية العدد كما يقول علماء الفرائض وهي سبعة.

إذ كل عدد بعده تكرار لمكرر قبله كما قالوا في عدد السماوات والأرض وحصى الجمار وأيام الأسبوع إلخ وذلك لتصل إلى أقصى الجهد وتنقطع أطماعها من غوث يأتيها من الأرض فتتجه بقوة اليقين وشدة الضراعة إلى السماء وتتوجه بكليتها وإحساسها بقلبها وقالبها إلى الله فيأتيها الغوث الأعظم سقيا لها وللمسلمين من بعدها .

فكان ذلك درسا عمليا ظل إحياؤه تجديدا له

وهكذا النحر وقصة الفداء لما كان فيه درس الأمة لأفرادها وجماعتها في أسرة

كاملة والد ووالدة وولد كل يسلم قياده لأمر الله وإلى أقصى حد التضحيةحينما قال إبراهيم لإسماعيل ما قصه تعالى علينا ﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ [102/37] .

إنه حدث خطير وأي رأي للولد في ذبح نفسه ولكنه التمهيد لأمر الله فكان موقف الولد لا يقل إكبارا عن موقف الوالد: ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [102/37] ولم يكن ذلك عرضا وقبولا فحسب بل جاء وقت التنفيذ إلى نقطة الصفر كما يقال

والكل ماض في سبيل التنفيذ ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [103/37]، يا له من موقف يعجز كل بيان عن تصويره ويئط كل قلم عن تفسيره ويثقل كل لسان عن تعبيره شيخ في كبر سنه يحمل سكينا بيده ويتل ولده وضناه بالأخرى كيف قويت يده على حمل السكين وقويت عيناه على رؤيتها في يده وكيف طاوعته يده الأخرى على تل ولده على جبينه ؟

إنها قوة الإيمان وسنة الالتزام وها هو الولد مع أبيه طوع يده يتصبر لأمر الله ويستسلم لقضاء الله﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [102/37]، والموقف الآن والد بيده السكين وولد ملقى على الجبين ولم يبق إلا توقف الأنفاس للحظة التنفيذ ولكن رحمة الله أوسع وفرجه من عنده أقرب﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [37/104-105] .

فكانت مناسبة عظيمة وفائدتها كبيرة خلدها الإسلام في الهدى والضحية

وفي رمي الجمار إلى آخره وهكذا كلها في مناسك وعبادة وقربة إلى الله تعالى فيتجرد وانقطاع ودوام ذكر لله تعالى.

وهناك أحداث جسام ومناسبات عظام لا تقل أهمية عن سابقاتها ولكن لم يجعل لها الإسلام أي ذكرى كما في صلح الحديبية.

لقد كان هذا الصلح من أعظم المناسبات في الإسلام إذ كان فيه انتزاع اعتراف قريش بالكيان الإسلامي ماثلا في الصلح والعهد الذي وثق بين الطرفين وقد سماه الله فتحا كما قال تعالى﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾ [27/48] .

ونزلت سورة الفتح في عودته صلى الله عليه وسلم من صلح الحديبية

وكذلك يوم بدر كان يوم الفرقان فرق الله فيه بين الحق والباطل ونصر فيه المسلمين مع قلتهم على المشركين مع كثرتهم.

وكذلك يوم فتح مكة وتحطيم الأصنام والقضاء نهائيا على دولة الشرك في البلاد العربية ومن قبل ذلك ليلة خروجه صلى الله عليه وسلم من مكة ونزوله في الغار إذ كان فيها نجاته صلى الله عليه وسلم من فتك المشركين كما قال الصديق وهما في الطريق إلى الغار حينما كان يسير أحيانا أمام الرسول صلى الله عليه وسلم وأحيانا خلفه فسأله صلى الله عليه وسلم فقال أتذكر الرصد فأكون أمامك وأتذكر الطلب فأكون خلفك فقال صلى الله عليه وسلم "أتريد لو كان شيء يكون فيك يا أبا بكر" ؟ فقلت نعم فداك أبي وأمي يا رسول الله فإني إن أهلك أهلك وحدي وإن تصب أنت يا رسول الله تصب الدعوى معك

وكذلك وصوله صلى الله عليه وسلم المدينة بداية حياة جديدة وبناء كيان أمة جديدة وكل ذلك لم يجعل الإسلام لذلك كله عملا خاصا به والناس في إبانها تأخذهم عاطفة الذكرى ويجرهم حنين الماضي وتتراءى لهم صفحات التاريخ فهل يقفون صما بكما أم ينطقون بكلمة تعبير وشكر لله إنه إن يكن من شيء فلا يصح بحال من الأحوال أن يكون من اللهو واللعب والمنكر وما لا يرضى الله ولا رسوله

إنه إن يكن من شيء فلا يصح إلا من المنهج الذي رسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم في مثل تلك المناسبات من عبادة في صيام أو صدقة أو نسك ولا يمكن أن يقال فيها بما يقال في المصالح المرسلة حيث كانت وكان عهد التشريع ولم يشرع في خصوصها شيء وهل الأمر فيها كالأمر في المولد على ما قدمه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وتكون ضمن عموم قوله تعالى ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [51/55] وضمن قوله تعالى ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [59/2]، رأي بقصص الماضين.

ونحن أيضا نقص على أجيالنا بعد هذه القرون أهم أحداث الإسلام لاستخلاص العظة والعبرة لا ؟

وهذا ما يتيسر إيراده بإيجاز في هذه المسألة وبالله تعالى التوفيق

تنبيه

مما يعتبر ذا صلة بهذا المبحث في الجملة ما نقله ابن كثير في التفسير عند كلامه على

(391/8)

قوله تعالى ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [3/5] .

قال عندها وقال الإمام أحمد حدثنا جعفر بن عوف حدثنا أبو العميس عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب فقال يا أمير المؤمنين إنكم تقرؤون آية في كتابكم لو علينا يا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدا .

قال: وأي آية ؟ قال قوله ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ فقال عمر والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم والساعة التي نزلت فيها على رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية عرفة في يوم جمعة .

ورواه البخاري عن الحسن بن الصباح عن جعفر بن عون به ورواه أيضا مسلم والترمذي والنسائي أيضا من طرق عن قيس بن مسلم به ولفظ البخاري عند تفسير هذه الآية من طريق سفيان الثوري عن قيس عن طارق قال قالت اليهود لعمر إنكم تقرؤون آية لو نزلت فينا لاتخذناها عيدا فقال عمر إني لأعلم حين أنزلت وأين أنزلت وأين رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزلت يوم عرفة وأنا والله بعرفة

وساق عن ابن جرير قال كعب لو أن غير هذه الأمة نزلت عليهم هذه الآية لنظروا اليوم الذي أنزلت فيه عليهم فاتخذوه عيدا يجتمعون فيه.

فقال عمر أي آية يا كعب فقال ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ . فأجابه عمر بما أجاب به سابقا وقال في يوم جمعة ويوم عرفة وكلاهما بحمد الله لنا عيد.

ونقل عن ابن جرير عن ابن عباس قرأ الآية فقال يهودي لو نزلت هذه الآية علينا لاتخذنا يومها عيدا فقال ابن عباس فإنها نزلت في يوم عيدين اثنين يوم عيد ويوم جمعة.

ومحل الإيراد أن عمر سمع اليهود يشيد بيوم نزولها فقد أقر اليهودي على ذلك ولم ينكر عليه ولكن أخبره بالواقع وهو أن يوم نزولها عيد بنفسه بدون أن نتخذه نحن

وكذلك ابن عباس أقر اليهودي على إخباره وتطلعه واقتراحه فلم ينكر عليه كما لم ينكر عمر مما يشعر أنه لو يكن نزولها يوم عيد لكان من المحتمل أن تتخذ عيدا ولكنه صادف عيدا أو عيدين فهو تكريم لليوم بمناسبة ما نزل فيه من إكمال الدين

(392/8)

وإتمام النعمة.

قوله تعالى ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [2/76]، الأمشاج: الأخلاط كما قال تعالى ﴿ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [7/86] .

قوله تعالى ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الانسان: 3] .

بين تعالى أنه هدى الإنسان السبيل وهو بعد الهداية إما شاكرا وإما كفورا

وهذه الهداية هداية بيان وإرشاد كما في قوله تعالى ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [17/41]، كما أن الهداية الحقيقية بخلق التوفيق فضلا من الله على من شاء كما تقدم عند قوله تعالى ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [56/28] .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان الجمع بين الآيتين ومعنى الهداية العامة والخاصة

قوله تعالى ﴿ سَلاسِلا وَأَغْلالاً﴾ [الانسان: 4]

بين تعالى نوع هذه السلاسل بذرعها في قوله تعالى ﴿ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً ﴾ [32/69] .

قوله تعالى: ﴿ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ ﴾ .

مادة يشرب تتعدى بنفسها فيقال يشرب كأسا بدون مجيء من ومن للتبعيض وللابتداء فقيل هي هنا للابتداء وأن الفعل مضمن معنى فعل آخر وهو يتنعمون ويرتوون كما قالوا في﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [6/76] . إذ الباء تكون للإرادة ولا إرادة هنا فهم يتنعمون بها

والذي يظهر أن ﴿ من ﴾ للتبعيض فعلا وأن شرب أهل الجنة على سبيل الترفه والتلذذ وهي عادة المترفين المنعمين يشربون بعض الكأس لا كله

وقد دل على ذلك أنهم لا يشربون عن ظما كما في قوله تعالى لآدم﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى﴾ [119/20]، وسيأتي تعدية

(393/8)

يسقون بنفسها إلى الكأس ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً ﴾ [17/76]، ويأتي قوله تعالى: ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ [21/76] .

ويؤيد هذا اتفاقهم على التضمين في ﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ ، فهو هنا واضح.

وهناك التبعيض ظاهر.

قوله تعالى ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ . تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه مبحث النذر وافيا عند قوله تعالى ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ [29/22] في سورة "الحج" .

قوله تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾ [الانسان: 8] .

اختلف في مرجع الضمير في ﴿ عَلَى حُبِّهِ ﴾ ، هل هو راجع على الطعام أم على الله تعالى أي ويطعمون الطعام على حب الطعام لقلته عندهم وحاجتهم إليه أم على حب الله رجاء ثواب الله ؟

وقد رجح ابن كثير المعنى الأول وهو اختيار ابن جرير وساق الشواهد على ذلك كقوله﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَى

حُبِّهِ﴾ [177/2]، وقوله: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [92/3].

والواقع أن الاستدلال الأول فيه ما في هذه الآية وللتي أقرب دليلا وأصرح قوله تعالى ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [9/59].

وفي الآية التي بعدها في هذه السورة قرينة تشهد لرجوعه للطعام على ما تقدم وهي قوله تعالى بعدها ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً﴾ [9/76]، لأنها في معنى حب الله مما يجعل الأولى للطعام وهذه لله والتأسيس أولى من التأكيد فيكون السياق ويطعمون الطعام على حاجتهم إياه ولوجه الله تعالى والله تعالى أعلم.

مسألة

في قوله تعالى ﴿مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾ جمع أصناف ثلاثة الأول والثاني من المسلمين غالبا أما الثالث وهو الأسير فلم يكن لدى المسلمين أسرى إلا من الكفار وإن

(394/8)

كانت السورة مكية إلا أن العبرة بعموم اللفظ كما هو معلوم

وقد نقل ابن كثير عن ابن عباس أنها في الفرس من المشركين وساق قصة أسارى بدو

واختار ابن جرير أن الأسرى هم الخدم والذي يظهر والله تعالى أعلم أن الأسارى هنا على معناها الحقيقي لأن الخدم لا يخرجون عن القسمين المتقدمين اليتيم والمسكين وهؤلاء الأسارى بعد وقوعهم في الأسر لم يبق لهم حول ولا طول فلم يبق إلا الإحسان إليهم

وهذا من محاسن الإسلام وسمو تعاليمه وإن العالم كله اليوم لفي حاجة إلى معرفة هذه التعاليم السماوية السامية حتى مع أعدائه وقد تقدم شيء من ذلك عند الكلام على قوله تعالى ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ [8/60]، وهؤلاء بعد الأسر ليسوا مقاتلين

قوله تعالى ﴿ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً ﴾ [الإنسان: 11] .

تقدم معنى قوله تعالى ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴾ [22/75]، وهنا جمع لهم بين النضرة والسرور والذي يظهر والله تعالى أعلم أن النضرة لما يرون من النعيم والسرور لما ينالونه من النظر إلى وجه الله الكريم كما تقدم ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [22/75–23]، فيكون السرور نتيجة النظر إلى وجه الله الكريم والله تعالى أعلم.

قوله تعالى ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً ﴾ [الإنسان: 15–15].

فيه التنصيص على أواني الفضة في الجنة

وجاء بصحاف من ذهب وأكواب وهي محرمة في الدنيا كما هو معلوم وقد بين تعالى أن الذي يطوف عليهم هم ﴿ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً ﴾ [19/76] .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورة الطور عند قوله ﴿ وَيَطُوفُ

(395/8)

عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ ﴾ [24/52]، والقوارير جمع قارورة والعرب تطلق القارورة على إناء الزجاج خاصة ولكن الآية صريحة في أنها قوارير من فضة مما يدل على صحة إطلاق القارورة على غير آنية الزجاج كالفضة مثلا.

قال صاحب اللسان: والقارورة: ما قر فيه الشراب وغيره وقيل لا يكون إلا من الزجاج خاصة

وقوله تعالى ﴿ قَوَارِيرَا قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ ﴾ ، قال بعض أهل العلم معناه أواني زجاج في بياض الفضة وصفاء القوارير قال ابن سيده وهذا أحسن ا هـ

وقال ابن شدياق في معجم مقاييس اللغة إن مادة قر القاف والراء أصلان صحيحان يدل أحدهما على برد

والآخر على تمكن وذكر من التمكن استقر ومستقر كما ذكر صاحب اللسان كثيرا من ذلك قلل ومن الباب القر بضم الراء صب الماء في الشيء يقال قررت الماء والقر صب الكلام في الأذن وذكر منه الإقرار ضد الجحود لاستقرار الحق به.

ثم ذكر مسألة إثبات اللغة بالسماع أو بالقياس فقال وهذه مقاييس صحيحة فإما أن تتعدى وتحمل الكلام كما بلغنا عن بعضهم أنه قال سميت القارورة لاستقرار الماء فيها وغيره فليس هذا من مذهبنا ، وقد قلنا إن كلام العرب ضربان منه ما هو قياس وقد ذكرناه ومنه ما وضع وضعا

والمسألة من مباحث الأصول في الألفاظ هل هي بوضع لا يقاس عليه وتبقى كما وضعتها العرب أو أنها توضع بالقياس وفائدة الخلاف هل المسكرات كلها مثلا يتناولها مسمى الخمر بالوضع فتكون محرمة بنص ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ ﴾ الآية [5/90] ، أو أنها محرمة قياسا على الخمر بجامع علة الإسكار وعليه فإذا كانت اللغة تساعد على الإطلاق قياسا فهو أقوى في الحكم بأن يأتي الحكم بالنص لا بالقياس لبحج العلة ولعل التحقيق في هذه المسألة ما قاله علماء الوضع من أن اللغات منها توقيفي ومنها قياسي

وفي قوله تعالى ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً ﴾ [76/16] ، توجيه إلى حسن الصنع في التسوية في التقدير والمقاسات

(396/8)

قوله تعالى ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً ﴾ [الانسان: 17] .

وقبلها قال تعالى ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ﴾ [76/5]، فقد قيل: هما معا فهي في برد الكافور وطيب الزنجبيل.

قوله تعالى ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ [الانسان: 21] .

وهذا وصف شراب الجنة والشراب هنا هو الخمر وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان هذا المفهوم من أن شراب خمر الدنيا ليس طهورا لأن أحوال الجنة لها أحكامها الخاصة، ويشهد لهذا ما تقدم في قوله تعالى

﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ﴾ [15/76]، مع أن أواني الفضة محرمة في الدنيا لحديث"الذي يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم" ومع ذلك فإن أهل الجنة ينعمون بها.

وكذلك ينعمون بخمر الجنة وكل أوصافها في الجنة عكس أوصافها في الدنيا كما تقدم لا يصدعون عنها ولا ينزفون كما أوضحه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عند قوله تعالى﴿ لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنْزِفُونَ ﴾ [19/56] في سورة "الواقعة" .

قوله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً﴾ [الانسان: 23] .

﴿ نَزَّلْنَا ﴾ و ﴿ تَنْزِيلاً ﴾ يدل على التكرار بخلاف ﴿ أنزلنا ﴾ ، وقد بين تعالى أنه أنزل القرآن في ليلة القدر في سورة القدر ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ [1/97]، وهنا إثبات التنزيل.

وقد بين تعالى كيفية التنزيل في قوله تعالى﴿ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾ [106/17] .

وقد بين تعالى الحكمة في هذا التفريق على مكث في قوله تعالى﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ [32/25]، وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان هذه المسألة في سورة الفرقان والإحالة فيها على بيان سابق.

قوله تعالى ﴿ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾ [الانسان: 26] .

تقدم بيان مقدار المطلوب قيامه من الليل في أول سورة"المزمل" في قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ الآية[73/1-4] . ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ .

الأسر: الربط بقوة ماخوذ من الأسر هو جلد البعير رطبا وهو القد وسمي الأسير أسيرا لشد قيده بقوة بجلد

البعير الرطب وهو هنا تقويه بشد ربط الأعضاء المحركة في الإنسان في مفاصله بالعصب وهو كناية عن الاتقان والقوة في الخلق.

وقد بين تعالى ذلك في قوله ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [4/95]، وقوله ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ [7/32].

قوله تعالى ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ [المزمل: 19] السبيل هنا منكر ولكنه معين بقوله ﴿ إِلَى رَبِّهِ ﴾ ، لأن السبيل إلى ربه هو السبيل المستقيم

كما قال تعالى ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [151/6]، وفي النهاية قال ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [153/6]، وهو الصراط المستقيم الذي دعا إليه صلى الله عليه وسلم

كما في قوله تعالى ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [52/42–53] وهو القرآن الكريم كما تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في قوله تعالى ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [6/1]، وقد بين تعالى أنه القرآن كله في قوله تعالى ﴿ الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [2/1–2] بعد قوله ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ، كأنه قال الهادي إلى الصراط المستقيم المنوه عنه في الفاتحة هو القرآن الكريم ﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [2/2–3] إلى آخر الصفات فيكون السبيل هنا معلوما.

وقوله تعالى قبلها ﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ [29/76] مشعر بأن السبيل عن طريق التذكر فيها والاتعاظ بها.

وقوله ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ ، علق اتخاذ السبيل إلى الله على مشيئة من

(398/8)

شاء وقيدها ربط مشيئة العبد بمشيئة الله تعالى في قوله ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [30/76]، وهذه مسألة القدر.

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بحثها بحثا وافيا عند قوله تعالى﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [99/10] في يونس وأحال على النساء إلا أن قوله تعالى في التذييل على الآية الكريمة بقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ [11/4] أن كل ما يقع في هذا الكون من سلوك وأعمال أنه بعلم من الله وحكمة.

(399/8)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المرسلات

قوله تعالى: ﴿ وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً عُذْراً أَوْ نُذْراً﴾ [المرسلات: 1–6].

يقسم تعالى بهذه المسميات واختلف في﴿ وَالْمُرْسَلاتِ﴾ و ﴿ الْعَاصِفَاتِ﴾ ﴿ وَالنَّاشِرَاتِ﴾ .

فقيل: هي الرياح وقيل الملائكة أو الرسل و﴿ عُرْفاً﴾ أي متتالية كعرف الفرس واختار كونها الرياح ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وقتادة واختار كونها الملائكة أبو صالح عن أبي هريرة والربيع بن أنس وعن أبي صالح أنها الرسل قاله ابن كثير واختار الأول وقال توقف ابن جرير والواقع أن كلام ابن جرير يفيد أنه لا مانع عنده من إرادة الجميع لأن المعنى محتمل ولا مانع عنده

واستظهر ابن كثير أنها الرياح لقوله تعالى ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ [22/15]، وقوله ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [57/7].

وهذا هو الذي اختاره الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في مذكرة الإملاء أما﴿ الْفَارِقَاتِ﴾ فقيل: الملائكة، وقيل آيات القرآن ورجح الشيخ الأول وأما ﴿ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً عُذْراً أَوْ نُذْراً﴾ . فقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيانها في سورة الصافات عند قوله تعالى﴿ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً﴾ [3/37]

وفي مذكرة الإملاء قوله ﴿عُذْراً﴾ : اسم مصدر بمعنى الإعذار ومعناه قطع العذر .

ومنه المثل: من أعذر فقد أنذر وهو مفعول لأجله والنذر اسم مصدر بمعنى الإنذار وهو مفعول لأجله أيضا والإنذار الإعلام المقترن بتهديد و﴿أو﴾ في قوله:

(400/8)

﴿أَوْ نُذْراً﴾ ، بمعنى الواو أي لأجل الإعذار والإنذار ومجيء ﴿أو﴾ بمعنى الواو كمجيء ذلك في قول عمرو بن معد يكرب

قوم إذا سمعوا الصريخ رأيتهم

. . . ما بين ملجم مهره أو سافع

أي: وسافع. قوله تعالى ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ [المرسلات: 7] .

هو المقسم عليه والواقع أن نبين كل قسم ومقسم عليه مناسبة ارتباط في الجملة غالبا والله تعالى يقسم بما شاء على ما شاء لأن المقسم به من مخلوقاته فاختيار ما يقسم به هنا أو هناك غالبا يكون لنوع مناسبة ولو تأملناه هنا لوجدنا المقسم عليه هو يوم القيامة وهم مكذبون به فأقسم لهم بما فيه إثبات القدرة عليه فالرياح عرفا تأتي بالسحاب تنشره ثم يأتي المطر ويحيي الله الأرض بعد موتها .

وهذا من أدلة القدرة على البعث والعاصفات منها بشدة وقد تقتلع الأشجار وتهدم البيوت مما لا طاقة لهم بها ولا قدرة لهم عليها وما فيها من الدلالة على الإهلاك والتدمير وكلاهما دال على القدرة على البعث

ثم تأتي الملائكة بالبيان والتوجيه والإعذار والإنذاذ ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ ، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ [المرسلات: 8-10] .

كلها تغييرات كونية من آثار ذلك اليوم الموعود وطمس النجوم ذهاب نورها كقوله ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ [2/81] .

﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾ ، أي تشققت وتفطرت كما في قوله تعالى ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ [1/84] ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [1/82] ونسف الجبال تقدم بيانه في عدة محال وما يكون لها من عدة أطوار من دك وتفتيت وبث وتسيير كالسحاب ثم كالسراب وتقدم في سورة ق عند قوله تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ﴾ [6/50] .

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ [المرسلات: 11] .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيانه في سورة الواقعة عند قوله تعالى

(401/8)

﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [56/49–50] .

قوله تعالى ﴿ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ [المرسلات: 13] .

يوم الفصل هو يوم القيامة يفصل فيه بين الخلائق بين الظالم والمظلوم والمحق والمبطل والدائن والمدين كما بينه تعالى بقوله ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ [38/77]، وكقوله ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴾ [103/11] .

قوله تعالى ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: 15] .

وعيد شديد من الله تعالى للمكذبين وقد تقدم معنى ذلك للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عند آخر سورة الذاريات عند قوله تعالى ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [51/60] .

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [المرسلات: 22] .

الماء المهين هو النطفة الأمشاج والقرار المكين هو الرحم وقد مكنه الله وصانه حتى من نسمة الهواء والآيات الباهرات في هذا القرار فوق أن توصف وقد بين تعالى أنه الرحم بقوله تعالى ﴿ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [22/5]، والقدر المعلوم هو مدة الحمل إلى السقط أو الولادة

وتقدم للشيخ التنويه عن ذلك في أول سورة الحج وأنها أقدار مختلفة وآجال مسماة

قوله تعالى ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات: 23] .

فيه التمدح بالقدرة على ذلك وهو حق ولا يقدر عليه إلا الله كما جاء في قوله ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ [59/56] .

وقد بينه تعالى في أول سورة "الحج"، ثم ﴿ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [5/22] إلى آخر السياق.

(402/8)

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ [المرسلات: 26] .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورة طه عند قوله تعالى﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [53/20]، والكفات الموضع الذي يكفتون فيه والكفت الضم أحياء على ظهرها وأمواتا في بطونها كما في قوله ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [55/20]، وقد جمع المعنيين في قوله تعالى﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [17/71–18] .

قوله تعالى ﴿ انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [المرسلات: 29] .

بينه بعد بقوله تعالى﴿ انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ [30/77–33]، أي وهي جهنم.

وقد بين تعالى في موضع آخر أنهم يدفعون إليها دفعا في قوله تعالى﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [13/52] .

قوله تعالى ﴿ هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ﴾ [المرسلات: 35] .

نص على أنهم لا ينطقون في ذلك اليوم مع أنهم ينطقون ويجيبون على ما يسألون كما في قوله تعالى﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [24/37] .

وقوله ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾ [30/68] .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الكلام على هذه المسألة في سورة النمل عند قوله تعالى﴿ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ﴾ [85/27] .

وبين وجه الجمع بالإحالة على دفع إيهام الاضطراب عند سورة"المرسلات" هذه وأن ذلك في منازل وحالات .

قوله تعالى ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المرسلات: 43] .

فيه النص على أن عملهم في الدنيا سبب في تمتعهم بنعيم الجنة في الآخرة .

ومثله قوله تعالى ﴿ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [43/7] .

(403/8)

وجاء في الحديث: "لن يدخل أحدكم الجنة بعملة" ولا معارضة بين النصين إذ الدخول بفضل من الله وبعد الدخول يكون التوارث وتكون الدرجات ويكون التمتع بسبب الأعمال فكلهم يشتركون في التفضل من الله عليهم بدخول الجنة ولكنهم بعد الدخول يتفاوتون في الدرجات بسبب الأعمال

قوله تعالى ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [المرسلات: 44] .

في الآية التي قبلها قال تعالى﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [43/77] . وهنا قال: ﴿ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ، ولم يقل نجزي العاملين مما يشعر بأن الجزاء إنما هو على الإحسان في العمل لا مجرد العمل فقط وتقدم أن الغاية من التكليف إنما هي الإحسان في العمل﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [2-1/76] .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك في سورة"الكهف" عند قوله تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [7/18] .

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: 48] .

هذه الآية الكريمة من آيات الاستدلال على أن الكفار مؤاخذون بترك الفروع وتقدم التنبيه على ذلك مرارا والمهم هنا أن أكثر ما يأتي ذكره من الفروع هي الصلاة مما يؤكد أنها هي فع عماد الدين.

قوله تعالى ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات: 50] .

أي: بعد هذا القرآن الكريم لما فيه من آيات ودلائل ومواعظ كقوله تعالى ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [6/45] .

وقد بين تعالى أنه نزله أحسن الحديث هدى في قوله تعالى ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [23/39] .

وذكر ابن كثير في تفسيره عن ابن أبي حاتم إلى أبي هريرة يرويه إذا قرأ والمرسلات عرفا" فقرأ ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ ، فليقل آمنت بالله وبما أنزل

(404/8)

وذكر في سورة "القيامة" عن أبي داود وأحمد عدة أحاديث بعدة طرق أنه صلى الله عليه وسلم قال: "من قرأ في سورة "القيامة" : ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [40/75] قال سبحانك اللهم فبلى، وإذا قرأ سورة "والتين" فانتهى إلى قوله: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [8/95] فليقل بلى وأنا على ذلك من الشاهدين. ومن قرأ "والمرسلات" فبلغ: ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ ، فليقل "آمنا بالله" اهـ.

وإنا نقول: آمنا بالله كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

(405/8)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النبأ

قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ: 1-5].

﴿عَمَّ﴾ أصله عن ما أدغمت النون في الميم ثم حذف ألف الميم لدخول حرف الجر عليه للفرق بين ما الاستفهامية وما الموصولة.

والمعنى عن أي شيء ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾، وقد يفصل حرف الجر عن ما فلا يحذف الألف.

وأنشد الزمخشري قول حسان رضي الله عنه

على ما قام يشتمني لئيم... كخنزير تمرغ في رماد

وقال في الكشاف وعن ابن كثير أنه قرأ ﴿عمه﴾، بهاء السكت ثم وجهها بقوله إما أن يجرى الوصل مجرى الوقف وإما أن يقف ويبتدىء ﴿يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾، على أن يضمر ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾، لأن ما بعده يفسره.

وقال القرطبي قوله ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ ليس متعلقا ب ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ المذكور في التلاوة ولكن يقدر فعل آخر ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾، وإلا لأعيد الاستفهام أعن النبإ العظيم؟

وعلى كل فإن ما تساءلوا عنه أبهم أولا ثم بين بعده بأنهم ﴿يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾، ولكن بقي بيان هذا النبإ العظيم ما هو؟

فقيل: هو الرسول صلى الله عليه وسلم في بعثته لهم

وقيل: في القرآن الذي أنزل عليه يدعوهم به

وقيل في البعث بعد الموت.

(406/8)

مكتبة أمة محمد صلى الله عليه وسلم

وقد رجح ابن جرير احتمال الجميع وألا تعارض بينها.

والواقع أنها كلها متلازمة لأن من كذب بواحد منها كذب بها كلها ومن صدق بواحد منها صدق بها كلها ومن اختلف في واحد منها لا شك أنه يختلف فيها كلها.

ولكن السياق في النبإ وهو مفرد فلم المراد به هنا بالذات ؟

قال ابن كثير والقرطبي من قال إنه القرآن قال بدليل قوله ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ [38/67–68] .

ومن قال: إنه البعث قال بدليل الآتي بعدها ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً ﴾ [78/17] .

والذي يظهر والله تعالى أعلم أن أظهرها دليلا هو يوم القيامة والبعث لأنه جاء بعده بدلائل وبراهين البعث كلها وعقبها بالنص على يوم الفصل صراحة أما براهين البعث فهي معلومة أربعتخلق الأرض والسماوات وإحياء الأرض بالنبات ونشأة الإنسان من العدم وإحياء الموتى بالفعل في الدنيا لمعاين وكلها موجودة هنا .

أما خلق الأرض والسماوات فنبه عليه بقوله ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً ﴾ [78/6–7]، وقوله: ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً ﴾ [78/12–13] فكلها آيات كونية دالة على قدرته تعالى كما قال ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [40/57] .

وأما إحياء الأرض بالنبات ففي قوله تعالى ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً ﴾ [78/14–16] كما قال تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ [41/39] .

وأما نشأة الإنسان من العدم ففي قوله تعالى ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ [78/8] أي أصنافا، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [36/79] .

وأما إحياء الموتى في الدنيا بالفعل ففي قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً ﴾

[9/78]

والسبات: الانقطاع عن الحركة وقيل هو الموت فهو ميتة صغرى وقد سماه الله وفاة في قوله تعالى﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [42/39]، وقوله تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾ [60/6]، وهذا كقتيل بني إسرائيل وطيور إبراهيم فهذه آيات البعث ذكرت كلها مجملة.

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه إيرادها مفصلة في أكثر من موضع، ولذا عقبها تعالى بقوله﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ [17/78] أي للبعث الذي هم فيه مختلفون يكون السياق مرجحا للمراد بالنبأ هنا .

ويؤكد ذلك أيضا كثرة إنكارهم وشدة اختلافهم في البعث أكثر منهم في البعثة وفي القرآن فقد أقر أكثرهم ببلاغة القرآن وأنه ليس سحرا ولا شعرا كما أقروا جميعا بصدقه عليه السلام وأمانته ولكن شدة اختلافهم في البعث كما في أول سورة ص و ق ففي ص قال تعالى﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [38/4–5] .

وفي "ق" قال تعالى: ﴿ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [50/2–3]، فهم أشد استبعادا للبعث مما قبله والله تعالى أعلم

قوله تعالى: ﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ: 5] .

لم يبين هنا هل علموا أم لا، ولكن ذكر آيات القدرة الباوة على إحيائهم بعد الموت بمثابة إعلامهم بما اختلفوا فيه لأنه بمنزلة من يقول لهم إن كنتم مختلفين في إثبات البعث ونفيه فهذه هي آياته ودلائله فاعتبروا بها وقايسوه عليها والقادر على إيجاد تلك قادر على إيجاد نظيرها.

ولكن العلم الحقيقي بالمعاينة لم يأت بعد لوجود السين وهي للمستقبل وقد جاء في سورة التكاثر في قوله ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ [102/1–7]، وهذا الذي سيعلمونه يوم الفصل المنصوص عليه

في السياق ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً ﴾ [17/78] .

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً ﴾ [النبأ: 6] .

قرىء بالإفراد، ﴿ مهدا ﴾ أي كالمهد للطفل، وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك عند قوله تعالى: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ﴾ [53/20] من سورة "طه" .

قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً ﴾ [النبأ: 9–11] . تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه، بيان هذه الثلاثة كون النوم سباتا أي راحة أو موتا والليل لباسا ساترا ومريحا والنهار معاشا لطلب المعاش وذلك عند كلامه على قوله تعالى من سورة "الفرقان": ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً ﴾ [47/25] وكلها آيات دالات على القدرة على البعث كما تقدمت الإشارة إليه. قوله تعالى ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً ﴾ [النبأ: 12] .

أي السماوات السبع وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك عند قوله تعالى في سورة "ق" ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ [6/50] وساق النصوص مماثلة هناك.

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً ﴾ [النبأ: 18] .

النفخ في الصور للبعث وهذا معلوم وتأتون أفواجا قد بين حال هذا المجيء مثل قوله تعالى ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً ﴾ [43/70] وقوله ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ﴾ [54/7–8] والأفواج هنا قيل: الأمم المختلفة كقوله ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ الآية [71/17]، ولكن الآية بتاء الخطاب ﴿ فَتَأْتُونَ ﴾ مما يشعر بأن الأفواج في هذه الأمة.

وقد روى القرطبي وغيره أثرا عن معاذ أنه سأل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا معاذ سألت عن أمر عظيم من الأمور ثم أرسل عينيه وقال تحشر عشرة أصناف من أمتي" وساقها وكذلك ساقها الزمخشري وقال ابن حجر في الكافي الشافي في تخريج

أحاديث الكشاف: أخرجه الثعلبي وابن مردويه من رواية محمد بن زهير عن محمد بن الهندي عن حنظلة السدوسي عن أبيه عن البراء بن عازب عنه بطولوهي "بعضهم على صورة القردة وبعضهم على صورة الخنازير وبعضهم منكسون أرجلهم فوق وجوههم يسحبون عليها وبعضهم عميا وبعضهم صما بكما وبعضهم يمضغون ألسنتهم فهي مدلات على صدورهم يسيل القيح من أفواههم يتقذرهم أهل الجمع وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم وبعضهم مصلبون على جنوع من نار وبعضهم أشد نتنا من الجيف وبعضهم ملبسون جلبابا سابغة من قطران لازقة بجلودهم"

أما الذين على صورة الخنازير: فأهل السحت والمنكسون: أكلة الربا والعمى: الجائرون في الحكم والصم: المعجبون بأعمالهم والذين يمضغون ألسنتهم العلماء والقصاص الذين خالف قولهم لعمالهم ومقطوع الأيدي: مؤذوا الجيران والمصلبون: السعاة بالناس إلى السلطان، والذين أشد نتنا متبعوا الشهوات، ومانعوا حق الله في أموالهم ولابسوا الجلباب: أهل الكبر والفخر انتهى بإيجاز بالعبارة والله تعالى أعلم

قوله تعالى ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ [النبأ: 20].

تقدم بيان أحوالها يوم القيامة وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك مفصلا عند قوله تعالى من سورة طاه ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [105/20] وعند قوله تعالى في سورة النمل ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [88/27].

﴿ لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ: 23-25]. لم يبين الأحقاب هنا كم عددها وهذه مسألة فناء النار وعدم فنائها

وقيل: المراد بالأحقاب هنا جزء من الزمن لا كله وهي الأحقاب الموصوف حالهم فيها لما بعدهم من كونهم لا يذوقون فيها أي في النار أحقابا من الزمن لا يذوقون بردا ولا شرابا إلا حميما وغساقا

أما بقية الأحقاب فيقال لهم: ﴿ فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ [30/78]، وهذه المسألة قد بحثها الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه في كتاب دفع إيهام الاضطراب، عند الكلام

(410/8)

على هذه الآية وفي سورة "الأنعام" على قوله تعالى ﴿ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ الآية [128/6]، وهو بحث مطول وسيطبع الكتاب بإذن الله تعالى مع هذه التتمة.

وذكر القرطبي في معنى الحقب آثارا عديدة منها عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم "والله لا يخرج من النار من دخلها حتى يكون فيها أحقابا الحقب بضع وثمانون سنة والسنة ثلاثمائة وستون يوما كل يوم ألف سنة مما تعدون فلا يتكلن أحدكم على أنه يخرج من النار" ذكره الثعلبي.

وقد رجح القرطبي دوامهم أي الكفار في النار أبد الآبدين ا هـ

قوله تعالى ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴾ [النبأ: 29].

قيل المراد بالشيء هنا أعمال العباد أي أنه بعد قوله ﴿ جَزَاءً وِفَاقًا ﴾ [26/78] أي وفق أعمالهم بدون زيادة ولا نقص قال وقد أحصينا أعمالهم وكتبناها وهذا كقوله تعالى ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [49/18]. وقوله ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [18/50] وقوله ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [99/7–8] وقوله ﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ [6/58].

واللفظ عام في كل شيء ويشهد له قوله تعالى ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [49/54] ويقدر فيه معنى الإحصاء وفي السنة حديث القلم المشهور وكقوله ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ [12/36] وتقدم في سورة الجن قوله تعالى ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ [28/72].

وهذه الآية أعظم الدلالات على قدرته تعالى وسعة علمه وألا يفوته شيء قط وأنه يعلم بالجزئيات علمه بالكليات.

وكما تقدم في سورة "المجادلة": ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا

(411/8)

عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [7/58].

وكذلك التفصيل في قوله: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [59/6].

قوله تعالى ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً ﴾ [النبأ: 31] بينه بعده بقوله تعالى ﴿ حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً ﴾ إلى قوله ﴿ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً ﴾ [78/32–36].

﴿ عَطَاءً حِسَاباً ﴾ [النبأ: 36].

في حق الكفار قال ﴿ جَزَاءً وِفَاقاً ﴾ ، وفي حق المؤمنين قال ﴿ عَطَاءً حِسَاباً ﴾ .

ففي الأول بيان أن مجازاتهم وفق أعمالهم ولا يظلم ربك أحدا.

وفي الثاني بيان بأن هذا النعيم عطاء من الله وتفضل عليهم به من الأصل وهو المفاز المفسر في قوله تعالى ﴿ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [185/3].

ودخول الجنة ابتداء عطاء من الله كما في حديث "لن يدخل أحدكم الجنة بعمله" وقوله ﴿ حِسَاباً ﴾ : إشعار بأن تفاوت أهل الجنة في الجنة بالحساب ونتائج الأعمال وقيل ﴿ حِسَاباً ﴾ بمعنى كفاية، حتى يقول كل واحد منهم حسبي حسبي أي كافيني.

قول تعالى ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفّاً ﴾ [النبأ: 38].

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيانه عند الكلام على قوله تعالى من سورة"الكهف": ﴿ وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا ﴾ [48/18].

وقد ذكر ابن كثير لمعنى الروح هنا سبعة أقوال هي أرواح بني آدم أو بنو آدم أنفسهم أو خلق من خلق الله على صور بني آدم ليسوا بملائكة ولا بشر ويأكلون

(412/8)

ويشربون أو جبريل أو القرآن أو ملك عظيم بقدر جميع المخلوقات ونقلها الزمخشري وحكاها القرطبي وزاد ثامنا وهم حفظة على الملائكة وتوقف ابن جرير في ترجيح واحد مله

والذي يشهد له القرآن بمثل هذا النص أنه جبريل عليه السلام، كما في قوله تعالى﴿ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ [4/97] ففيه عطف الملائكة على الروح من باب عطف العام على الخاص وفي سورة القدر عطف الخاص على العام والله تعالى أعلم.

﴿ لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ﴾ [النبأ: 38].

قال الزمخشري: لشدة هول الموقف وهؤلاء وهم أكرم الخلق على الله وأقربهم إلى الله لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمان فغيرهم من الخلق من باب أولى

وقال ابن كثير هو مثل قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [105/11] ومثله قوله تعالى ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [255/2].

والواقع أن هذا كله مما يدل على أن ذلك اليوم لا سلطة ولا سلطان لأحد فقط حتى ولا بكلمة إلا ما أذن فيها كما قال تعالى ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [16/40]. قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ ﴾ [النبأ: 39].

هو يوم القيامة لاسم الإشارة وقد أشير إليه بالاسم الخاص بالبعيد﴿ ذلك ﴾ بدلا من هذا مع قرب التكلم

عليه ولكن إما لبعده زمانيا عن زمن التحدث عنه وإما لبعد منزلته وعظم شأنه كقوله تعالى ﴿ الم ذَلِكَ الْكِتَابُ ﴾ [2/1-2]، وفي هذا عود على بدء في أول السورة وهو إذا كانوا يتساءلون مستغربين أو منكرين ليوم القيامة فإنهم سيعلمون حقا وها هو اليوم الحق لا لبس فيه ولا شك ليرونه عين اليقين

﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً ﴾ [النبأ: 39].

المآب المرجع كما تقدم مثله ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ [19/73]، فإذا كان هذا اليوم كائنا حقا والناس فيه إما إلى جهنم ﴿ كَانَتْ

(413/8)

مِرْصَاداً لِلطَّاغِينَ مَآباً ﴾ [21/78-22]، وإما ﴿ مَفَازاً حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً ﴾ [31/78-32]، فبعد هذا البيان ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ ، يؤب به عند ربه مآبا يرضاه لنفسه ﴿ وَمَنْ شَاءَ ﴾ هنا نص في التخيير ولكن المقام ليس مقام تخيير وإنما هو بمثابة قوله تعالى ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً ﴾ الآية [29/18]

فهو إلى التهديد أقرب كما أن فيه اعتبار مشيئة العبد فيما يسلك والله تعالى أعلم

ويدل على التهديد ما جاء بعده ﴿ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً ﴾ وقوله ﴿ يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ [40/78].

وهذا كله تحذير شديد وحث أكيد على السعي الحثيث لفعل الخير وطلب النجاة في اليوم الحق نسأل الله السلامة والعافية.

﴿ يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ [40/78].

قد بين تعالى نتيجة هذا النظر إما المسرة به وإما الفزع منه كما في قوله: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ

مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [30/3].

(414/8)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النازعات

قوله تعالى: ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً ﴾ [النازعات: 1].

الواو للقسم والمقسم به محذوف ذكرت صفاته في كل المذكورات إلى قوله ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً ﴾ [5/79].

وقد اختلف في المقسم به فيها كلها على ما سيأتي بيانه إن شاء الله

﴿ وَالنَّازِعَاتِ ﴾ : جمع نازعة والنزع جذب الشيء بقوة من مقره كنزع القوس عن كبده ويستعمل في المحسوس والمعنوي فمن الأول نزع القوس كما قدمنا ومنه قوله ونزع يده وقوله ﴿ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾ [20/54] وقوله: و ﴿ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا ﴾ [27/7]، ومن المعنوي قوله تعالى ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً ﴾ [47/15]، وقوله ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [59/4]، والحديث: "لعله نزعه عرق".

والإغراق المبالغة والاستغراق الاستيعاب.

أما المراد ب ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً ﴾ هنا فقد اختلف فيه إلى حوالى عشرة أقوال منها أنها الملائكة تنزع الأرواح والنجوم تنتقل من مكان إلى مكان آخر والأقواس تنزع السهام والغزاة ينزعون على الأقواس والغزاة ينزعون من دار الإسلام إلى دار الحرب للقتال والوحوش تنزع إلى الطلا أي الحيوان الوحشي

﴿ وَالنَّاشِطَاتِ ﴾ : قيل أصل الكلمة النشاط والخفة والأنشوطة العقدة سهلة الحل ونشطه بمعنى ربطه

وأنشطه حله بسرعة وخفة ومنه قوله صلى الله عليه وسلم"كأنما أنشط من عقال"

أما المراد به هنا فقد اختلف فيه على النحو المتقدمتقريبا فقيل: الملائكة تنشط

(415/8)

الأرواح وقيل: أرواح المؤمنين تنشط عند الفزع ولم يرجح ابن جرير معنى منها وقال كلها محتملة وحكاها غيره كلها

وقد ذكر في الجلالين المعنى الأول منها فقط والذي يشهد له السياق والنصوص الأخرى أن كلا من ﴿ النَّازِعَاتِ ﴾ و ﴿ النَّاشِطَاتِ ﴾ : هم الملائكة وهو ما روي عن ابن عباس ومجاهد وهي صفات لها في قبض الأرواح.

ودلالة السياق على هذا المعنى هو أنهما وصفان متقابلان الأول نزع بشدة والآخر نشاط بخفة فيكون النزع غرقا لأرواح الكفار والنشط بخفة لأرواح المؤمنين وقد جاء ذلك مفسرا في قوله تعالى في حق نزع أورواح الكفار ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ الآية[93/6] . وقوله تعالى ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [50/8]، وقال تعالى في حق المؤمنين﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴾ [89/27–28]، وقوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [30/41] .

وهذا يتناسب كل المناسبة مع آخر السورة التي قبلها إذ جاء فيها﴿ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ [40/78]، ونظر المرء ما قدمت يداه يبدأ من حالة النزع حينما يثقل اللسان عن النطق في حالة الحشرجة حين لا تقبل التوبة عند العاينة لما سيؤول إليه فينظر حينئذ ما قدمت يداه وهذا عند نزع الروح أو نشطها والله تعالى أعلم. ﴿ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً ﴾ [النازعات: 3–4] .

قيل ﴿ وَالسَّابِحَاتِ ﴾ النجوم. وقيل: الشمس والقمر والليل والنهار والسحاب والسفن والحيتان في البحار والخيل في الميدان.

وذكرها كلها أيضا ابن جرير ولم يرجح وقال كلها محتملة وذكرها غيره كذلك.

والواقع فإنها كلها آيات عظام تدل على قدرته تعالى إلا أن السياق في أمر

(416/8)

البحث والمعاد وأقرب ما يكون إليه الآيات الكونية الشمس والقمر والنجوم وقد وصف الله الشمس والقمر بالسابحات في قوله تعالى ﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [40/36] ﴿ والسابقات ﴾ من النجوم السيارة. ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً ﴾ [النازعات: 5].

اتفق المفسرون على أنها الملائكة وذكر الفخر الرازي رأيا له بعيدا وهو أنها الأرواح وأنها قد تدبر أ الإنسان في المنامات وهو قول لا يعول عليه كما ترى

والذي يشهد له النص أنها الملائكة كما في قوله تعالى ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ [4/97] وكما وصف الله الملائكة بقوله ﴿ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [6/66].

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ [النازعات: 7].

هما النفختان في الصور الراجفة هي الأولى والرادفة هي الثانية كما في قوله تعالى ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ [68/39].

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورة يس عند قوله تعالى ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾ [51/36]، وسميت الأولى الراجفة لما يأخذ العالم كله من شدة الرجفة كما في قوله تعالى ﴿ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ [14/69]، وقوله ﴿ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [68/39].

وذكر ابن كثير عن الإمام أحمد رحمه الله بسنده قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "جاءت الرجفة تتبعها الرادفة جاء الموت بما فيه" فقال رجل يا رسول الله أرأيت إن جعلت صلاتي كلها عليك قال: "إذا يكفيك الله ما أهمك من دنياك وآخرتك" وسنده قال أحمد حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن عبد الله بن محمد بن علي عن أبي الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث

(417/8)

قوله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴾ [النازعات: 10].

قال ابن كثير يستنكر المشركون البعث بعد الموت و﴿ الْحَافِرَةِ ﴾ : الحياة بعد موتهم ومصيرهم إلى القبور.

ونقل أن الحافرة النار وأكثر المفسرين على أنها الحياة الأولى يقال عاد في حافرته رجع في طريقه كأن محياه الأول حفر طريقه بمشيه فيها وعليه لا علاقة له بحفرة القبر وإنما هو تعبير عربي عن العودة في الأمر ويشهد له قول الشاعر:

أحافرة على صلع وشيب . . . معاذ الله من صلع وعار

أي أرجع إلى الصبا بعد الصلع والشيب

وقول الآخر:

أقدم أخا نهم على الأساوره . . . ولا يهولنك رؤوس نادره

فإنما قصرك ترب الساهره . . . حتى تعود بعدها في الحافره

من بعد ما صرت عظاما ناخره

وقد دلت الآية بعدها إلى أن المراد بالحافرة العودة إلى الحياة مرة أخرى في قوله ﴿ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ [12/79].

والكرة: هي العودة إلى الحياة الأولى وهي ما قبل حفرة القبر من تكرار الحياة السابقة والله تعالى أعلم

﴿ أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً ﴾ [النازعات: 11] .

العظام النخرة البالية والتي تخللها الريح كما في قول الشاعر

وأخليتها من مخها فكأنها . . . قوارير في أجوافها الريح تنخر

ونخرة الريح شدة صوتها ومنه المنخر لأخذ الهواء منه ويدل لهذا قوله تعالى ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ [78/36] .

قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ [النازعات: 15] .

(418/8)

بين تعالى هذا الحديث وموضوعه ومكانه بقوله تعالى بعده ﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ إلى قوله ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ 79 /16–24] .

﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ ﴾ [النازعات: 16] .

بين القرآن الكريم أنه الطور في قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً ﴾ –إلى قوله ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ ﴾ [28/29–30] والمباركة تساوي المقدس.

فبين تعالى أن المناداة كانت بالطور وهو الواد المقدس وهو طوى وفي البقعة المباركة وقد بين تعالى ما كان في ذلك المكان من مناجاة وأمر العصا والآيات الأخرى في سورة طه من أول قوله تعالى ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ رَأَى نَاراً ﴾ –إلى قوله ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ ﴾ [20/9–24] .

وقد فصل الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه القول في ذلك الموقف في سورة مريم عند قوله تعالى ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ ﴾ [52/19] .

وقد بين تعالى في سورة "طه" كامل قصة المناداة من قوله ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً

وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ [20/12–15].

ثم قصة العصا والآية في يده عليه السلام وإرساله إلى فرعون إنه طغى وسؤال موسى﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ [20/25–26]، واستوزار أخيه معه دون التعرض إلى أسلوب الدعوة وفي هذه السورة الكريمة بيان لمنهج الدعوة وما ينبغي أن يكون عليه نبي الله موسى مع عدو الله فرعون وأسلوب العرض ﴿ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ [79/18–19]، ثم تقديم الآية الكبرى ودليل صحة دعواه مما يلزم كل داعية اليوم أن يقف هذا الموقف حيث لا يوجد اليوم أكثر من فرعون ولا أشد طغيانا منه حيث ادعى الربوبية والألوهية معا فقال﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [79/24]، وقال ﴿ مَا عَلِمْتُ

(419/8)

لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [28/38]،ولا يوجد اليوم أكرم على الله من نبي الله موسى وأخيه هارون.

ومع ذلك فيكون منهج الدعوة من أكرم خلق الله إلى أكفر عباد الله بهذا الأسلوب الهادىء اللين الحكيم منطلقا من قوله تعالى ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [20/44] فكانا كما أمرهما الله وقالا كما علمهما الله ﴿ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴾ ، وهذا المنهج هو تحقيق لقوله تعالى﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [16/125].

وقد وضع القرآن منهجا متكاملا للدعوة إلى الله وفصله العلماء بما يشترط في الداعي والمدعو إليه ومراعاة حال المدعو.

وقد قدم الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [5/105] من سورة "المائدة".

وقوله تعالى ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ [88/11] في سورة "هود" .

وقوله تعالى ﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [125/16] في سورة "النحل"

ومجموع ذلك كله يشكل منهجا كاملا لمادة طريق الدعوة إلى الله تعالى فيما يتعلق بالداعي والمدعو وما يدعو إليه وكيفية ذلك والحمد لله.

﴿ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴾ [النازعات: 21] .

ذكر هنا الآية الكبرى فقط وذكر تعالى منها أن فرعون جمع بين التكذيب والعصيان وتقدم في سورة القمر قوله ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴾ [54/41-42] .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك هناك

﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ [النازعات: 25] .

النكال: هو اسم لما جعل نكالا للغير أي عقوبة له حتى يعتبر به والكلمة من

(420/8)

الامتناع ومنه النكول عن اليمين والنكل القيد قاله القرطبي

واختلف في ﴿ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ : أهم الدنيا والآخرة أم هم الكلمتان العظيمتان اللتان تكلم بهما فرعون في قوله ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [38/28] .

والثانية قوله ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ [24/79] .

قال ابن عباس وكان بينهما أربعون سنة وقد اختار ابن كثير الأول واختار ابن جرير الثاني ومعه كثير من المفسرين.

ولكن يرد على اختيار ابن كثير أن السياق قدم الآخرة مع أن تعذيب فرعون مقدم فيه نكال الأولى وهي الدنيا .

كما يرد على اختيار ابن جرير أن الله تعالى جعل أخذه إياه نكالا ليعتبر به من يخشى والعبرة تكون أشد بالمحسوس وكلمتاه قيلتا في زمنه

والقرآن يشهد لما قاله ابن كثير في قوله تعالى ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾ [10/92]، وهذا هو محل الاعتبار.

وقد قال تعالى بعد الآية ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴾ [79/26].

واسم الإشارة في قوله ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ راجع إلى الأخذ والنكال المذكورين أي المصدر المفهوم ضمنا في قوله تعالى ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ ﴾ وقوله ﴿ نَكَالَ ﴾ ، بل إن ﴿ نَكَالَ ﴾ مصدر بنفسه أي فأخذه الله ونكل به وجعل نكاله به عبرة لمن يخشى.

قوله تعالى: ﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ﴾ [النازعات: 27].

لما كان فرعون على تلك المثابة من الطغيان والكفر وكان من أسباب طغيانه الملك والقوة كما في قوله تعالى ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴾ [89/10]، وقوله: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [28/4]، وقوله عنه ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي ﴾ [43/15].

وهذه كلها مظاهر طغيانه وعوامل قوته خاطبهم الله بما آل إليه هذا الطغيان ثم خاطبهم في أنفسهم محذرا من طغيان القوة ﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ﴾ ، حتى لو

ادعيتم أنكم أشد قوة من فرعون الذي أخذه الله نكال الآخرة والأولى فهل أنتم أشد خلقا أم السماء ؟

وقد جاء الجواب مصرحا بأن السماء أشد خلقا منهم في قوله تعالى ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [40/57].

وبين ضعف الإنسان في قوله في نفس المعنى ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ

لازِبٍ﴾ [11/37].

وفي هذا بيان على قدرته تعالى على بعثهم بعد إماتتهم وصيرورتهم عظاما نخرة.

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه شي من ذلك عند آية الصافات﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنَا ﴾ [11/37].

قوله تعالى ﴿ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴾ [النازعات: 28].

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك في سورة "ق" عند قوله تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا ﴾ الآية[6/50].

قوله تعالى ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ [النازعات: 32].

في هذه الآية الكريمة وصف الأرض بأن الله تعالى ﴿ دَحَاهَا ﴾ وجاء في آية أخرى أنه ﴿ طَحَاهَا ﴾ بالطاء

وجاء في آية أخرى أنه بسطها وهي قوله تعالى ﴿ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [20/88]

وقد اختلف في تفسير قوله﴿ دَحَاهَا ﴾ فقال ابن كثير تفسيره ما بعده﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾ [79/31-32] وهذا قول ابن جرير عن ابن عباس

وقال القرطبي ﴿ دَحَاهَا ﴾ أي بسطها.

والعرب تقول: دحا الشيء إذا بسطه.

وقال أبو حيان ﴿ دَحَاهَا ﴾ بسطها ومهدها للسكنى والاستقرار عليها ثم فسر ذلك التمهيد بما لا بمنه من إخراج الماء والمرعى وإرسائها بالجبال

(422/8)

ومما ذكر يتأتى السكنى والمعيشة حتى الملح والماكل والمشرب وهذا هو كلام الزمخشري بعينه

وقال الفخر الرازي ﴿ دَحَاهَا ﴾ بسطها فترى أن جميع المفسرين تقريبا متفقون على أن﴿ دَحَاهَا ﴾ بمعنى

بسطها .

وقول ابن جرير وابن كثير: إن ﴿ دَحَاهَا ﴾ فسر بما بعده لا يتعارض مع البسط والتمهيد كما قال أبو حيان إنه ذكر لوازم التسكن إلى المعيشة عليها من إخراج مائها ومرعاها لأن بهما قوام الحيلة

ومما يستأنس به أن الدحو معروف بمعنى البسط قول ابن الرومي

ما أنس لا أنس خبازا مررت به. . . يدحو الرقاقة وشك اللمح بالبصر

ما بين رؤيتها في كفه كرة. . . وبين رؤيتها قوراء كالقمر

إلا بمقدار ما تنداح دائرة. . . في صفحة الماء ترمي فيه بالحجر

وقد أثير حول هذه الآية مبحث شكل الأرض أمبسوطة هي أم كروية مستديرة؟

وإذا رجعنا إلى أمهات كتب اللغة نجد الآتي

أولا في مفردات الراغب قال﴿ دَحَاهَا ﴾ ، أزالها من موضعها ومقرها.

ومنه قولهم: دحا المطر الحصى من وجه الأرض أي جرفها ومر الفرس يدحو دحوا إذا جر يده على وجه الأرض فيدحو ترابها.

ومنه أدحى النعام وقال: الطحو كالدحو وهو بسط الشيء والذهاب به والأرض وما طحاها وأنشقول الشاعر:

طحا بك قلب في الحسان طروب

أي ذهب بك.

وفي معجم مقاييس اللغة مادة دحو الدال والحاء والواو أصل واحد بدل على بسط وتمهيد

يقال: دحى الله الأرض يدحوها دحوا إذا بسطها ويقال دحا المطر الحصى

عن وجه الأرض وهذا لأنه إذا كان كذلك فقد مهد الأرض وقيل للفرس إذا رمى بيده رميا لا يرفع سنبكه عن الأرض كثيرا مر يدحو دحوا ومن الباب أدحى النعام الموضع الذي يفرخ فيه أفعول من دحوت لأنه يدحوه برجله ثم يبيض فيه وليس للنعامة عش.

وفي لسان العرب مادة دحا والدحو البسط دحى الأرض يدحوها دحوا بسطها .

وقال الفراء في قوله عز وجل ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ ، قال بسطها ، وذكر الأدحى مبيض النعام في الرمل لأن النعامة تدحوه برجلها ثم تبيض فيه

وذكر حديث ابن عمر: فدحا السيل فيه بالبطحاء أي رمى وألقى

قال: وسئل ابن المسيب عن الدحو بالحجارة فقال لا بأس به أي المراماة بها والمسابقة .

وعن ابن الأعرابي هو يدحو بالحجر أي يرمي به ويدفعه والداحي الذي يدحو الحجر بيده وأنشد لأوس بن حجر بمعنى ينزع قوله

ينزع جلد الحصا أحسين مبترك . . . كأنه فاحص أو لاعب داح

وفي حديث أبي رافع "كنت ألاعب الحسن والحسين رضوان الله عليهما بالمداحي" هي أحجار أمثال القرصة كانوا يحفرون حفرة يدحون فيها بتلك الحجارة فإذا وقع الحجر فيها غلب صاحبها وإن لم يقع غلب والدحر هو رمي اللاعب بالحجر والجوز وغيره اهـ

وما ذكره صاحب اللسان عن أبي رافع لا زال موجودا حتى الآن بالمدينة ويسمى الدحل باللام كما وصف تماما .

وبعد إيراد أقوال أصول مراجع اللغة وما تقدم من أقوال المفسرين فإننا نواجه الجدل القائم بين بعض علماء الهيئة وبعض العلماء الآخرين في موضوع شكل الأرض ولعلنا نوفق بفضل من الله إلى بيان الحقيقة في ذلك حتى لا يظن ظان تعارض القرآن وما يثبت من علوم الهيئة أو يغتر جاهل بما يقال في الإسلام.

(424/8)

وبتأمل قول المفسرين نجدها متفقة في مجموعها بأن﴿ دَحَاهَا ﴾ مهدها وسهل الحياة عليها وذكر لوازم التمكين من الحياة عليها من إخراج الماء والمرعى ووضع الجبال وهو المتفق مع نصوص القرآن في قوله﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً ﴾ [78/6-7] .

وقوله ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ﴾ [67/15] .

وكل ذلك من باب واحد وهو تمهيدها والتمكين للعيش عليها وليس فيه معنى التكوير والاستداوة

وإذا جئنا إلى كتب اللغة نجدها كلها تنص على أن الدحو: البسط والرمي والإزالة والتمهيد فالبسط والتمهيد والرمي بالحجر المستدير في الحفرة الصغيرة معان مشتركة وكلها تفسر﴿ دَحَاهَا ﴾ بمعنى بسطها ومهدها ، وأن الأدحية مبيض النعام لا بيضه كما يقولون وسمي بذلك لأنها تدحوه بيدها لتبيض فيه إلا عش لها .

وعليه، فلا دليل من كتب اللغة على أن الدحو هو التكوير ولكن ما قول العلماء في شكل الأرض بصرف النظر عن كون القرآن تعرض له أو لم يتعرض ؟

إذا رجعنا إلى كلام من نظر في علم الهيئة من المسلمين فإنا نجدهم متفقين على أن شكل الأرض مستدير

وقبل إيراد شيء من أقوالهم ننبه على أنه لا علاقة لهذا البحث بموضوع الحركة سواء للأرض أو غيرها فذاك بحث مستقل ليس هذا محله وإنما البحث في الشكل

أما أقوال العلماء في شكل الأرض فإن أجمع ما وقفت عليه وأصرح وأبين هو كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في رسالة الهلال جاء فيها قال في موضع منها قوله وقد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع من علماء الأمة أن الأفلاك مستديرة قال تعالى﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ [41/37]، وقال ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [21/33] وقال تعالى: ﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [36/40] .

(8/425)

مكتبة أمة محمد صلى الله عليه وسلم

قال ابن عباس في فلكة مثل فلكة المغزل وهكذا هو في لسان العرب الفلك الشيء المتوير ومنه يقال تفلك ثدي الجارية إذا استدار قال تعالى ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [5/39]، والتكوير هو التدوير ومنه قيل كار العمامة وكورها ولهذا يقال للأفلاك كروية الشكل لأن أصل الكرة كورة تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفا.

وقال ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [5/55] مثل حسبان الرحى وقال ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ [3/67]. وهذا إنما يكون فيما يستدير من أشكال الأجسام دون المضلعات من المثلث أو المربع أو غيرهما فإنه يتفاوت لأن زواياه مخالفة لقوائمه.

والجسم المستدير متشابه الجوانب والنواحي ليس بعضه مخالفا لبعض

وجاء فيه قوله أيضا: وقال الإمام أبو الحسين أحمد بن جعفر بن المنادي من أعيان العلماء المشهورين بمعرفة الآثار والتصانيف الكبار في متون العلوم الدينية من الطبقة الثانية من أصحاب أحمد لا خلاف بين العلماء أن السماء على مثال الكرة وأنها تدور بجميع ما فيها من الكواكب كدورة الكرة على قطبين ثابتين غير متحركين أحدهما في الشمال والآخر في ناحية الجنوب

قال: ويدل على ذلك أن الكواكب جميعها تدور من المشرق تقع قليلا على ترتيب واحد في حركتها ومقادير أجزائها إلى أن تتوسط السماء ثم تنحدر على ذلك الترتيب فكأنها ثابتة في كرة تديرها جميعها دورا واحدا هذه نبذة من أقوال علماء المسلمين في شكل الأفلاك ثم قال وهذا محل القصد بالذات وكذلك أجمعوا على أن الأرض بجميع حركاتها من البر والبحر مثل الكرة

قال ويدل عليه أن الشمس والقمر والكواكب لا يوجد طلوعها وغروبها على جميع من في نواحي الأرض في وقت واحد بل على المشرق قبل المغرب

قال فكرة الأرض مثبتة في وسط كرة السماء كالنقطة في الدائرة يدل على ذلك أن جرم كل كوكب يرى في جميع نواحي السماء على قدر واحد فيدل ذلك على عد ما

(426/8)

بين السماء والأرض من جميع الجهات بقدر واحد فاضطرار أن تكون الأرض وسط السماء ا هـ بلفظه

فهذا نقل لإجماع الأمة من إمام جليل في علمي المعقول والمنقول على أن الأرض على شكل الكرة وقد ساق الأدلة الاضطرارية من حركة الأفلاك على ذلك

ومن جهة العقل أيضا يقال إن أكمل الأجرام هو المستدير كما قال في قوله ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ﴾ [3/67] .

وعليه فلو قدر لسائر على وجه الأرض وافترضنا الأرض مسطحة كسطح البيت أو القرطاس مثلا لكان لهذا السائر من نهاية ينتهي إليها وهي منتهى التسطيح أو يسقط في هاوية وباعتبارها كرة فإنه يكمل دورته ويكررها ولو سار طيلة عمره لما كان لمسيره منتهى لأنه يدور على سطحها من جميع جهاتها والعلم عند الله تعالى.

تنبيه

كان من الممكن أن نقدم هذه النتيجة من أول الأمر ما دامت متفقة في النهاية مع قول علماء الهيئة ولا نطيل القول من هنا وهناك ولكن قد سقنا ذلك كله لغرض أعم من هذا كله وقضية أشمل وهي من جهتين

أولاهما: أن علماء المسلمين مدركون ما قال به علماء الهيئة ولكن لا من طريق النقل أو دلالة خاصة على هذه الجزئية من القرآن ولكن عن طريق النظر والاستدلال إذ علماء المسلمين لم يجهلوا هذه النظرية ولم تخف عليهم هذه الحقيقة.

ثانيتهما: مع علمهم بهذه الحقيقة وإدراكهم لهذه النظرية لم يعز واحد منهم دلالتها لنصوص الكتاب أو السنة وبناء عليه نقول إذا لم تكن النصوص صريحة في نظرية من النظريات الحديثة لا ينبغي أن نقحمها في مباحثها نفيا أو إثباتا وإنما نتطلب العلم من طريقه فعلوم الهيئة من النظر الاستدلال وعلوم الطب من التجارب والاستقراء وهكذا يبقى القرآن مصانا عن مجال الجدل في نظرية قابلة للثبوت والنفي أو التغيير والتبديل كما لا ينبغي لمن لم يعلم حقيقة أمر في فنه أن يبادر بإنكارها ما لم تكن مصادمة لنص صريح.

وعليه أن يتثبت أولا وقد نبهنا سابقا على ذلك في مثل ذلك في قصة نبي الله سليمان مع بلقيس والهدهد حينما جاءه فقال ﴿ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [22/27] وقص عليه خبرها مع قومها فلم يبادر عليه السلام بالإنكار لكون الآتي بالخبر هدهدا ولم يكن عنده علم به ولم يسارع أيضا بتصديقه لأنه ليس لديه مستند عليه بل أخذ في طريق التثبت بواسطة الطريق الذي جاءه الخبر به قال ﴿ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [27/27]، وأرسله بالكتاب إليهم فإذا كان هذا من نبي الله سليمان ولديه وسائل وإمكانيات كما تعلم فغيره من باب أولى

تنبيه آخر

إذا كان علماء الإسلام يثبتون كروية الأرض فماذا يقولون في قوله تعالى ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ –إلى قوله ﴿ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [88/17–20] وجوابهم كجوابهم على قوله تعالى ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ [86/18] أي في نظر العين لأن الشمس تغرب عن أمة وتستمر في الأفق على أمة أخرى حتى تأتي مطلعها من الشرق في صبيحة اليوم الثاني ويكون بسط الأرض وتمهيدها نظرا لكل إقليم وجزء منها لسعتها وعظم جرمها

وهذا لا يتنافى مع حقيقة شكلها فقد نرى الجبل الشاهق وإذا تسلقناه ووصلنا قمته وجدنا سطحا مستويا ووجدنا أمة بكامل لوازمها وقد لا يعلم بعض من فيه عن بقية العالم وهكذا والله تعالى أعلم

﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ [النازعات: 46] .

العشية: ما بين الزوال إلى الغروب والضحى ما بين طلوع الشمس إلى الزوال وهذا تحديد بنصف نهار وقد جاء التحديد بساعة من نهار. وجاء ﴿ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ [259/2] .

وجاء ﴿ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً ﴾ [103/10] .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك عند قوله تعالى في سورة

(428/8)

يونس ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ ﴾ [10/45] وأحال على دفع إيهام الاضطراب عن أيات الكتاب وسيطبع إن شاء الله مع هذه التتمة.

(429/8)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة عبس

قوله تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴾ [عبس: 2].

سبب نزول هذه السورة باتفاق المفسرين أنه صلى الله عليه وسلم كان مشغولا بدعوة صناديد قريش فأتاه ابن أم مكتوم وهو رجل أعمى وقال: "أقرئني يا رسول الله وعلمني مما علمك الله" وكرر ذلك فلم يتفق ذلك وما هو مشتغل به صلى الله عليه وسلم وما يرجوه مما هو أعظم فعبس وتولى عنه منصرفا لما هو مشتغل به

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب على قوله تعالى﴿ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴾ ما نصه عبر تعالى عن هذا الصحابي الجليل الذي هو عبد الله بن أم مكتوم بلقب يكرهه الناس مع أنه قال﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ [49/11].

والجواب هو ما نبه عليه بعض العلماء من أن السر في التعبير عنه بلفظ﴿ الْأَعْمَى ﴾ للإشعار بعذره في الإقدام على قطع كلام الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه لو كان يرى ما هو مشتغل به مع صناديد الكفار لما قطع كلامه اهـ. منه بلفظه.

وقال الفخر الرازي إنه وإن كان أعمى لا يرى فإنه يسمع وبسماعه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وإقدامه على مقاطعته يكون مرتكبا معصية فكيف يعاتب عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فكلامه هذا يشعر بأنه إن كان معذورا لعدم الرؤية فليس معذورا لإمكان سماعه ولكن ذكره بوصفه ليوجب العطف عليه والرفق به.

والظاهر والله تعالى أعلم أن كلام الرازي ليس بعيدا عما ذكره الشيخ لأن معناه أنه عاتبه لعدم رفقه ومراعاة حالة عماه.

فعليه يكون ذكره بهذا الوصف من باب التعريض بغيره من أولائك الصناديد وسادة القوم وكأنه يقول لهم ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾

(430/8)

[46/22]، فهذا كفيف البصر ولكن وقاد البصيرة أبصر الحق وآمن وجاء مع عماه يسعى طلبا للمزيد وأنتم تغلقت قلوبكم وعميت بصائركم فلم تدركوا الحقيقة ولم تبصروا نور الإيمان كما في الآية الكريمة ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ والعلم عند الله تعالى.

تنبيه

مما اتفق عليه المحدثون جواز ذكر مثل هذه الأوصاف إذا كانت للتعريف لا للتنقيص فقالوا الأعمى والأعور والأعرج وفي الحرف قالوا الخراز والخرقى ونحو ذلك وهذا ما فيه مصلحة لترجمة الرجال في السند ومثله ليس تنابزا بالألقاب في هذا الفن والله تعالى أعلم

ومثله إذا لكن للتعريف في غرض سليم دون تنقص كما قدمنا.

وقوله تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ فإن فيه مثل ما في قوله تعالى ﴿ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴾ لأن العبوسة أمر لا يتفق في الظاهر مع قوله تعالى في حقه صلى الله عليه وسلم ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [4/68]، وقوله ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [88/15]، ولم أقف على جواب لذلك ولم يتعرض له الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب

والذي يظهر والله تعالى أعلم أنه لا يتأتى معه لأنه صلى الله عليه وسلم لم يتكلم بما يسيء إلى هذا الصحابي في نفسه بشيء يسمعه فيزعجه كل ما كان منه صلى الله عليه وسلم إنما هو تقطيب الجبين وهذه حركة مرئية لا مسموعة.

والحال أن هذا أعمى لا يرى تلك الحركة فكأنه لم يلق إساءة منه صلى الله عليه وسلم

ثم إنه صلى الله عليه وسلم مطمئن له لما هو عليه من خير في دينه كما قال في حنين"وأكل أقواما إلى ما في قلوبهم" أي لما أعطى المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار ما هو معروف في القصة فلم يعاتبه الله على ذلك ورضي الأنصار وبكوا فرحا ورضا.

ثم إن تقطيب الجبين وانبساط أسارير الوجه لحزن أو فرح يكاد يكون جبليا مما

(431/8)

كان منه صلى الله عليه وسلم فهو من باب الجبلية تقريبا كأن المثير له غرض عام من خصوص الرسالة ومهمتها .

ومع ذلك فقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان بعد نزولها يقول له"مرحبا فيمن عاتبني فيه ربي" ويكرمه وقد استخلفه على المدينة مرتين

وعلى هذا يكون المراد بهذا أمران

الأول التسامي بأخلاقه صلى الله عليه وسلم إلى ما لا نهاية له إلى حد اللحظ بالعين والتقطيب بالجبين ولو لمن لا يراه كما قال صلى الله عليه وسلم"ما كان لنبي أن تكون له خائنة الأعين" وذلك في صلح الحديبية.

والثاني تأديب للأمة وللدعاة خاصة في شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم كما علمهم في شخصيته في بر الوالدين في قوله تعالى ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا﴾ [23/17]

وهذا السياق بكامله من أول السورة إلى قوله تعالى﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ [80/11–12]

بيان لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يراعي في الدعوة إلى الله غنيا ولا فقيرا وأن يصبر على ضعفة المؤمنين

لأن الرسالة تبليغ وليس عليه ما وراء ذلك من مسؤولية فلا يتكلف لهم

وقد حثه الله تعالى على الصبر مع المؤمنين لإيمانهم في قوله تعالى﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [18/28–29].

ومثله قوله تعالى ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [6/52].

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه شيء من هذا البيان عند هذه الآية وبين أن هذا التنبيه قد وقع من نبي الله نوح إلى قومه حينما ازدروا ضعفة المؤمنين في

(8/432)

قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ –إلى قوله ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [11/27–29].

وقد دلت هذه الآية وأمثالها على صدق مقالة هرقل حينما سأل أبا سفيان عن أتباع محمد صلى الله عليه وسلم أهم سادة القوم أم ضعفاؤهم فقال بل ضعفاؤهم فقال هكذا هم أتباع الرسل

وقال العلماء في ذلك لأنهم أقرب إلى الفطرة وأبعد عن السلطان والجاه فليس لديهم حرص على منصب يضيع ولا جاه يهدر ويجدون في الدين عزا ورفعة وهكذا كان بلال وصهيب وعمار وهكذا هو ابن أم مكتوم رضي الله عنهم.

قوله تعالى: ﴿ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى ﴾ [عبس: 7].

بيان لموقفه صلى الله عليه وسلم من جميع الأمة وحرصه على إسلام الجميع حتى من أعرض واستغنى شفقة بهم ورحمة كما بين تعالى حاله صلى الله عليه وسلم بقوله﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ﴾ [128/9] وكقوله ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً ﴾ [6/18].

وقوله: ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى ﴾ بيان أنه صلى الله عليه وسلم ليس عليه ممن لا يتزكى وقد صرح تعالى بذلك في قوله ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنْذِرٌ ﴾ [7/13] وقوله ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ ﴾ [48/42]، وقوله ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ﴾ [272/2]، ومثل ذلك.

وقد جمع الأمرين من الجانبين في قوله تعالى عن نوح عليه السلام﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ [115-114/26].

قوله تعالى: ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس: 11-16].

معلوم أن كلمة ﴿ كَلَّا ﴾ ردع عما سبق وهو في جملته منصب على التصدي لمن استغنى والإلحاح عليهم والحرص على سماعهم منه ولكن الله تعالى يقول إن منزلة القرآن والوحي والدين أعلى منزلة من أن تبذل لقوم هذه حالتهم فهي على ما هي عليه من

(433/8)

تكريم ورفعة وطهرة وصيانة وما عليها من حفظة سفرة كرام بررة أحرى بأن يسعى إليها والخير لمن أتاها يطلبها.

﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ وهذا للتهديد لا للتخيير بدليل ما بعده ﴿ قُتِلَ الْأِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ [17/80] ﴿ قُتِلَ الْأِنْسَانُ ﴾ دعاء عليه والإنسان: للجنس الكافر، و ﴿ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ : أي ما أشد كفره بها بعد هذا كله من

علو منزلتها .

وقوله تعالى: ﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [17/80] .

قيل ﴿ مَا أَكْفَرَهُ﴾ هنا ما أفعله، أي: ما أشد كفره.

وقال الزمخشري: هي تعجب من إفراطه في كفران نعم الله

وقيل: أي شيء حمله على التكذيب والكفر وكلها محتملة

ولعل المعنى الأول أظهر لقوله قبله﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ﴾ ولمجيء هذا المعنى في مواضع أخر: ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [34/14]، وكذلك فعول في قوله﴿ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾ [66/22]، وهكذا صفة الجاحدين لآيات الله كما في قوله﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [32/31] .

ثم رد تعالى عليه ذلك برده إياه إلى أصل خلقته ليتعظ من نفسه في قوله تعالى﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ [18/80–21]، لأن هذه الثلاثة مسلم بها ورتب عليها الرابعة ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ [22/70] .

وقوله ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ تقدم مرارا بيان أصل خلق الإنسان وأطواره

وقوله ﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ قيل ﴿ السَّبِيلَ﴾ إلى خروجه من بطن أمه حيث أدار رأسه إلى جهة الخروج بدلا مما كان عليه إلى أعلى وهذا من التيسير في سبيل خروجه وهذا مروي عن ابن عباس وغيره وهو اختيار ابن جرير.

وقيل ﴿ السَّبِيلَ﴾ : أي الدين في وضوحه ويسر العمل به كقوله تعالى﴿ إِنَّا

هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ [3/76]، وهو مروي عن الحسن وابن زيد ورجحه ابن كثير

ولعل ما رجحه ابن كثير هو الأرجح لأن تيسير الولادة أمر عام في كل حيوان وهو مشاهد ملموس فلا مزية للإنسان فيه على غيره كما أن ما قبله دال عليه أو على مدلوله وهو القدرة في قوله تعالى ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ .

وقد يكون تيسير الولادة داخلا تحت قوله ﴿فَقَدَّرَهُ﴾ أي قدر تخلقه وزمن وجوده وزمن خروجه وتقديرات جسمه وقدر حياته وقدر مماته كما هو معلوم

أما تيسير سبيل الدين فهو الخاص بالإنسان وهو المطلوب التوجه إليه وهو الذي يتعلق بغيره ما بين تخلقه من نطفة وتقديره وبين إماته وإقباره أي فترة حياته في الدنيا أي خلقه من نطفة وقدر مجيئه إلى الدنيا ويسر له الدين في التكاليف ثم أماته ليرى ماذا عمل ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ .

ولذا جاء في النهاية بقوله ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ [23/80] . وليس هنا ما يدل على الأمر إلا السبيل يسره والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً وَعِنَباً وَقَضْباً وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً وَحَدَائِقَ غُلْباً وَفَاكِهَةً وَأَبّاً﴾ [عبس: 31] .

بعد ما بين له مم خلق بين له هنا كيف يطعمه وفي كليهما آية على القدرة.

وقد اتفقت الآيتان على خطوات ثلاث متطابقة فيهما فصب الماء من السماء إلى الأرض يقابل دفق الماء في الرحم وشق الأرض للنبات يقابل خروجه إلى الدنيا وإنبات أنواع النباتات يقابل تقادير الخلق المختلفة وفي التنصيص على أنواع النبات من حب وقضب وعنب ورمان وزيتون ونخيل وفواكه متعددة وحدائق ملتفة لظهور معنى المغايرة فيها مع أنها من أصلين مشتركين الماء من السماء والتربة في الأرض يسقى بماء واحد ومرة أخرى يقال للشيوعيين والدهريين ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [18-17/80] .

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ

﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً ﴾ [56/58–65].

إنهم بلا شك لا يدعون لأنفسهم فعل شيء من ذلك وإنهم ليعلمون أن لها خالقا مدبرا ولكنهم يكابرون ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ﴾ [27/14]، صدق الله العظيم وكذب كل كفار أثيم

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان خلق الإنسان في مواطن متعددة سابقة آخرها في سورة الرحمان ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ [55/14]، وبيان طعامه في كل من سورتي "الواقعة" و"الجاثية".

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴾ [عبس: 39].

الإسفار الإضاءة وهو تهلل الوجه بالسرور كما قال تعالى ﴿ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً ﴾ [76/11]، والاستبشار من تقدم البشرى في قوله تعالى ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [41/30].

وقوله تعالى ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ [57/12].

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك في سورة "الحديد".

وقوله تعالى ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ [عبس: 41].

بينهم تعالى بأنهم هم الكفرة الفجرة

وتقدم بيان ذلك للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورة الرحمان على الكلام على قوله تعالى ﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ ﴾ [55/41].

وقد جمع لهم هنا بين الكفر والفجور وهما الكفر في الاعتقاد والفجور في الأعمال كما في قوله تعالى ﴿ وَلا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ [71/27]، والعلم عند الله تعالى.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة التكوير

قوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: 1].

اختلف في معنى ﴿كُوِّرَتْ﴾ هنا أكثر من عشرة أقوال، وكلها تدور على نهاية أمرها

فقيل: ﴿كُوِّرَتْ﴾ : لف بعضها على بعض فانطمس نورها.

وقيل: حجبت بكارة أي لفت بها.

وقيل: ألقيت في البحر.

وقيل: دخلت في العرش.

وقيل: اضمحلت.

وقيل: نكست.

وقال ابن جرير: نقول كما قال الله تعالى ﴿كُوِّرَتْ﴾ .

والذي يشهد له القرآن أن هذا كله راجع إلى تغير حالها في آخر أمرها لأن الله تعالى جعل لها أجلا مسمى ومعنى ذلك أنها تنتهي إليه على الوجه الذي يعلمه سبحانه وتعالى كما في قوله تعالى ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [29/31].

فمفهومه: أنه إذا جاء هذا الأجل توقفت عن جريانها.

وهو ما يشير إليها قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [75/7–9]، أي بعد أن لم يجتمعا قط وما كان لهما أن يجتمعا قبل ذلك الوقت كما قوله تعالى ﴿لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ

النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [40/36] .

ولعل أقرب الأقوال المنقولة في ذلك هو القول بأنه بمعنى نكست أي ردت إلى حيث أتت كما في الحديث فتطلع

من مغربها وعليه فتجتمع مع القمر.

﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ [التكوير: 2] .

قيل ﴿انْكَدَرَتْ﴾ انصبت وقيل تغيرت من الكدرة وكلها متلازمة ولا تعارض

ويشهد للأول قوله تعالى ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ [2/82] .

ويشهد للثاني ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ [8/77]، لأنها إذا تناثرت وذهبت من أماكنها وتغير نظامها فقد

ذهب نورها وطمست.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: 3]

أي ذهب بها من مكانها .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان حالة الجبال في نهاية الدنيا في عدة لمطن من أهمها عند قوله

تعالى في سورة طه ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً﴾ [105/20]، وعند قوله تعالى من

سورة "الكهف" : ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [47/18] .

﴿وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: 9] .

الوأد: الثقل كما في قوله تعالى ﴿وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ [255/2] .

والموءودة: المثقلة بالتراب حتى الموت وهي الجارية كانت تدفن حية فكانوا يحفرون لها الحفرة ويلقونها فيها ثم

يهيلون عليها التراب.

وقوله تعالى: ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ إشعار بأنه لا ذنب لها فتقتل بسببه بل الجرم على قاتلها

ولكن لعظم الجرم يتوجه السؤال إليها تبكيتا لوائدها

وقد جاء عن عمر رضي الله عنه قوله أمران في الجاهلية أحدهما يبكيني والآخر يضحكني

أما الذي يبكيني فقد ذهبت بابنة لي لوأدها فكنت أحفر لها الحفرة وتنفض التراب عن لحيتي وهي لا تدري ماذا أريد لها فإذا تذكرت ذلك بكيت

والأخرى كنت أصنع إلها من التمر أضعه عند رأس يحرسني ليلا فإذا أصبحت معافى أكلته فإذا تذكرت ذلك ضحكت من نفسي.

أما سبب إقدامهم على هذه الجريمة الشنيعة وما دفعهم على ارتكابها فقد ناقشه الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه بتوسع عند قوله تعالى من سورة "النحل" ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ الآية[59/57] .

وبهذه المناسبة فإن هنا تنبيهين لا بد من إيرادهما.

التنبيه الأول

منهما ما يشبه الوأد في هذه الآونة الحديثة وهو التعرض لمنع الحمل بأي وسيلة كانت .

وقد بحثت هذه المسألة قديما وحديثا أما قديما ففي عملية العزل وجاء فيه حديث جابر"كنا نعزل والقرآن ينزل" رواه مسلم.

زاد إسحاق قال سفيان لو كان شيئا ينهي عنه لنهانا عنه القرآن وجاء فيه فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فلم ينهنا .

كما جاء التحذير الشديد في حديث جذامة بنت وهب أخت عكاشة قالت حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم في أناس قال "لقد هممت أن أنهي عن الغيلة فنظرت في الروم وفارس فإذا هم يغيلون أولادهم فلا

يضر أولادهم ذلك شيئًا" ، فسألوه عن العزل فقال: "ذلك الوأد الخفي" .

زاد عبد الله في حديثه عن المقري زيادة وهي ﴿ وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ﴾ .

(439/8)

ففي الحديث الأول: ما يفيد التقرير.

وفي الثاني: ما يفيد شدة النكير.

وجاء في صحيح مسلم أيضا عن أبي سعيد: غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة بني المصطلق فسبينا كرائم العرب فطالت علينا لغربة ورغبنا في الفداء فأردنا أن نستمتع ونعزل فقلنا نفعل ذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا لا نسأله فسألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال"لا عليكم ألا تفعلوا ما كتب الله خلق نسمة هي كائنة إلى يوم القيامة إلا ستكون" .

وفي رواية "إن الله كتب من هو خالق إلى يوم القيامة" .

وفي رواية: فقال لنا: " وإنكم لتفعلون وإنكم لتفعلون وإنكلم لتفعلون ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا هي كائنة" .

وفي رواية "لا عليكم ألا تفعلوا فإنما هو القدر"

قال أبو محمد وقوله "لا عليكم" أقرب إلى النهي.

وقال الحسن: والله لكأن هذا زجر، فأنت ترى قوله صلى الله عليه وسلم "وإنكم لتفعلون" مشعر بعدم علمه سابقا، مما يتعارض مع الزيادة في حديث جابر فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فلم ينهنا نبقي قول جابر مما يستدل به المجوزون ويعارضه وهي الموءودة أو الوأد الخفي

وكان للوأد عند العرب في الجاهلية سببان.

الأول: اقتصادي خشية إملاق ومن إملاق حاضر.

والثاني: حمية وغيرة.

وقد رد القرآن عليهم في السبب الأول في قوله تعالى﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [31/17].

وقوله ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [151/6].

وأخيرا كان هذا التساؤل شديد التوبيخ لهم﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ .

(440/8)

وفي هذه الآية أثيرت مرة أخرى وبشكل آخر أثارها أعداء المسلمين مكيدة للسذج أثيرت من الناحية الاقتصادية.

وكان مبدؤها المعروف عند كتاب هذا العصر بنظرية"مالتس" والآن لغرض عسكري لتقليل عدد جنود المسلمين حينما علم العدو أن الإسلام يبيح تعدد الزوجات مثنى وثلاث ورباع فأرادوا أن يوقفوا هذا النمو ويكفي أن نورد هنا قوله صلى الله عليه وسلم "تناكحوا تناسلوا فإني مباه بكم الأمم"

وفي رواية"مكاثر بكم الأمم"

وفيه "تزوجوا الولود الودود" ونحو ذلك.

وقد كنت جمعت في ذلك بحثا في محاضرة وافية في هذا الغرض من حيث السياسة والاقتصاد والدفاع مع عمل إحصائيات للدول التي تطالب بهذا العمل مما يدفع رأي كل قائل به .

والذي يهمنا في هذا المقام تنبيه المسلمين إلى أن هذه الدعوة إلى تحديد أو تنظيم النسل منشؤها من اليهود وتشجيعها في الشرق من دول الغرب وكثير من الدول الغربية تبذل المال الطائل لتفشي هذا الأمر في دول الشرق الأوسط وخاصة الإسلامية والعربية.

التنبيه الثاني

وهو حول ما يصرح به دعاة تحرير المرأة في صورة مناصرة لها والواقع أنهم دعاة شقائها ومعاداة لها وهدم لما مكنها الله منه في ظل الإسلام.

وذلك أن المرأة في الجاهلية كانت هذه حالة من حالاتها توأد حية وتورث كالمتاع ومهملة الشخصية إلى غير ذلك فحباها الإسلام ما يبثت شخصيتها ابتداء من إيفائها حقها في الحياة كالرجل ثم اختيارها في الزواج وحقها في الميراث إلى غير ذلك.

وقد تقدم الحديث عن ذلك في عدة محلات منها للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عند قوله تعالى ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [34/4].

(441/8)

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ [التكوير: 12].

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان هذا المعنى عند الكلام على قوله تعالى من سورة "الحج" ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [22/3–4].

﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ [التكوير: 13].

الزلفى: القربى، و ﴿أُزْلِفَتْ﴾ قربت وتقدم بيان ذلك للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورة "ق" عند قوله تعالى ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [50/31].

قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: 14]

المراد بالنفس هنا العموم أي كل نفس كما في قوله تعالى ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً﴾ [3/30].

قوله تعالى: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾

مكتبة أحمد محمد صلى الله عليه وسلم

[الحاقة: 15–19].

ظاهر قوله تعالى: ﴿فَلا أُقْسِمُ﴾ نفي القسم ولكنه قسم قطعا بدليل التصريح بجواب القسم في قوله تعالى ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [19/81]

وبهذا يترجح ما تقدم في أول سورة القيامة ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [1/75]

ومثل الآتي: ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [1/90]

تنبيه

يجمع المفسرون أن الله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته لأنها دالة على قدرته وليس للمخلوق أن يحلف إلا بالله تعالى.

ولكن هل في المغايرة بما يقسم الله تعالى به معنى مقصود أم لمجرد الذكر وتعدد المقسم به؟

(442/8)

وبعد التأمل ظهر والله تعالى أعلم أنه سبحانه لا يقسم بشيء في موضع دون غيره إلا لغرض يتعلق بهذا الموضع يكون بين المقسم به والمقسم عليه مناسبة وارتباط وقد يظهر ذلك جليا وقد يكون خفيا

وهذا فعلا ما تقتضيه الحكمة والإعجاز في القرآن وإن كنت لم أقف على بحث فيه

ولكن مما يشير إلى هذا الموضوع ما جاء بالإقسام بمكة مرتين وفي حالتين متغايرتين

الأولى قوله تعالى: ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [1/90–4].

والموضع الثاني قوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [1/95–4].

فالمقسم به في الموضعين مكة المكرمة والمقسم عليه في الموضعين خلق الإنسان ولكن في الموضع الأول كان

المقسم عليه مكابدة الإنسان من أول ولادته إلى نشأته إلى كده في حياته إلى نهايته ومماته

من ذلك مكابدته صلى الله عليه وسلم منذ ولادته إلى حيث مات أبوه قبله ولحقت به أمه وهو في طفولته وبعد الوحي كابد مع قومه ولقى منهم عنتا شديدا حتى تآمروا على قتله فلكأنه يقول له اصبر على ذلك فإن المكابدة لا بد منها وهي ملازمة للإنسان كملازمتك لهذا البلد منذ ولادتك

وفي ذكر ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ إشعار ببدء المكابدة وبأشدها من حالة الولادة وطبيعة الطفولة ولذا ذكر هنا هذا البلد بدون أي وصف.

أما في الموضع الثاني: فالمقسم عليه وإن كان هو خلق الإنسان، إلا أنه في أحسن تقويم وهي أعظم نعمة عليه جاء بالمقسم به عرضا للنعم وتعددها من التين والزيتون سواء كان لمراد بهما الفاكهة المذكورة أو أماكنها وهو بيت المقدس مع طور سينين.

(443/8)

فجاء بمكة أيضا ولكن بوصف مناسب فقال﴿ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ فكأنه يقول إن من أنعم على تلك البقاع بالخير والبركة والقداسة أنعم على الإنسان بنعمة حسن خلقته وحسن تقويمه وفضلهعلى سائر مخلوقاته والله تعالى أعلم.

وهنا يقسم بحالات الكواكب على أصح الأقوال في ظهورها واختفائها وجريانها وب﴿ اللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ : أقبل وأدبر أو أضاء وأظلم﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي أظهر وأشرق وهما أثران من آثار الشمس في غروبها وشروقها.

والمقسم عليه: هو أن القرآن قول رسول كريم كأنه يقول إن القرآن المقسم عليه حاله في الثبوت والظهور وحال الناس معه كحال هذه الكواكب الثوابت لديكم في ظهورها تارة واختفائها أخرى

وكحال الليل والصبح فهو عند أناس موضع ثقة وهداية كالصبح في إسفاره قلوبهم متفتحة إليه وعقولهمهتدية

به فهو لهم روح ونور وعند أناس مظلمة أمامه قلوبهم عمى عنه بصائرهم وفي آذانهم وقر وهو عليهم عمى وأناس تارة وتارة كالنجوم أحيانا وأحيانا تارة ينقدح نوره في قلوبهم فتظهر معالمه فيسيرون معه وتارة يغيب عنهم نوره فتخنس عنه عقولهم وتكنس دونه قلوبهم كما أتى تعالى عنهم ﴿ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ﴾ [20/2].

وليس بعيدا أن يقال: إنه من وجه آخر، تعبّر النجوم كالكتب السابقة مضى عليها الظهور في حينها والخفاء بعدها.

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ : هو ظلام الجاهلية

﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ : يقابله ظهور الإسلام وأنه سينتشر انتشار ضوء النهار ولا تقوى قوة قط على حجبه وسيعم الآفاق كلها مهما وقفوا دونه ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [8/61]

وقد يكون في هذا الإيراد غرابة على بعض الناس ولاسيما وأني لم أقف على بحث مستقل فيه ولا توجيه يشير إليه ولكن مع التتبع وجدت اطراده في مواضع متعددة وجدير بأن يفرد برسالة

ومما أطرد فيه هذا التوجيه سورة الضحى يقول الله تعالى ﴿ وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ [93/1–3]، فإن المقسم عليه عدم تركه صلى الله عليه وسلم ولا التخلي عنه فجاء بالمقسم به قسمي الزمن ليلا ونهارا كأنه يقول له ما قلاك ربك ولا تخلى عنك لا في ضحى النهار حيث تنطلق لسعيك ولا في ظلمة الليل حين تأوي إلى بيتك.

ومعلوم ما كان من عمه أبي طالب حينما كان يجعله ينام مع أولاده ليلا حتى إذا أخذ الجميع مضاجعهم يأتي خفية فيقيمه من مكانه ويضع أحد أولاده محله حتى لو كان أحد نواه بسوء وقد رآه في مكانه الأول يصادف

ولده ويسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم

وقوله ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ [4/93]، أي من كل ما طلعت عليه الشمس وسجاه الليل

ومنه أيضا وهو أشد ظهورا في سورة العصر قال تعالى﴿ وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾

[3-1/103]، إلى آخر السورة فإن المقسم عليه هو حالة الإنسان الغالبة عليه من خسر إلا من استثنى الله تعالى فكان المقسم به والعصر المعاصر للإنسان طيلة حياته وهو محل عمله الذي به يخسر ويربح وهو معاصر له وأصدق شاهد عليه.

وكنت قد سمعت من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه يقول إن العمر وزمن الحياة حجة على الإنسان كالرسالة والنذارة سواء وذكر قوله تعالى﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾

[37/35]، فجعل في الآية التعمير وهو إشغال العمر موجبا للتذكر والتأمل ومهلة للعمل كما تخبر إنسانا بأمر ثم تمهله إلى أن يفعل ما مر به فهو أملئ في الحجة عليه

فكان القسم في العصر على الربح والخسران أنسب ما يكون بينهما إذ جعلت حياة الإنسان كسوق قائمة والسلعة فيه العمل والعامل هو الإنسان كما قال تعالى﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [11-10/61]

وفي الحديث الصحيح عند مسلم "سبحان الله تملأ الميزان"، وفيه "كل الناس

(445/8)

يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها" فإن كان يشغل عمره في الخير فقد ربح وأعتق نفسه وإلا فقد خسر وأهلكها.

ويشير لذلك أيضا قوله تعالى﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [111/9].

فصح أن الدنيا سوق والسلعة فيها عمل الإنسان والمعاملة فيه مع الله تعالى فظهر الربط والمناسبة مع المقسم به

والمقسم عليه.

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ [الحاقة: 40] .

أجمعوا على أن المراد بالقول هو القرآن وأما المراد بالرسول الكريم جبريل عليه السلام بدليل قوله تعالى ﴿ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ [81/20–20] .

فصاحبكم هنا: هو محمد صلى الله عليه وسلم الذي صحبهم منذ ولادته وذو القوة عند ذي العرش هو جبريل عليه السلام وفي إسناد القول إليه ما قد يثير شبهة أن القول منه مع أنه كلام الله تعالى

وقد أجاب الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب بإيراد النصوص الصريحة في أن القرآن كلام الله تعالى وقال وإن في نفس هذه الآية ما يرد هذه الشبهة ويثبت تلك الحقيقة وهي قوله تعالى ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ ﴾ لأن الرسول لا يأتي بقول من عنده وإنما القول الذي جاء به هو ما أرسل به من غيره إلى ما أرسل إليه به .

تنبيه

في وصف جبريل عليه السلام بتلك الأوصاف

نص في تمكينه من حفظ ما أرسل به وصيانته عن التغيير والتبديل لأنه ﴿ مَكِينٍ ﴾ فلا يصل إليه ما يخل برسالته ولأنه ﴿ مُطَاعٍ ثَمَّ ﴾ والمطاع لا يؤثر عليه غيره والأمين لا يخون ولا يبدل فكان القرآن الذي جاء به مصونا من أن يتسلط أحد

(446/8)

عليه فيغيره ومن أن يغيره الذي جاء به وهذا كله بمثابة الترجمة لسند تلقي القرآن الكريم .

وقوله ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ بيان لتتمة السند حيث قال ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ [81/23–24] ، فنفى عنه صلى الله عليه وسلم نقص التلقي بنفي آفة الجنون فهو في كمال العقل

وقوة الإدراك ومن قبل أثبت له كمال الخلق ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [4/68] .

وأثبت له اللقيا فلم يلتبس عليه جبريل بغيره وهي أعلى درجات السند فاجتمع له صلى الله عليه وسلم الكمال الخلقي.

والكمال الخلقي بضم الخاء وكسرها أي الكمال حسا ومعنى ثم نفي عنه التهمة بأن يضمن بشيء مما أرسل به مع نفاسته وعلو منزلته وجليل علومه وأنه كلام رب العالمين

وفي الختام إفهامهم بأنه ليس ﴿ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ [25/81] حيث تقدم ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ [212/26] .

وأن ﴿ مَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ﴾ [9/72]، فلم يبق لهم موجب للانصراف عنه وألزموا بالأخذ به حيث أصبح من الثابت أنه كلام الله جاء به رسول كريم وبلغه لصاحبكم صاحب الخلق العظيم وليس بقول شيطان رجيم.

فلزمهم الأخذ به وإلا فأين تذهبون أين تسيرون عنه بعد أن ثبت لكم سنده ومصدره ؟

ونظير هذا السند في تمجيد القرآن وإثبات إتيانه من الله قوله تعالى في أول سورة "النجم" ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴾ [53/2–7] .

وقوله تعالى ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ [التكوير: 26] .

بمثابة من يسد عليهم الطريق إلا له لأنه أي القرآن ليس في نزوله من الله

على رسول الله صلى الله عليه وسلم أي شبهة ولا تهمة فليس للعاقل أن يحيد عنه وكل ذهاب إلى غيره فطريق مسدود وضلال وهلاك.

﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ [التكوير: 28]

أي بعد هذا البيان وقوة هذا السند وإظهار ثبوت الرسالة فقد أعذر من أنذر﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾

وقوله تعالى ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: 29].

فيه قضية القدر والإرادة الكونية والقدرية.

وقد بحثها الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في عدة مواطن

منها في سورة "الزخرف" عند قوله تعالى ﴿ لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ [20/43]، وفيها مناظرة المعتزلي مع السني.

ومنها في سورة "الذاريات" ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ [51/56–57] والفرق بين الإرادة الكونية والقدرية

تنبيه

إذا كان الكثيرون يستدلون في قضية القضاء والقدر بهذه الآية فإنه ينبغي ألا تغفل أهميتها في جانب الضراعة إلى الله دائما بطلب التفضل من الله تعالى علينا بالمشيئة بالاستقامة فضلا من عنده كما أمرنا في الصلاة في كل ركعة منها أن نطلبه هذا الطلب﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [6/1].

تنبيه آخر

لقد أجملت الاستقامة هنا وهي منبه عليها في سورة "الفاتحة" إلى صراط الذين أنعم الله عليهم كما هو معلوم والعلم عند الله تعالى.

(448/8)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الانفطار

قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: 1].

أي انشقت كما في سورة "الانشقاق" ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ [1/84] قيل: هيبة لله.

وقيل لنزول الملائكة كقوله تعالى ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلاً﴾ [25/25].

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورة الشورى عند الكلام على قوله تعالى في وصف أهوال القيامة ﴿يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ [73/17–18].

ومثل الانفطار والتشقق الانفراج كقوله ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾ [77/8–9]

﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ [الانفطار: 4].

أي بعثر من فيها كما في قوله تعالى ﴿أَفَلا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [100/9–10].

وقد دل هذا اللفظ على سرعة الانتشار كبعثرة الحب من الكف كما في قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً﴾ [70/43].

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورة "ق" عند قوله تعالى ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً﴾ [50/44].

قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: 5]

(449/8)

أي كل نفس كما تقدم في سورة "التكوير".

وقد تكلم الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه على ذلك في دفع إيهام الاضطراب في سورة الانفطار هذه عند

نفس الآية.

قوله تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: 8] تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك في سورة الكهف عند قوله تعالى ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴾ [18/37]، أي هذه أطوار الإنسان في خلقه

ومما يشهد لحسن الخلقة وكمال الصورة قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [95/4].

واختلاف الصور إنما هو من آيات الله وابتداء من الرحم كما في ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ [3/6].

وتقدم في صورة الحشر ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾ [59/24].

وفي اختلاف الصور على تشابهها من أعظم آيات الله تعالى

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَاماً كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار: 12] تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك في سورة ق عند الكلام على قوله تعالى ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [50/17–18].

وأحال عندها على بعض ما جاء في سورة مريم عند قوله تعالى ﴿ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ﴾ [19/79].

وبين رحمة الله تعالى علينا وعليه أن هذه الكتابة لإقامة الحجة على الإنسان كما ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ [17/13–14].

وقيل في: ﴿ حَافِظِينَ ﴾ يحفظون بدن الإنسان

(450/8)

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورة الأنعام عند الكلام على قوله تعالى ﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ [6/61] مستدلا بقوله تعالى: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾

[11/13] .

ومما تجدر الإشارة إليه أن في وصف الحفظة هنا بهذه الصفات من كونهم حافظين كراما يعلمون فاجتمعت لهم كل صفات التأهيل لا على درجات الكتابة من حظ وعلو منزلة وعلم بما يكتبون.

وكأنه توجيه لما ينبغي لولاة الأمور مراعاته في استكتاب الكتاب والأمناء

ولذا قالوا على القاضي أن يتخير كاتبا أمينا حسن الخط فاهما

ومن هذا الوصف يعلم أنه لا يختلط عليهم عمل بعمل وكونهم حفظة لا يضيعون شيئًا ولو كان مثقال الذرة ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ﴾ الآية[7/99] .

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ [الانفطار: 13] .

أي دائم كما في قوله تعالى ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ﴾ [9/21–22] .

﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ [الانفطار: 16] .

دليل من دلة خلود الكفار في النار.

لقوله: ﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ [82/14–16] .

كقوله تعالى ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ [2/167] .

وهكذا غالبا أسلوب المقابلة بين الفريقين ومهلهما.

ثم بين أن ذلك يوم الدين وهو يوم الجزاء كما تقدم في سورة "الفاتحة": ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [1/4] .

ثم بين تعالى شدة الهول في ذلك اليوم ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ [82/17] .

وتقدم في ﴿ الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [69/1–2] .

ومثله قوله تعالى ﴿ الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ﴾ [101/1–2] .

﴿ يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: 19] .

أي لشدة هوله وضعف الخلائق كما تقدم في قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾ [80/34–35]، وقوله ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [80/37] .

ولحديث الشفاعة "كل نبي يقول نفسي نفسي إلى أن تنتهي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيقول أنا لها .

وحديث فاطمة "اعملي. . . . . . . "

وقوله تعالى: ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [2/255]، ونحو ذلك.

وقوله ﴿ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ ، ظاهر هذه الآية تقييد الأمر بالظرف المذكور ولكن الأمر لله في ذلك اليوم وقيل ذلك اليوم كما في قوله تعالى ﴿ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [30/4] .

وقوله ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ [7/54]، أي يتصرف في خلقه بما يشاء من أمره لا يشركه أحد كما لا يشركه أحد في خلقه

ولذا قال لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [3/154] .

وقال ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [3/128] ونحو ذلك.

ولكن جاء الظرف هنا لزيادة تأكيد لأنه قد يكون في الدنيا لبعض الناس بعض الأوامر كما في مثل قوله تعالى ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ﴾ [20/132] .

وقوله ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [4/59] .

وقوله ﴿ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [11/97]، وهي كلها في الواقع أوامر نسبية ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [76/30] .

(452/8)

ولكن يوم القيامة حقيقة الأمر كله والملك كله لله تعالى وحده لقوله تعالى﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [16/40].

فلا أمر مع أمره ولا متقدم عليه حتى ولا بكلمة إلا من أذن له الرحمان وقال صوابا وهو كقوله﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ ﴾ [26/25]، مع أن هنا في الدنيا ملوكا كما في قصة يوسف﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ﴾ [50/12]

وفي قصة الخضر وموسى ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ ﴾ [79/18].

أما يوم القيامة فيكونون كما قال تعالى﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ [94/6].

وكقوله ﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾ [29/69] فقد ذهب كل سلطان وكل ملك والملك يومئذ لله الواحد القهار.

(453/8)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المطففين

قوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ [المطففين: 1]

التطفيف: التنقيص من الطفيف وهو الشيء القليل

وقد فسره ما بعده في قوله تعالى﴿ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ [3-2/83].

قالوا نزلت في رجل كان له مكيالان كبير وصغير إذا اكتال لنفسه على غيره اكتال بالمكيل الكبير وإذا كال من عنده لغيره اكتال بالمكيل الصغير ففي كلتا الحالتين تطفيف أي تنقيص على الناس من حقوقهم.

والتقديم في افتتاحية هذه السورة بالويل للمطففين يشعر بشدة خطر هذا العمل وهو فعلا خطيرا لأنه مقياس اقتصاد العالم وميزان التعامل فإذا اختل أحدث خللا في اقتصاده وبالتالي اختلال في التعامل وهو فساد كبير وأكبر من هذا كله وجود الربا إذا بيع جنس بجنسه وحصل تفاوت في الكيل أو الوزن

وفيه كما قال تعالى: ﴿ فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [279/2] .

ولذا فقد ورد ذكر الكيل والوزن والحث على العناية بهما في عدة مواطن بعدة أساليب منها الخاص ومنها العام.

فقد ورد في الأنعام والأعراف وهود و"بني إسرائيل" و"الرحمن" و"الحديد" ، أي في ست سور من القرآن الكريم.

أولا في سورة "الأنعام" ، في سياق ما يعرف بالوصايا العشر: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا

(454/8)

حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ [151/6] وذكر بر الوالدين والنهي عن قتل الأولاد والقرب من الفواحش وقتل النفس التي حرم الله والنهي عن مال اليتيم

ثم قال: ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ﴾ [152/6] .

وتكلم الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عندها كلاما موجزا مفيدا بأن الأمر هنا بقدر الوسع ومن أخل من غير قصد التعدي لا حرج عليه.

وقال ولم يذكر هنا عقوبة لمن تعمد ذلك ولكنه توعده بالويل في موضع آخر وساق أول هذه السورة ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾

كما بين عاقبة الوفاء بالكيل بقوله ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [59/4] أي مالا .

وهنا يلفت كلامه رحمه الله النظر إلى نقطة هامة وهي في قوله تعالى﴿ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

[152/6]، حيث إن التطفيف الزيادة الطفيفة والشيء الطفيف القليل

فكأن الآية هنا تقول تحروا بقدر المستطاع من التطفيف ولو يسيرا

وبعد بذل الجهد ﴿ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ ، وهذا غاية في التحري مع شدة التحذير والتوعد بالويل وإذا

كان الوعيد بالويل على الشيء الطفيف فما فوقه من باب أولى

الموضع الثاني في سورة الأعراف من قوله تعالى﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [85/7] .

فاقترن الأمر بالوفاء بالكيل بالأمر بعبادة الله وحده لأن في الأمرين إعطاء كل ذي حق حقه من غير ما نقص

(455/8)

وبين أن في عدم الإيفاء المطلوب بخس الناس أشياءهم وفساد في الأرض بعد إصلاحها .

الموضع الثالث في سورة "هود" ومع شعيب أيضا ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [الآية84-86] .

وبنفس الأسلوب أيضا كما تقدم ربطه بعبادة الله تعالى وحده وتكرار الأمر بعد النهي﴿ وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ ثم ﴿ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ نهي عن نقصه وأمر بإيفائه نص على المفهوم بالتأكيد ﴿ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ مع التوجيه بأن ما عند الله خير لهم

الموضع الرابع في سورة بني إسرائيل﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾

[29/17]، أي اعتدال في الإنفاق مع نفسه فضلاعن غيره ثم إن الله يبسط الرزق لمن يشاء ثم ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾ [31/17]، وكلها في مجال الاقتصاد وبعدها ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى ﴾ [32/17]، ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ [33/17].

وقد يكون الباعث عليهما أيضا غرض مالي ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [34/17]، وهو من أخص أبواب المال

ثم الوفاء بالعهد ثم ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [35/17]، فمع ضروريات الحياة حفظ النفس والعرض والمال يأتي الحفاظ على الكيل والوزن

الموضع الخامس في سورة الشورى وهو أعم مما تقدم وجعله مقرونا بإنزال الكتاب في قوله تعالى ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ [17/42].

(456/8)

وتكلم الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عند هذه الآية بما أشرنا إلى أنه عام فقال الميزان هنا مراد به العدل والإنصاف وأن هذا المعنى متضمن آلة الوزن وزيادة

وأورد بقية الآيات هنا في مبحث مفصل فذكر آية الرحمان وآية الحديد وتكلم على الجميع بالتفصيل.

وفي قوله تعالى في سورة الرحمان ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ [7/55]. مقابلة عظيمة بين رفع السماء الذي هو حق وعدل وقدرة والميزان وضعه في الأرض لتقوموا بالعدل والإنصاف وبهذا العدل قامت السماوات والأرض.

وفي سورة "الحديد" اقتران الميزان بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [25/57]

ومعلوم أن الميزان الذي أنزل مع الكتاب هو ميزان الحق والعدل والنهي عن أكل أموال الناس بغير حق وعدم

بخس الناس أشياءهم.

فكانت هذه الآية أعم وأشمل آيات الوفاء في الكيل والوزن بمثابة قوله تعالى﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [58/4] .

وقد جمع لفظ الأمانة ليعم به كل ما يمكن أن يؤتمن الإنسان عليه

وكذلك هنا الميزان مع الكتاب المنزل وبه يستوفي كل إنسان حقه في أي نوع من أنواع التعامل فكل من غش في سلعة أو دلس أو زاد في عدد أو نقص أو زاد في ذرع أو نقص فهو مطفف للكيل داخل تحت الوعيد بويل.

فمن باع ذهبا مثلا على أنه صاف من الغش وزن درهم وفيه من النحاس عشر الدرهم فقد نقص وطفف لنفسه فأخذ حق درهم كامل ذهبا ونقص حيث أعطى درهما إلا عشو

ومن باع رطلا سمنا وفيه عشر الرطل شحما فقد طفف بمقدار هذا العشر لنفسه ونقص وبخس المشتري بمقدار ذلك.

(457/8)

وهكذا من باع ثوبا عشر أمتار وهو ينقص ربع المتر فقد طفف وبخس بمقدار هذا الربع

وهكذا في القسمة بين الناس وبين الأولاد وبين الأهل وكل ما فيه عطاء وأخذ بين اثنين الله تعالى أعلم

ومن باب ما يذكره العلماء في مناسبات السور بعضها من بعض

فقد قال أبو حيان لما ذكر السورة التي قبلها مصير الأبرار والفجار يوم القيامة ذكر هنا من موجبات ذلك وأهمها تطفيف الكيل وبخس الوزن وهذا في الجملة متوجه ولكن صريح قوله تعالى في السورة السابقة﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [82/4–5]، فهو وإن كان عاما في كل ما قدمه لنفسه من عمل الخير وما أخر من أداء الواجبات عليه فإنه يتضمن أيضا خصوص ما قدم من وفاء في الكيل ورجحان في الوزن وما أخر في تطفيف في الكيل وبخس طمعا في المال وجمعا للتراث كما قال تعالى﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا

لَمًّا وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [89/19–24]

ومن هنا يعلم للعاقل أن ما طفف من كيل أو بخس من وزن مهما جمع منه فإنه يؤخره وراءه ومسؤول عنه ونادم عليه وقائل ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ ، ولات ساعة مندم.

قوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [المطففين: 5]، تقريع وتوبيخ لهؤلاء الناس وفيه مسألتان:

الأولى: أن الباعث على هذا العمل هو عدم اليقين بالبعث أو اليقين موجود لكنهم يعلمون على غير الموقنين أي غير مبالين كما قال الشاعر في مثل ذلك وهو ما يسمى في البلاغة بلازم الفائدة

جاء شقيق عارضا رمحه . . . إن بني عمك فيهم رماح

فالمتكلم يعلم أن شقيقا عالم بوجود الرماح في بني عمه وأنهم مستعدون للحرب

(458/8)

معه ولكنه رأى منه عدم المبالاة وعدم الاستعداد بأن وضع رمحه أمامه معترضا فهو بمنزلة من لا يؤمن بوجود الرماح في بني عمه وهو لم يرد بكلامه معه أن يخبره بأمر يجهله ولكنه أراد أن ينبهه لما يجب عليه فعله من التأهب والاستعداد وهكذا هنا وهذا عام في كل مسوف ومتساهل كما جاء "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن" إلخ.

أي وهو مؤمن بالإيمان ولوازمه من الجزاء والحساب

المسألة الثانية من قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يفهم أن مطفف الكيل والوزن وهم يعلمون هذا حقيقة غالبا ولا يطلع عليه الطرف الآخر فيكون الله تعالى هو المطلع على فعله فهو الذي سيحاسبه ويناقشه لأنه خان الله الذي لا تخفى عليه خافية سبحانه ولذا قال تعالى ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ولم يقل يوم

يقتص لكل إنسان من غريمه ويستوفي كل ذي حق حقه

تحذير شديد

قال القرطبي عند هذه الآية وعن عبد الملك بن مروان أن أعرابيا قال لقد سمعت ما قال الله في المطففين فما ظنك بنفسك وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزن ا هـ

إنها مقالة ينبغي أن تقال لكل آكل أموال الناس بغير حق أيا كان هو وبأي وجه يكون ذلك

تنبيه

من المعلوم أن كل متبايعين يطلب كل منهما الأحظ لنفسه فالمطفف لا بد أن يخفي طريقه على غريمه وذكر علماء الحسبة طرقا عديدة مما ينبغي لولي الأمر خاصة وللمتعامل مع غيره عامة أن يتنبه لها من ذلك قالوا أولا من ناحية المكيال قد يكون جرم المكيال لينا فيضغطه بين

(459/8)

يديه فتتقارب جوانبه فينقص ما يحتوي عليه ولذا يجب أن يكون إناء الكيل صلبا والغالب جعله من الخشب أو ما يعادله.

ومنها: أنه قد يكون خشبا منقورا من جوفه ولكن لا يبلغ بالتجويف إلى نهايةالقدار المطلوب فيرى من خارجه كبيرا ولكنه من الداخل صغير لقرب قعره

ومنها قد يكون منقورا إلى نهاية الحد المطلوب ولكنه يدخل فيه شيئًا يشغل فراغه من أسفله ويثبته في قعره فينقص ما يكال بقدر ما يشغل الفراغ المذكور فقد يضع ورقا أو خرقا أو جبسا أو نحو ذلك

ثانيا: من ناحية الميزان قد يبرد السنج أي معايير الوزن حتى ينقص وزنها وقد يجوف منها شيئًا ويملأ التجويف بمادة أخف منها.

ولذا يجب أن يتفقد أجزاء المعايير وقد يتخذ معايرا من الحجر فتتناقص بكثرة الاستعمال بسبب ما يتحت

منها على طول الأيام.

ومنها: أن يضع تحت الكفة التي يزن فيها السلعة شيئًا مثقلا لاصقا فيها لينتقص من الموزون بقدر هذا الشيء.

ولكيلا يظهر هذا فتراه دائما يضع المعيار في الكفة الثانية لتكون راجحة بها

وهناك أنواع كثيرة كأن يطرح السلعة في الكفة بقوة فترجح بسبب قوة الدفع فيأخذ السلعة حالا قبل أن ترجع إلى أعلام وهما الناظر أنها راجحة بالميزان

أما آلة الذرع فقد يكون المقياس كاملا وافيا ولكنه بعد أن يقيس المتر الأول يدفع بالآلة إلى الخلف ويسحب بالمذروع إلى الأمام بمقدار الكف مثلا فيكون النقص من المذروع بقدر ما سحب من القماش

وكلها أمور قد تخفي على كثير من الناس وقد وقع لي مع بائع أن لاحظت عليه في ميزان مما يرفعه بيده حتى أعاد الوزن خمس مرات في كل مرة يأتي بطريقة تغاير الأخرى حتى قضى ما عنده فالتفت إلي وقال لي لا أبيع بهذا السعر فقلت له خذ ما تريد وزن كما أريد فطلب ضعف الثمن فأعطيته فأعطاني الميزان لأزن بنفسي

وهنا ينبغي أن ننبه على حالات الباعة حينما يكون السعر مرتفعا وتجد بائعا يبيع

(460/8)

برخص فقد يكون لعلة في الوزن أو في السلعة أو مضرة الآخذ

تنبيه آخر

بهذه الأسباب وحقائقها وشدة خطرها كان عمر رضي الله عنه يتجول في السوق بنفسه ويتفقد المكيال والميزان يخرج من الهوق من يجد في مكياله أو ميزانه نقصانا ويقول لا تمنع عنا المطر

وهكذا يجب على ولاة الأمور تفقد ذلك باستمرار ولاسيما في البلاد التي يقل فيها الوازع الديني وتشتد فيها الأسعار بما يلجىء الباعة إلى التحايل أو العناد

وقد منع عمر بائع زبيب أرخص السعر لعلمه أن تاجرا قدم ومعه زبيب بكثرة فقيل لعمر لماذا منعت البيع برخص ؟ فقال: لأنه يفسد السوق فيخسر القادم فيمتنع من الجلب إلى المدينة وهذا قد ربح من قبل

تنبيه آخر

مما ينبغي أن يعلم أن نوع المكيال ومقداره ونوع الميزان ومقداره مرجعه إلى السلطان كما قال علماء الحسبة أن ع لى الأمة أن تطيع السلطان في أربع في نوع المكيال والميزان ونوع العملة التي يطرحها للتعامل بها وإعلان الحرب أو قبول الصلح.

فإذا اتخذ الصاع أو المد أو الكيلة أو الويبة أو القدح أو أي نوع كبيرا كان أو صغيرا فيجب التقييد به في الأسواق.

وكذلك الوزن اتخذ الدرهم والأوقية والرطل أو الأقة أو اتخذ الجرام والكيلو فكل ذلك له

أما إذا كان الأمر بين اثنين في قسمة مثلا كقسمة صبرة من حب فتراضوا على أن يقتسموها بإناء كبير للسرعة وكان مضبوطا لا تختلف به المرات بأن يكون صلبا ويمكن الكيل به

أو كذلك الوزن اتفقوا على قطعة حديد معينة لكل واحد وزنها عدة مرات فلا بأس بذلك لأن الغرض قسمة المجموع لا مثامنة على الأجزاء.

(461/8)

أما المكاييل الإسلامية الأساسية والموازين فقد تقدم بيانها من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في زكاة ما يخرج من الأرض وزكاة النقدين وقدمنا بيان مقابلها بالوزن الحديث في زكاة الفطر عند قوله تعالى﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [70/24-25]وبالله تعالى التوفيق

غريبة

في ليلة الفراغ من كتابة هذا المبحث رأيت الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فيما يرى النائم وبعد أن ذهب

عني رأيت من يقول لي إن لتطفيف الكيل والوزن دخلا في الربا فألحقته في أول البحث بعد أن تأملته فوجدته صحيحا بسبب المفاضلة.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: 14].

﴿رَانَ﴾ : بمعنى غطى كما في الحديث "إذا أذنب العبدنكت في قلبه نكتة سوداء وما يزال كذلك حتى يغطيه" الحديث.

وقال الشاعر:

وكم ران من ذنب على قلب فاجر. . . فتاب من الذنب الذي ران فانجلى

وقال أبو حيان وأصل الرين الغلبة يقال رانت الخمر على عقل شاربها واشتدت

ثم لما رآه رانت به الخ. . . مر وألا يريه باتقاء

بيان القراءات في هذه الآية

قال أبو حيان: قرىء ﴿بَلْ رَانَ﴾ بإدغام اللام في الراء، وبالإظهار وقف حفص على﴿بَلْ﴾ وقفا خفيفا يسيرا ليتبين الإظهار.

وقال أبو جعفر بن الباذش وأجمعوا يعني القراء على إدغام اللام في الراء إلا ما كان من سكت حفص على ﴿بَلْ﴾ ثم يقول ﴿رَانَ﴾ .

وهذا الذي ذكره كما ذكر من الإجماع

ففي كتاب اللوامع عن قالون من جميع طرقه إظهار اللام عند الراء نحو قوله

﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [158/4]، ﴿بَلْ رَبُّكُمْ﴾ [56/21].

وفي كتاب ابن عطية وقرأ نافع﴿بَلْ رَانَ﴾ من غير مدغم.

وفيه أيضا وقرأ نافع أيضا بالإدغام والإمالة

وقال سيبويه البيان والإدغام حسنان

وقال الزمخشري: وقرىء بإدغام اللام في الراء وبالإظهار والإدغام أجود وأميلت الألف وفخمت اهـ

أما المعنى فقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك وافيا في سورة الكهف عند الكلام على قوله تعالى ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ [57/18].

﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: 26].

توجيه إلى ما ينبغي أن تكون فيه المنافسة وهي بمعنى الرغبة في الشيء

قال أبو حيان: نافس في الشيء رغب فيه ونفست عليه بالشيء أنفس نفاسة إذا بخلت به عليه ولم تحب أن يصير إليه.

والذي يظهر لي والله تعالى أعلم أن ذلك من المطالبة والمكاثرة بالشيء النفيس فكل يسابق إليه ليحوزه لنفسه

وفي هذه الآية الكريمة لفت لأول السورة إذا كان أولئك يسعون لجمع المال بالتطفيف فلهم الويل يوم القيامة

وإذا كان الأبرار لفي نعيم يوم القيامة وهذا شرابهم فهذا هو محل المنافسة لا في التطفيف من الحب أو أي مكيل أو موزون.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين: 30].

وصفهم بالإجرام هنا يشعر بأنه السبب في ضحكهم من المؤمنين وتغامزهم بهم،

(463/8)

وتقدم في سورة البقرة بيان موجب آخر في قوله تعالى ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [212/2].

وقد بين تعالى في سورة "البقرة" أن الذين اتقوا فوق هؤلاء يوم القيامة، والله يرزق من يشاء بغير حساب

وتكلم الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه هناك وأحال على هذه الآية في البيان لنوع السخرية وزاد البيان في سورة الأحقاف على قوله تعالى ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ [11/46].

ومن الدافع لهم على هذا القول ونتيجة قولهم وساق آية المطففين عندها وكذلك عند أول سورة الواقعة على قوله تعالى ﴿ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴾ [3/56].

ومما تجدر الإشارة إليه، أن هذه الحالة ليست خاصة بهذه الأمة، بل تقدم التنبيه على أنها في غيرها ممن تقدم من الأمم.

ففي قوم نوح: ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾ [38/11].

وكان نفس الجواب عليهم ﴿ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ [11/38–39].

وجاء بما يفيد أكثر من ذلك حتى بالرسل في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [10/6].

ومثلها في سورة "الأنبياء" [41/21] بنص الآية المذكورة.

تنبيه

إذا كان هذا حال بعض الذين أجرموا مع بعض ضعفة المؤمنين وكذلك حال بعض الأمم مع رسلها فإن الداعية إلى الله تعالى يجب عليه ألا يتأثر بسخرية أحد منه ويعلم أنه على سنن غيره من الدعاة إلى الله تعالى وأن الله تعالى سينتصر له إما عاجلا وإما آجلا كما في نهاية كل سياق من هذه الآيات

(464/8)

﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾

[المطففين: 36]

وهذا رد على سخرية المشركين منه في الدنيا وهو كما قال تعالى﴿ وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [212/2].

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيانه في سورة المؤمنون على الكلام على قوله﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [111/23]، والحمد لله رب العالمين.

(465/8)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الانشقاق

قوله تعالى: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: 1].

تقدم الكلام عليه في أول سورة الانفطار عند قوله تعالى﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [1/82]، والإحالة على كلام الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورتي"الشورى" و"ق" . قوله تعالى: ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: 2].

تقدم بيان مادة أذن في سورة الجمعة عند الكلام على الأذان﴿ وَأَذِنَتْ﴾ هنا بمعنى استمعت وأطاعت ﴿ وَحُقَّتْ﴾ أي: حق لها أو هي محقوقة بذلك أي لا يوجد ممانع لهذا الأمر

وقد حمله بعض المفسرين على المعنى المجازي في أذنت أي لما لم يكن ممانعة من تشققها كان ذلك بمثابة الامتثال والاستماع.

وقد قدمنا أن للجمادات بالنسبة إلى الله تعالى حالة لا كهي بالنسبة للمخلوقين في مبحث أول الحشر في معنى التسبيح من الجمادات.

وقد جاء صريحا في حق السماء والأرض من ذلك قوله تعالى﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [72/33]، وقال تعالى ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ

فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [11/41].

﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ [الانشقاق: 3].

أي سويت وأزيلت جبالها وسويت وهادها كما قال تعالى ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ

(466/8)

الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً لا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً﴾ [20/105-107].

ومن هذا الحديث عن ابن عباس وعن علي وساق هذا الثاني ابن كثير عن ابن جرير بسنده إلى علي بن الحسين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا كان يوم القيامة مد الله الأرض مد الأديم حتى لا يكون لبشر من الناس إلا موضع قدميه فأكون أول من يدعى" الحديث.

وعن ابن عباس: تمد كما يمد الأديم العكاظي.

وعند القرطبي عن ابن عباس: "يزاد فيها كذا وكذا".

وقال الرازي هو بمعنى تبدل الأرض غير الأرض والواقع أن استبدال الأرض غير الأرض ليس على معنى الذهاب بهذه الموجودة والإتيان بأرض جديدة لما جاء في حديث الأذان "ما من حجر ولا مدر ولا شجر يسمع صوت المؤذن إلا سيشهد له يوم القيامة" والذي يؤتى له من جديد لا يتأتى له أن يشهد على شيء لم يشهده وعلى كل فإن تسيير الجبال وتسوية الأرض لا شك أنه يوجد زيادة في وجه الأرض ومساحتها فسواء مدت بكذا وكذا كما قال ابن عباس أو مدت بتوسعة أديمها وزيد في بسطها بعد أن تلقى ما في جوفها كالشيء السميك إذا ما ضغط فخفت سماكته وزادت مساحته كما يشير إليه قوله تعالى ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكّاً دَكّاً﴾ [89/21].

وقوله: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [69/13-16].

فيكون مد الأرض بسبب دكها فيزاد في بسطها ولعل هذا الوجه هو ما يشهد له القرآن لجمع الأمرين هنا ﴿ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ وَانْشَقَّتِ السَّمَا﴾ ، فهو وفق ما في هذه السورة ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴾ ، وبعدها: ﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق: 4]

(467/8)

قيل: ﴿ أَلْقَتْ ﴾ كنوزها ﴿ وَتَخَلَّتْ ﴾ عنها، ورد هذا بأن ذلك قد يكون قبل الساعة

وقيل ﴿ أَلْقَتْ ﴾ الموتى ﴿ وَتَخَلَّتْ ﴾ عنهم بعد قيامم وبعثهم من قبورهم فلم يبق في جوف الأرض أحد.

وقوله تعالى: ﴿ وَتَخَلَّتْ ﴾ : أي بعد أن كانت لهم كفانا أحياء وأمواتا وبعد أن كانت لهم مهادا لفظتهم وتخلت عنهم وهذا ما يزيد في رهبة الموقف وشدته والتضييق على العباد وألا ملجأ لهم ولا منجي إلا إلى الله كما قال تعالى: ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ [75/11–12].

﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: 2].

أي كما أذنت السماء فالكون كله إذن مطيع منقاد لأوامر الله طوعا أو كرها

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ ﴾ [الانشقاق: 6].

قيل: الإنسان للجنس وقيل لفرد وهو محمد صلى الله عليه وسلم ولكن السياق يدل للأول للتقسيم الآتي فأما من أوتي كتابه بيمينه وأما من أوتي كتابه بشماله لأنه لا يكون لفرد وإنما للجنس وعلى أنه للجنس فالكدح العمل جهد النفس.

وقال ابن مقبل:

وما الدهر إلا تارتان فمنهما . . . أموت وأخرى أبتغي العيش أكدح

وقال غيره مشيرا إلى أن الكدح فيه معنى النصب

ومضت بشاشة كل عيش صالح. . . وبقيت أكدح للحياة وأنصب

ويشهد لهذا قوله تعالى ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ [4/90]، كما قدمنا في محله.

تنبيه

من هذا العرض القرآني الكريم من مقدمة تغيير أوضاع الكون سماء وأرضا ووضع الإنسان فيه يكدح إلى ربه ﴿ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ ﴾ ، أي بعلمه الذي يحصل عليه من

(468/8)

خلال كدحه فإن العاقل المتبصر لا يجعل كدحه إلا فيما يرضي الله ويرضى هو به وإذا لقي ربه ما دام أنه كادح لا محالة كما هو مشاهد.

تنبيه آخر

﴿ يَا أَيُّهَا الْأِنْسَانُ ﴾ عام في الشمول لكل إنسان مهما كان حاله من مؤمن وكافر ومن بر وفاجر والكل يكدح ويعمل جاهد التحصيل ما هو مقبل عليه كما في الحديث"اعملوا كل ميسر لما خلق له" أي وجد فيه وراض به وهذا منتهى حكمة العليم الخبير.

ومما هو جدير بالتنبيه عليه هو أنه إذا كانت السماء مع عظم جرمها والأرض مع مساحة أصلها ﴿ أَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ ، مع أنها لم تتحمل أمانة ولن تسأل عن واجب فكيف بالإنسان على ضعفه ﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ ﴾ [27/79] وقد تحمل أمانة التكليف فأشفقن منها وحملها الإنسان فكان أحق بالسمع والطاعة في كدحه إلى أن يلقى ربه لما يرضيه

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً وَيَصْلَى سَعِيراً إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴾ [الانشقاق: 7-14].

في هذا التفصيل بيان لمصير الإنسان نتيجة كدحه وما سجل عليه في كتاب أعماله وذلك بعد أن تقدم في الانفطار قوله ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَاماً كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ [82/10–14].

وجاء في "المطففين": ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴾ [83/7] ثم بعده: ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ [83/18].

جاء هنا بيان إتيانهم هذه الكتب مما يشير إلى ارتباط هذه السور بعضها ببعض في بيان مال العالم كله ومصير الإنسان نتيجة عمله.

وتقدم للشيخ مباحث إتيان الكتب باليمين وبالشمال ومن وراء الظهر عند كل من

(469/8)

قوله تعالى ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ في سورة "الإسراء" –إلى قوله تعالى ﴿ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ [17/17]، وبين أحوال الفريقين أهل اليمين وأهل الشمال وأحال على أول السورة

وقوله ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ [18/49]، في سورة "الكهف" وهنا ذكر سبحانه وتعالى حالة من حالات كلا الفريقين

فالأولى ﴿ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ﴾ وهو العرض فقط دون مناقشة كما في حديث عائشة رضي الله عنها "من نوقش الحساب عذب"

والثانية يدعو على نفسه بالثبور وهو الهلاك ومنه المواطأة على الشيء سميت مثابرة لأنه كأنه يريد أن يهلك نفسه في طلبه.

وهنا مقابلة عجيبة بالغة الأهمية وذلك بين سرورين أحدهما آجل والآخر عاجل

فالأول في حق من أوتي كتابه بيمينه أنه ينقلب إلى أهله مسرورا ينادي فرحا ﴿ هَاؤُمُ اقْرَأُوا كِتَابِيَهْ ﴾

[19/69]، وأهله آنذاك في الجنة من الحور والولدان ومن أقاربه الذين دخلوا الجنة كما في قوله تعالى

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ [23/13].

وقوله ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [21/52]، فهم وإن كانوا ملحقين بهم إلا أنهم من أهلهم وهذا من تمام النعمة أن يعلم بها من يعرفه من أهله وهذا مما يزيد سرور العبد وهو السرور الدائم.

والآخر سرور عاجل وهو لمن أعطوا كتبهم بشمالهم لأنهم كانوا في أملهم مسرورين في الدنيا وشتان بين سرور وسرور.

وقد بين هنا نتيجة سرور أولئك في الدنيا بأنهم يصلون سعيرا ولم يبين سبب سرور الآخرين ولكن بينه في موضع آخر وهو خوفهم من الله في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [52/26–28].

وهنا يقال: إن الله سبحانه لم يجمع على عبده خوفان ولم يعطه الأمنان معا،

(470/8)

فمن خافه في الدنيا أمنه في الآخرة ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [55/46].

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [79/40–41].

ومن أمن مكر الله وقضى كل شهواته وكان لا يبالي فيؤتى كتابه بشماله ويصلى سعيرا كما في قوله تعالى

﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [56/41–47]، تكذيبا للبعث.

وقوله هذا هو بعينه المذكور في هذه الآيات ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ .

وقوله ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴾ ، هذا الظن مثل ما تقدم في حق المطففين ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [83/4-5] ، مما يشعر أن عدم الإيمان بالبعث أو الشك فيه هو الدافع لكل سوء والمضيع لكل خير وأن الإيمان باليوم الآخر هو المنطلق لكل خير والمانع لكل شر والإيمان بالبعث هو منطلق جميع الأعمال الصالحة كما في مستهل المصحف ﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [2/] .

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ [الانشقاق: 19] .

الشفق لغة: رقة الشيء

قال القرطبي: يقال شيء شفيق أي لا تماسك له لرقته وأشفق عليه أي رق قلبه عليه والشفقة الاسم من الإشفاق وهو رقة القلب وكذلك الشفق.

قال الشاعر:

تهوى حياتي وأهوى موتها شفقا

. . . والموت أكرم نزال على الحرم

فالشفق بقية ضوء الشمس وحمرتها فكأن تلك الرقة من ضوء الشمس

ونقل عن الخليل: الشفق: الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة إذا ذهب قيل غاب الشفق اهـ

(471/8)

وهذا ما عليه الأئمة الثلاثة في توقيت وقت المغرب من غروب الشمس إلى غياب الشفق وهو الحمرة بعد الغروب كما قال الخليل.

وعند أبي حنيفة رحمه الله أن الشفق هو البياض الذي بعده

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في بيان أوقات الصلوات الخمس عند قوله الى ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ [30/17-

18]، ورجح أن الشفق: الحمرة

ونقل القرطبي قولا قال وزعم الحكماء أن البياض لا يغيب أصلا

وقال الخليل: صعدت منارة الإسكندرية فرمقت البياض فرأيته يتردد من أفق لي أفق ولم أره يغيب

وقال ابن أويس: رأيته يتمادى إلى طلوع الفجر ثم قال قال علماؤنا فلما لم يتجدد وقته سقط اعتباره ا هـ

فهو بهذا يرجح مذهب الجمهور في معنى الشفق والنصوص في ذلك من السنة فيها مقالى

فقد روى الدارقطني حديثا مرفوعا: "الشفق الحمرة" .

وتكلم عليه الشوكاني ثم ذكر من يقول به من الصحابة وهم ابن عمر وابن عباس وأبو هريرة وعبادة ومن الأئمة الشافعي وابن أبي ليلى والثوري وأبو يوسف ومحمد من الفقهاء والخليل والفراء من أهل اللغة

فأنت ترى أن أبا يوسف ومحمدا من أصحب أبي حنيفة وافقا الجمهور.

وفي شرح الهداية أيضا رواية عن أبي حنيفة

أما ما ذكره القرطبي ففيه نظر أي من جهة عدم غياب البياض فإن المعروف عند علماء الفلك أن بين الأحمر والأبيض مقدار درجتين والدرجة تعادل أربع دقائق وعليه فالفرق بسيط والله تعالى أعلم

وقوله ﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ ، هو الجمع والضم للشيء الكثير ومنه سمي

(472/8)

الوسق بمقدار معين من مكيل الحب وهو ستون صاعا وقيل فيه معان أخرى ولكن هذا أرجحها

والمعنى هنا والليل وما جمعه من المخلوقات قيل كأنه أقسم بكل شيء كقوله تعالى﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لا تُبْصِرُونَ﴾ [69/38-39] .

وقوله ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ ، أي اتسع أي تكامل نوره وهو افتعل من وسق والقاعدة الصرفية أن فاء الفعل المثالي أي الذي فاؤه واو وإذا بنى على افتعل تقلب الواو تاء وتدغم التاء في التاء كل في وصلته فاتصل ووزنته

فاتزن أو تصل أو تزن وهكذا هنا أو تسق.

وقوله ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ ﴾ : قال ابن جرير اختلف القراء في قراءته فقرأه عمر بن الخطاب وابن مسعود وأصحابه وابن عباس وعامة قراء مكة والكوفة﴿ لَتَرْكَبَنَّ ﴾ بفتح التاء والباء واختلف قارؤوا ذلك في معناه فقال بعضهم يعني يا محمد ويعني حالات الترقي والعلو والشدائد مع القوم وهذا المعنى عن مجاهد وابن عباس وقيل ﴿ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ ﴾ : يعني سماء بعد سماء أي طباق السماء وهو عن الحسن وأبي العالية ومسروق وعن ابن مسعود أنها السماء تتغير أحوالها تتشقق بالغمام ثم تحمر كالمهل إلى غير ذلك وقد رجح القراءة الأولى والمعنى الأول

وقرأ عامة قراء المدينة وبعض الكوفيين﴿ لَتَرْكَبُنَّ ﴾ بالتاء وبضم الباء على وجه الخطاب للناس كافة وذكر المفسرون لمعناه حالا بعد حال معان عديدة طفولة وشبابا وشيخوخه فقرا وغنى وقوة وضعفا حياة وموتا وبعثا رخاء وشدة إلى كل ما تحتمله الكلمة.

وقال القرطبي الكل محتمل وكله مراد والذي يظهر والله تعالى أعلم أن ذلك إنما هو بعامة الناس ويكون يوم القيامة إذ السياق في أصول البعث ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴾ ، ﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ وذكر الحساب المنقلب ثم التعبير بالمستقبل﴿ لَتَرْكَبُنَّ ﴾ ، ولو كان لأمر الدنيا من تغير الأحوال لكان

أولى به الحاضر أو الماضي وإن كان من المستقبل ما سيأتي من الزمن لكنه ليس بجديد إذ تقلب الأحوال في شأن الحياة أمر مستقر في الأذهان ولا يحتاج إلى هذا الأسلوب.

أما أمور الآخرة من بعث وحشر وعرض وميزان وصراط وتطاير كتب واختلاف أحوال الناس باختلاف المواقف في عرصات القيامة فهي الحرية بالتنبيه عليها والتحذير منها والعمل لأجلها في كدحه إلى ربه فلذا جاء

بذلك وهو مشعر باستمرار حالة الإنسان بعد الكدح إلى حالات متعددة ودرجات متفاوتة.

ولو اعتبرنا حال المقسم به من حيث تطور الحال من شفق أو آخر ضوء الشمس ثم ليل وما جمع وغطى بظلامه ثم قمر يبدأ هلالا إلى اتساق نوره لكان انتقالا من تغير حركات الزمن إلى تغير أحوال الإنسان قطعا وأن القادر على ذلك في الدنيا قادر على ذلك في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [الانشقاق: 25] قيل: المن: القطع والنقص ومنه قول الشاعر:

لمعفر قهد تنازع شلوه . . . غبس كواسب ما يمن طعامها

والقهد ضرب من الضأن تعلوه حمرة صغيرة آذنه والكواسب الوحوش أي ذئاب أو سباع لا ينقطع طعامها

وقال القرطبي مننت الحبل إذا قطعته

وسأل نافع بن الأزرق ابن عباس عنها فقال غير مقطوع فقال هل تعرف ذلك العرب قال نعم قد عرفه أخو يشكر حيث يقول:

فترى خلفهن من سرعة الرج

. . . ع منينا كأنه أهباء

قال المبرد المنين الغبار لأنها تقطعه وراءها

وقيل: ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أي غير ممنون به عليهم لتكمل النعمة عليهم

وقال ابن جرير ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ : أي غير محسوب ولا منقوص وذكره عن ابن عباس ومجاهد

(474/8)

وقال ابن كثير غير مقطوع كقوله تعالى ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [108/11]، ورد قول من قال إنه غير ممنون به عليهم لأن لله تعالى أن يمتن على عباده وهم ما دخلوا الجنة إلا بفضل من الله ومنه عليهم انتهى

ومما يشهد لقول ابن جرير غير محسوب عموم قوله تعالى﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [37/3]، وخصوص قوله عالى ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [40/40]

وقوله تعالى ﴿ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً﴾ [36/78]، فهو بمعنى كافيا من قولك حسبي بمعنى كافيني والذي يظهر والله تعالى أعلم أن كلا من المعنيين مقصود ولا مانع منه وما ذهب إليه ابن كثير لا يتعارض مع قول الآخرين لأن المن الممنوع هو ما فيه أذى وتنقيص كما في قوله﴿ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنّاً وَلا أَذىً﴾ [262/2]، أما المن من الله تعالى على عبده فهو عين الإكرام والزلفي إليه سبحانه والعلم عند الله تعالى

(475/8)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة البروج

قوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [البروج: 1] .

البروج: جمع برج، واختلف في المعنى المراد به هنا هل هي المنازل أو الكواكب أو قصور في السماء يهال حراسها ؟

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك في سورة الحجر عند الكلام على قوله تعالى﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً﴾ [16/15]، وفي سورة الفرقان عند قوله تعالى﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً﴾ [61/25] .

وقيل: إن أصل هذه المادة من الظهور ومنه تبرج المرأة وساق بيان المعنى المقصود من بروج السماء وعدد المنازل المذكورة.

ومناسبة ارتباط السور بعضها ببعض فإن بعض المفسرين يقول لما ذكر مال الفريقين وتطاير الصحف في السورة

الأولى ذكر هنا عملا من أشد أعمال الكفار مع المؤمنين في قصة الأخدود

والذي يظهر أقوى من هذا هو والله تعالى أعلم أنه لما ذكر سابقا انفطار السماء وتناثر النجوم وانشقاق السماء وإذنها لربها حق لها ذلك جاء هنا بيان كنه هذه السماء أنها عظيمة البنية بأبراجها الضخمة أو بروجها الكبيرة فهي مع ذلك تأذن لربها وتطيع وتنشق لهول ذلك اليوم وتنفطر فأولى بك أيها الإنسان والله تعالى أعلم

﴿ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴾ [البروج: 2] . هو يوم القيامة بإجماع المفسرين وقد كانوا يوعدون به في الدنيا فهو اليوم الموعود به كل من الفريقين كما قال تعالى في حق المؤمنين ﴿ لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [103/21]، وفي حق الكفار ﴿ فَذَرْهُمْ

(476/8)

يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ [83/43]

وسيعترفون بذلك عند البعث حينما يقولون ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [52/36] .

فاليوم الموعود هو يوم القيامة الموعود به لجازات كلا الفريقين على عملهم

قوله تعالى: ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ [البروج: 3] .

لم يصرح هنا من الشاهد وما المشهود وقد ذكر الشاهد في القرآن بمعنى الحاضر كقوله تعالى ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [185/2]، وقوله ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ [73/6] .

وذكر المشهود بمعنى المشاهد باسم المفعول كقوله تعالى ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴾ [103/11]

فالشاهد والمشهود قد يكونان من المشاهدة وذكر الشاهد من الشهادة والمشهود من المشهود به أو عليه كما في قوله تعالى ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً ﴾ [41/4] .

فشهيد الأولى: أي شهيد على الأمة التي بعثت فيها وشهيد الثانية أي شاهد على الرسل في أممهم

ومن هنا اختلفت أقوال المفسرين إلى ما يقرب من عشرين قولا

قال ابن جرير ما ملخصه الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة أو النحر وعزاه لعلي وأبي هريرة والشاهد

محمد صلى الله عليه وسلم والمشهود يوم القيامة وعزاه لابن عباس والحسن بن علي

والشاهد الإنسان، والمشهود يوم القيامة وعزاه لمجاهد وعكرمة

والشاهد هو الله والمشهود هو يوم القيامة وعزاه لابن عباس

ثم قال: والصواب عندي أنه صالح لكل ما يقال له مشاهد ويقال له مشهود فلم يفصل ما إذا كان بمعنى الحضور

أو الشهادة ومثله القرطبي وابن كثير.

(477/8)

وقد فصل أبو حيان على ما قدمنا فقال إن كان بمعنى الحضور فالشاهد الإنسان والمشهود يوم القيامة ولما ذكر

اليوم الموعود ناسب أن يذكر كل من يشهد في ذلك اليوم ومن يشهد عليه وذكر نحوا من عشرين قولا

وقال: كل له متمسك والذي يظهر والله تعالى أعلم أنه من باب الشهادة لأن ذكر اليوم الموعود وهو يكفي عن

اليوم المشهود بل إنه يحتاج إلى من يشهد فيه وتقام الشهادة على ما سيعرض فيه لإقامة الحجة على الخلق لا

لإثبات الحق.

وقد جاء في القرآن تعداد الشهود في ذلك اليوم مما يتناسب مع العرض والحساب

ومجمل ذلك أنها تكون خاصة وعامة وأعم من العامة فمن الخاصة شهادة الجوارح على الإنسان كما في قوله

تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [41/20]،

وقوله: ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [36/65] وهذه

شهادة فعل ومقال لا شهادة حال كما بينها قوله تعالى عنهم﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ

الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [41/21–22]، ورد الله زعمهم ذلك بقوله ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [41/23] .

وتقدم للشيخ بيان شهادة الأعضاء في سورة يس وفي سورة النساء عند قوله تعالى ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً ﴾ [4/42]، وشهادة الملائكة وهم الحفظة كما في قوله تعالى ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ [50/23]، وقوله: ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [50/21]، ثم شهادة الرسل كل رسول على أمته كما في قوله عن عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [5/117]، فهذا وإن كان في الحياة فسيؤديها يوم القيامة

وكقوله في عموم الأمم ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [16/89] .

(478/8)

ومنها شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم على جميع الرسل كما في قوله تعالى ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾ [4/41] .

ومنها شهادة هذه الأمة على سائر الأمم كما في قوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [2/143] .

ومنها شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم على هذه الأمة لقوله تعالى ﴿ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ [2/143] .

ومنها شهادة الله تعالى على الجميع.

وهذا ما يتناسب مع ذكر اليوم الموعود وما يكون فيه من الجزاء والحساب على الأعمال ومجازاة الخلائق عليها وسيأتي في نفس السياق قوله ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [85/9] وهو كما ترى لا يتقيد بشاهد

واحد وأيضا لا يعارض بعضها بعضا.

فاختلاف الشهود وتعددهم باختلاف للشهود عليه وتعدده من فرد إلى أمة إلى رسل إلى غير ذلك وكلها داخلة في المعنى وواقعة بالفعل.

وقد ذكرت أقوال أخرى ولكن لا تختص بيوم القيامة

ومنها أن الشاهد الله والملائكة وأولوا العلم والمشهود به وحدانية الله تعالى

ومنها الشاهد المخلوقات والمشهود به قدرة الله تعالى فتكون الشهادة بمعنى العلامة

وأكثر المفسرين إيرادا في ذلك الفخر الرازي حيث ساقها كلها بأدلتها إلا ما ذكرناه من السنة فلم يورده

وقد جاء في السنة تعيين الشهادات لغير ما ذكر.

منها الشهادة للمؤذن: "ما يسمع صوته شجر ولا حجر ولا مدر إلا شهد له يوم القيامة" .

(479/8)

ومنها شهادة الأرض على الإنسان بما عمل عليها المشار إليه في قوله تعالى﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ [99/4] . ومسلم،

ومنها شهادة المال على صاحبه فيم أنفقه

ومنها شهادة الصيام والقرآن وشفاعتهما لصاحبهما ونحو ذلك والله تعالى أعلم

تنبيه

في هذا العرض إشعار يتعلق بالقضاء وكمال العدالة وهو إذا كان رب العزة سبحانه وتعالى وهو على كل شيء شهيد وبكل شيء عليم وموكل حفظة يكتبون أعمال العباد ومع ذلك لم يقض بين الخلائق بما يعلمه منهم ولا بما سجلته ملائكته ويستنطق أعضاءهم ويستشهد الرسل على الأمم والرسول صلى الله عليه وسلم على الرسل أي بأنهم بلغوا أممهم رسالات الله إليهم فلأن لا يقضي القاضي بعلمه من باب أولى والعلم عند الله تعالى

وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم قوله"إنكم تحتكمون إلي وإنما أنا بشر أقضي لكم على نحو ما أسمع فمن اقتطعت له شيئًا من حق أخيه إنما أقطع له قطعة من نار" الحديث أي كان من الممكن أن يتنزل عليه الوحي ولاسيما في تلك القضية بعينها إذ قالوا في مواريث درست معالمها ولا بينة بينهما ولكن إذا نزل الوحي عليه صلى الله عليه وسلم فيها فمن بالوحي لمن يأتي بعده في القضاء ؟

ولذا قال صلى الله عليه وسلم " البينة على المدعي واليمين على من أنكر" .

ومعلوم أن البينة فعيلة من البيان فتشمل كل ما يبين الحق من شهادة وقرينة كما في قصة يوسف من القرائن مع إخوته ومع امرأة العزيز. إلخ.

﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ [البروج: 5] .

قال أبو حيان وجواب القسم في قوله تعالى ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ قيل محذوف فقيل لتبعثن ونحوه وقيل مذكور فقيل ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [10/85] ونحوه وقيل: ﴿ قتل ﴾ ، وهذا نختاره وحذفت اللام أي لقتل

(480/8)

وحسن حذفها كما حسن في قوله ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ [1/91]، ثم قال ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ [1/91] ، أي لقد أفلح ويكون الجواب دليلا على لعنة الله على من فعل ذلك وتنبيها لكفار قريش الذين يؤذون المؤمنين ليفتنوهم عن دينهم

وإذا كان ﴿ قُتِلَ ﴾ هي الجواب فهي جملة خبرية وإذا كان الجواب غيرها فهي جملة إنشائية دعاء عليهم وقرىء ﴿ قُتِّلَ ﴾ بالتشديد قرأها الحسن وابن مقسم وقرأها الجمهور بالتخفيف ا هـ

والأخدود: جمع خد وهو الشق في الأرض طويلا وقوله﴿ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ الوقود بالضم وبالفتح والقراءة بالفتح كالسحور والوضوء فبالفتحا توقد به كصبور والماء المتوضأ به والطعام المتسحر به وبالضم المصدر

والفعل والوقود بالضم ما توقد به

ذكر صاحب القاموس و: ﴿ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴾ : بدل من الأخدود.

وقيل في معناها عدة أقوال حتى قال أبو حيان كسلت عن نقلها

ونقل الفخر الرازي ثلاثة منها.

والمشهور عند ابن كثير ما رواه أحمد ومسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال "كان فيمن كان قبلكم ملك وكان له ساحر فلما كبر الساحر قال للملك إني قد كبر سني وحضر أجلي فادفع إلي غلاما لأعلمه السحر فدفع إليه غلاما كان يعلمه السحر وكان بين الساحر والملك راهب فأتى الغلام الراهب فسمع من كلامه فأعجبه وكان إذا أتى الساحر ضربه وقال ما حبسك وإذا أتى أهله ضربوه وقالوا ما حبسك فشكا ذلك إلى الراهب فقال إذا أراد الساحر ضربك فقل حبسني أهلي وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل حبسني الساحر فبينما هو ذات يوم إذ أتى على دابة عظيمة فظيعة قد حبست الناس فلا يستطيعون أن يجوزوا فقال اليوم أعلم أمر الراهب أحب إلى الله أم أمر الساحر قال فأخذ حجرا فقال اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس ورماها فقتلها ومضى الناس فأخبر الراهب بذلك فقال أي بني أنت أفضل مني وإنك ستبتلى فإن ابتليت فلا

(481/8)

تدل علي فكان الغلام يبرىء الأكمه والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم وكان للملك جليس أعمى فسمع به فأتاه بهدايا كثيرة فقال اشفني فقال ما أنا أشفي أحدا إنما يشفي الله عز وجل فإن آمنت به دعوت الله فشفاك فآمن فدعا الله فشفاه ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس فقال له الملك يا فلان من رد عليك بصرك فقال ربي فقال أنا قال لا ربي وربك الله قال ولك رب غيري قال نعم ربي وربك الله فلم يزل يعذبه حتى دله على الغلام فبعث إليه فقال أي بني بلغ من سحرك أن تبرىء الأكمه والأبرص وهذه الأدواء فقال أما أنا لا أشفي

أحدا إنما يشفي الله عز وجل قال أنا قال لا قال أولك رب غيري قال ربي وربك الله فأخذه أيضا بالعذاب حتى دل على الراهب فأوتي بالراهب فقيل ارجع عن دينك فأبى فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه وقال للأعمى ارجع عن دينك فأبى فوضع المنشار في مفرقه أيضا وقال للغلام ارجع عن دينك فأبى فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا وقال إذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فدهدهوه فذهبوا به فلما علوا به الجبل قال اللهم اكفنيهم بما شئت فرجف بهم الجبل فدهدهوا أجمعون وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك فقال ما فعل أصحابك فقال كفانيهم الله تعالى فبعث به نفرا إلى البحر في قرقور فقال إذا لججتم به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فأغرقوه فقال الغلام اللهم أكفنيهم بما شئت فغرقوا هم وجاء الغلام حتى دخل على الملك فقال للملك إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به قال ما هو قال تجمع الناس في صعيد واحد ثم تصلبني على جذع وتأخذ سهما من كنانتي ثم قل بسم الله رب الغلام فإنك إن فعلت ذلك قتلتني ففعل ووضع السهم في قوسه ورماه به في صدغه فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات فقال الناس آمنا برب الغلام فقيل للملك أرأيت ما كنت تحذر فقد والله وقع بك قد آمن الناس كلهم بأمر بأفواه السكك فخدت فيها الأخاديد وأضرمت فيها النيران وقال من رجع عن دينه فدعوه وإلا فأقحموه فيها قال فكانوا يتمادون ويتدافعون فجاءت امرأة بابن لها ترضعه فكأنها تقاعست أن تقع في النار فقال الصبي اصبري يا أماه فإنك على الحقّ وقد قيل إن الغلام دفن فوجد زمن عمر بن الخطاب ويده على صدغه كلما رفعت خرج الدم من جرحه وإذا تركت أعيدت على الجرح. وقد سقنا هذه القصة وهي من أمثل ما جاء في هذه المعنى لما فيها من

(482/8)

العبر والتي يمكن أن يستفاد منها بعض الأحكام حيث إن ابن كثير عزاها للإمام أحمد بن حنبل ومسلم أي لصحة سندها مرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك الآتي

الأول: أن السحر بالتعلم كما جاء قصة الملكين ببابل هاروت وماروت يعلمان الناس السحر

الثاني: إمكان اجتماع الخير مع الشر إذا كان الشخص جاهلا بحال الشر كاجتماع الإيمان مع الراهب مع تعلم السحر من الساحر.

ثالثا: إجراء خوارق العادات على أيدي دعاة الخير لبيان الحق والتثبيت في الأمر كما قال الغلام اليوم أعلم أمر الراهب أحب إلى الله أم أمر الساحر ؟

الرابع: أنه كان أميل بقلبه إلى أمر الراهب إذ قال اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك فسأل عن أمر الراهب ولم يسل عن أمر الساحر ؟

الخامس: اعتراف العالم بالفضل لمن هو أفضل منه كاعتراف الراهب للغلام

السادس: ابتلاء الدعاة إلى الله ووجوب الصبر على ذلك وتفاوت درجات الناس في ذلك

السابع: إسناد الفعل كله لله إنما يشفي الله

الثامن: رفض الداعي إلى الله الأجر على عمله وهدايته: ﴿ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [90/6].

التاسع: بيان ركن أصيل في قضية التوسل وهو أن مبناه على الإيمان بالله ثم الدعاء وسؤال الله تعالى

العاشر: غباوة الملك المشرك المغلق قلبه بظلام الشرك حيث ظن في نفسه أنه الذي شفي جليسوهو لم يفعل له شيئًا وكيف يكون وهو لا يعلم؟

الحادي عشر: اللجوء إلى العنف والبطش عند العجز عن الإقناع والإفهام أسلوب الجهلة والجبابرة

الثاني عشر: منتهى القسوة والغلظة في نشر الإنسان بدون هوادة

(483/8)

الثالث عشر: منتهى الصبر وعدم الرجوع عن الدين وهكذا كل في الأمم الأولى وبيان فضل الله على هذه الأمة إذ جاز لها التلفظ بما يخالف عقيدتها وقلبها مطمئن بالإيمان

وقد جاء عن الفخر الرازي قوله الآية تدل على أن المكره على الكفر بالإهلاك العظيم الأولى به أن يصبر على ما

خوف منه وأن إظهار كلمة الكفر كالرخصة في ذلك والله وروى الحسن أن مسيلمة أخذ رجلين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال لأحدهما تشهد أني رسول الله فقال نعم فتركه وقال للآخر مثله فقال لا بل أنت كذاب فقتله فقال النبي صلى الله عليه وسلم "أما الذي ترك فأخذ بالرخصة فلا تبعة عليه وأما الذي قتل فأخذ بالأفضل فهنيئًا له"

وتقدم بحث هذه المسألة للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه

الرابع عشر: إجابة دعوة الغلام ونصرة الله لعباده المؤمنين اللهم اكفنيهم بما شئت

الخامس عشر: التضحية بالنفس في سبيل نشر الدعوة حيث دل الغلام الملك على الطريقة التي يتمكن الغلام بها من إقناع الناس بالإيمان بالله ولو كان الوصول لذلك على حياته هو

السادس عشر: إبقاء جسمه حتى زمن عمر رضي الله عنه إكراما لأولياء الله والدعاة من أن تأكل الأرض أجسامهم.

السابع عشر: إثبات دلالة القدرة على البعث.

الثامن عشر: حياة الشهداء لوجود الدم وعودة اليد مكانها بحركة مقصودة.

التاسع عشر: معرفة تلك القصة عند أهل مكة حيث حدثوا بها تخويفا من عواقب أفعالهم بضعفة المؤمنين كما هو موضح في تمام القصة.

العشرون: نطق الصبي الرضيع بالحق.

قوله تعالى: ﴿ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴾ [البروج: 6] .

الضمير في قوله ﴿ هُمْ ﴾ ، والضمير في قوله ﴿ قُعُودٌ ﴾ ذكر فيهما خلاف.

فقيل راجعان إلى من أحرقوا وأقعدوا عليها.

وقيل راجعان إلى الكفار.

وعليه نفي قوله ﴿ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴾ إشكال وهو كيف يتمكن لهم القعود على النار.

فقيل إنها رجعت عليهم فأحرقتهم فقعودهم عليها حقيقة

وقيل قعود على حافتها كما تقول قعود على النهر أو على البئر أو على حافته وحوله كما يقال نزل فلان على ماء كذا أي عنده.

وأنشد أبو حيان بيت الأعشى:

تشب لمقرورين يصطليانها . . . وبات على النار الندى والمحلق

وقد استدل صاحب القول الأول بقوله تعالى الآتي ﴿ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ [10/85]

فقال الحريق في الدنيا وجهنم في الآخرة

ولكن في الآية قرينة على أن الضمائر راجعة إلى الكفار الذين قتلوا المؤمنين وأحرقوهم وهي قوله ﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾ [10/85]، حيث رتب العذاب المذكور على عدم التوبة وجاء بثم التي هي للتراخي مما يدل على أنهم لم تحرقهم نارهم انتقاما منهم حالا بل أمهلوا ليتوبوا من فعلتهم الشنيعة وإلا فلهم العذاب المذكور في الآخرة والله تعالى أعلم.

﴿ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ [البروج: 7].

بمعنى حضور يتفق قوله تعالى: ﴿ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴾ [6/85]، أي حضور يشاهدون إحراق المؤمنين وهذا زيادة في التبكيت بهم إذ يرون هذا المظهر بأعينهم ولم يشفقوا بهم ولم يعتبروا بثباتهم

قوله تعالى: ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [البروج: 8].

هذا ما يسمى أسلوب المدح بما يشبه الذم ونظيره في العربية أقوال الشاعر

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم . . . بهن فلول من قراع الكتائب

وذكر أبو حيان قول الشاعر وهو قيس الرقيات

ما نقموا من بني أمية إلا . . . أنهم يحلمون إن غضبوا

وقول الآخر:

ولا عيب فيها غير شكلة عينها . . . كذاك عناق الطير شكلا عيونها

يقال عين شكلاء إذا كان في بياضها حمرة قليلة يسيرة

وقدمنا أن نقمتهم عليهم للمستقبل كما في قوله تعالى ﴿ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ ﴾ ، لا على الماضي إلا أن آمنوا لأنهم كانوا يقولون لهم إما أن ترجعوا عن دينكم وإما أن تلقوا في النار ولم يحرقوهم على إيمانهم السابق بل على إصرارهم على الإيمان للمستقبل.

والإتيان هنا بصفتي الله تعالى ﴿ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ إشعار بأنه سبحانه قادر على نصرة المؤمنين والانتقام من الكافرين إذ العزيز هو الغالب كما يقولون من عز بز ولكن جاء وصفه بالحميد ليشعر بأمرين

الأول أن المؤمنين آمنوا رغبة ورهبة رغبة في الحميد على ما يأتي ﴿ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴾ [14/85]، ورهبة من العزيز كما سيأتي في قوله ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [12/85]، وهذا كمال الإيمان رغبة ورهبة وأحسن حالات المؤمن.

والأمر الثاني: حتى لا ييأس أولئك الكفار من فضله ورحمته كما قال ﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا ﴾ [10/85] إذ أعطاهم المهلة من آثار صفته الحميد سبحانه

﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ .

تأكيد وبيان العزيز الحميد إذ لا يخرج عن سلطانه أحد فهو القاهر فوق عباده وهو المدبر أمر ملكه سبحانه وتعالى.

﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

ربط بأول السورة ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ [3/85]، فهو سبحانه على كل شيء شهيد ومن ذلك فعل أولئك وفيه شدة تخويف أولئك وتحذيرهم ومن على شاكلتهم بأن الله

(486/8)

تعالى شهيد على أفعالهم فلن تخفى عليه خافية .

وقد جاء بصيغة المبالغة في شهيد لما يتناسب مع هذا المقام كما فيه المقابلة بالفعل كما كانوا قعودا على النار وشهودا على إحراق أولياء الله تعالى فإنه سبحانه سيعاملهم بالمثل إذ يحرقهم وهو عليهم شهيد

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا ﴾ [البروج: 10] .

يحتمل أن يكون مرادا به أصحاب الأخدود و﴿ فَتَنُوا ﴾ بمعنى أحرقوا ويحتمل أن يكون عاما في كل من أذى المؤمنين ليفتنوهم عن دينهم ويردوهم عنه بأي أنواع الفتنة والتعذيب

وقد رجح الأخير أبو حيان وحمله على العموم أولى ليشمل كفار قريش بالوعيد والتهديد وتوجيههم إلى التوبة مما أوقعوه بضعفة المؤمنين كعمار وبلال وصهيب وغيرهم

ويرجح هذا العموم العموم الآخر الذي يقابله في قوله﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ [11/85]،فهذا عام بلا خلاف في كل من اتصف بهذه الصفات

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [البروج: 12] .

في مقام المنطوق بالمفهوم من﴿ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ ، كما تقدم.

﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ [البروج: 13] .

قيل: يبدىء الخلق ويعيده كالزرع والنبات والإنسان بالمولد والموت ثم بالبعث

وقيل يبدأ الكفار بالعذاب ويعيده عليهم واستدل لهذا بقوله﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ [56/4] .

وفي الحديث: "ما من صاحب إبل لا يؤدي زكاتها إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر ثم يأتي بها أوفر ما تكون سمنا فتطؤه بخفافها فتستن عليه كلما مر عليه أخراها أعيد عليه أولها حتى يقضي بين الخلائق فيرى مصيره إما إلى جنة وإما إلى نار"

(487/8)

إلى آخر الحديث في صاحب البقر والغنم والذهب.

ولكن الذي يظهر والله تعالى أعلم هو الأول، لأنه يكثر في القرآن كقوله تعالى﴿ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [10/4] وقوله ﴿ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [10/34].

وجعله آية على قدرته ودليلا على عجز ونقص الشركاء في قوله في أول هذه الآية﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ورد عليهم بقوله ﴿ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ، وقوله ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [21/104].

قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ [البروج: 18].

بعد عرض قصة أصحاب الأخدود تسلية للمؤمنين وتثبيتا لهم وزجرا للمشركين وردعا لهم جاء بأخبار لبعض من سبق من الأمم وفرعون وثمود بدل من الجنود وهم جمع جند وهم الكثرة أصحاب القوة وحديثه ما قص الله من خبره مع موسى وبني إسرائيل.

وفي اختيار فرعون هنا بعد أصحاب الأخدود لما بينهما من المشاكلة والمشابهة إذ فرعون طغى وادعى الربوبية كملك أصحاب الأخدود الذي قال لجليسه ألك رب غيري ولتعذيبه بني إسرائيل بتقتيل الأولاد واستحياء النساء وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ولتقديم الآيات والبراهين على صدق الداعية إذ موسى عليه السلام قدم لفرعون من آيات ربه الكبرى فكذب وعصى والغلام قدم لهذا الملك الآيات الكبرى إبراء الأكمه والأبرص بإذن الله وعجز فرعون عن موسى وإدراكه وعجز الملك عن قتل الغلام إنجاه الله من

الإغراق والدهدهة من قمة الجبل فكان لهذا أن يرعوي عن ذلك ويتفطن للحقيقة ولكن سلطانه أعماه كما أعمى فرعون.

وكذلك آمن السحرة لما رأوا آية موسى وخروا لله سجدا

وهكذا هنا آمن الناس برب الغلام فوقع الملك فيما وقع فيه فرعون إذ جمع فرعون السحرة ليشهد الناس عجز موسى وقدرته فانقلب الموقف عليه وكان أول

(488/8)

الناس إيمانا هم أعوان فرعون على موسى وهكذا هنا كان أسرع الناس إيمانا الذي جمعهم الملك ليشهدوا قتله للغلام.

فظهر تناسب ذكر فرعون دون غيره من الأمم الطاغية السابقة وإن كان في الكل عظة وعبرة ولكن هذا منتهى الإعجاز في قصص القرآن وأسلوبه والله تعالى أعلم

وكذلك ثمود لما كان منهم من مظاهر القوة والطغيان وقد جمعها الله أيضا معا في سورة "الفجر" في قوله ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ [89/9–10] وهكذا جمعها هنا ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ .

قوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ [البروج: 19] .

أي مستمر في كل الأمم وتقدم في سورة الانفطار قبلها﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ﴾ [22/84] .

فقال الكرماني محمود بن حمزة بن نصر تاج القراء في كتابه أسرار التكرار في القرآن إن المغايرة لمراعاة رؤوس الآي والفواصل ولكن الظاهر من السياق في الموضعين مراعاة السياق لا فواصل الآي لأن في سورة "الانشقاق" الحديث مع المشركين: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ﴾ [22/84] .

وفي سورة "البروج" هنا ذكر الأمم من فرعون وثمود وأصحاب الأخدود والمشركين في مكة ثم قال﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ [19/85]، فناسب هذا هنا وناسب ذاك هناك والله تعالى أعلم

(489/8)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الطارق

قوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ [الطارق: 1] أصل الطرق في اللغة الدق ومنه المطرقة ولذا قالوا للآتي ليلا طارق لأنه يحتاج إلى طرق الباب

وعليه قول امرىء القيس:

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع

. . .

فألهيتها عن ذي تمائم محول

أي جئتها ليلا وقول الآخر:

ألم ترياني كلما جئت طارقا

. . .

وجدت بها طيبا وإن لم تطيب

وقول جرير:

طرقتك صائدة القلوب وليس طا ذا

. . .

وقت الزيارة فارجعي بسلام

مكتبة أمة محمد صلى الله عليه وسلم

وفي الحديث "أعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن" فهو لفظ عم في كل ما يأتي شيئ المفاجىء ولكأنه يأتي في حالة غير متوقعة ولكنه هنا خص بما فسر به بعده في

قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق: 3] .

فقيل: ما يثقب الشياطين عند استراق السمع، كما تقدم في قوله تعالى ﴿ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَداً ﴾ [9/72]، فيكون عاما في كل نجم.

وقيل: خاص، فقيل: زحل وقيل: المريخ وقيل: الثريا، لأنه إذا أطلق النجم عند العرب، كان مرادا به الثريا وتقدم هذا للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في أول سورة النجم" .

(490/8)

وقيل ﴿ الثاقب ﴾ المضيء يثقب الظلام بضوئه وعليه فهو للجنس عامة لأن النجوم كلها مضيئة

قال القرطبي وقال سفيان كل ما في القرآن ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ فقد أخبره به وكل شيء قال فيه ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ ، لم يخبره به.

والواقع أنه الغالب فقد جاءت ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ ثلاث عشرة مرة كلها أخبره بها إلا واحدة وهي في الحاقة ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ [3/69] وما عداها، فقد أخبره بها وهي: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ ﴾ [74/27-28] .

وفي المرسلات ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴾ [14/77] .

وفي الانفطار ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً ﴾ [82/17-19] .

وفي "المطففين" ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴾ [83/8-9] .

وفي "البلد" ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ [90/12-13] .

وفي "القدر" ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [97/2-3].

وفي "القارعة" ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ [101/3].

وأيضا ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [101/9-11]، وفي هذه السورة" ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ فكلها أخبره عنها إلا في "الحاقة"

تنبيه

يلاحظ أنها كلها في قصار السور من"الحاقة" وما بعدها أما: ﴿ مَا يُدْرِيكَ﴾ فقد جاءت ثلاث مرات فقط ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً﴾ [33/63]، في "الأحزاب" ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [42/17]، في "الشورى" ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ [80/3] في "عبس وتولى" فلم يخبره فيها صراحة إلا أنه في

(8/491)

مكتبة أمة محمد صلى الله عليه وسلم

الثالثة قد يكون أخبره لأنه قال ﴿ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ فهو وإن لم يصرح هل هو تزكى أم لا، إلا أن لعل من الله تعالى للتحقيق كما هو معلوم.

تنبيه آخر

قال كثير من المفسرين أقسم الله بالسماء وبالنجم الطارق لعظم أمرهما وكبر خلقهما كما في قوله ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [56/75-76]، ولأنه أقسم بالنجم إذا هوى وفيما تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ترجيح كون مواقع النجوم ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ [53/1]، إنما هو نجوم القرآن وتنزيله منجما وهو به نزول الملك به على النبي صلى الله عليه وسلم

﴿ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: 4].

قيل ﴿ حافظ ﴾ ، لأعماله يحصيها عليه كما في قوله ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾

[18/50] .

وقيل: ﴿ حافظ ﴾ أي حارس كقوله تعالى ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [11/13]، والسياق يشهد للمعنيين معا لأن قوله تعالى بعده ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ [86/5-7] يدل على أنه في تلك المراحل في حفظ فهو أولا ﴿ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾ [23/13] .

وفي الحديث: "إن الله وكل بالرحم ملكا" الحديث.

وبعد بلوغه سن التكليف يجري عليه القلم فيحفظ عليه عمله فلا مانع من إرادة المعنيين معا وليس هذا من حمل المشترك على معنييه لأن كلا من المعنيين له متعلق يختص بزمن خلاف الآخر

﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ [الطارق: 5] .

﴿ الْإِنْسَانُ ﴾ هنا خاص ببني آدم وذريته عامة ولم يدخل فيه آدم ولا حواء ولا عيسى عليه السلام لأنه بين ما خلق منه وهو في قوله تعالى ﴿ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ .

(492/8)

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان هذه الآية عند قوله تعالى ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ [16/4]، في سورة النحل وفي سورة الواقعة عند قوله تعالى ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ [56/58-59]، وتقدمت الإشارة إليه عند قوله تعالى ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ [76/2]، في سورة "الدهر" .

قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ [الطارق: 8] .

﴿ إنه ﴾ هنا أي إن الله ﴿ عَلَى رَجْعِهِ ﴾ ، الضمير فيه قيل راجع للماء الدافق أي أنه سبحانه قادر على رجع هذا الماء من حيث خرج كرد اللبن إلى الضرع مثلا ورد الطفل إلى الرحم وهذا مروي عن عكرمة

ومجاهد .

وقيل على رجع الإنسان بعد الموت وهذا وإن كان في الأول دلالة على القدرة ولا يقدر عليه إلا الله إلا أن في السياق ما يدل على أن المراد هو الثاني لعدة أمور

الأول: أن رد الماء لم يتعلق به حكم ولا أمر آخر سوى إثبات القدرة بخلاف رجع الإنسان بعد الموت فهو قضية الإيمان بالبعث ويتعلق به كل أحكام يوم القيامة

الثاني: مجيء القرآن بالخلق الأول دليل على الإعادة بعد الموت كقوله تعالى في يس﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ -أي من ماء دافق-قال ﴿ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [36/78-79]، أي ﴿ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ .

الثالث: أن الأول يحتاج معه إلى تقدير عامل ليوم تبلى السرائر نحو اذكر مثلا بخلاف الثاني فإن العامل فيه هو ﴿ لَقَادِرٌ ﴾ أي لقادر على رجعه يوم تبلى السرائر

ونقل أبو حيان عن ابن عطية قوله وكل من خالف ذلك إنما فر من أن يكون﴿ لَقَادِرٌ ﴾ هو العامل في الظرف لأنه يوهم أن قدرته على رجعه مقيدة بذلك

ولكن بتأمل أسلوب العرب يعلم جوازه لأنه قال ﴿ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ على الإطلاق أولا وآخرا وفي كل وقت ثم ذكر تعالى وخصص من الأوقات الوقت الأهم

(493/8)

على الكفار، لأنه وقت الجزاء والوصول إلى العذاب للتحذير منه ا هـ

فظهر بذلك أن الضمير في ﴿ رَجْعِهِ ﴾ عائد للإنسان أي بعد موته بالبعث وأن العامل هو ﴿ لَقَادِرٌ ﴾

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ [الطارق: 9] .

تقدم للشيخ رحمة الله علينا وعليه بيانه عند الكلام على قوله تعالى﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ ﴾

[30/10]، وساق عندها هذه الآية وسيأتي التصريح به في سورة العاديات عند قوله تعالى ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴾ [100/9–10] وقد أجمل ابتلاء السرائر.

وكذلك أجمل الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بإيراد الآيات

وذكر المفسرون أن المراد بها أمانة التكليف فيما لا يعلمه إلاالله ومثلوا لذلك بالحفاظ على الطهارة للصلاة وغسل الجنابة وحفظ الصوم ونحو ذلك ومنه العقائد وصدق الإيمان أو النفاق عياذا بالله

والسرائر هي كل ما يخفيه الإنسان حتى في المعاملات مع الناس كما في الأثر" الكيس من كانت له عند الله خبيئة سر" ، وقوله: ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ﴾ [13/67]، فالسر ضد الجهر، وقال الأحوص:

سيبقى لها في مضمر القلب والحشا

. . . سريرة ود يوم تبلى السرائر

قال أبو حيان سمعه الحسن فقال ما أغفله عما في السماء والطارق

﴿ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ [الطارق: 10].

قالوا: ليس من قوة في نفسه لضعفه ويدل عليه قوله ﴿ وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [48/18].

وقوله: ﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ [43/68] أي من الضعف وشدة الخوف ولا ناصر له من غيره كما في قوله ﴿ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا ﴾ [43/18]

(494/8)

وقوله ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ [19/82].

قوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾ [الطارق: 12].

قيل رجع السماء إعادة ضوء النجوم والشمس والقمر

وقيل: ﴿ الرَّجْعِ ﴾ : الملائكة ترجع بأعمال العباد.

وقيل ﴿ الرَّجْعِ ﴾ : المطر وأرزاق العباد ﴿ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾ ، قيل: تنشق عن الخلائق يوم البعث.

وقيل تنشق بالنبات.

والذي يشهد له القرآن: أن الرجع والصدع متقابلان من السماء والأرض بالمطر والنبات

كما في قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴾ [80/24-28]، والله عالم أعلم.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ [الطارق: 13] .

قال ابن كثير: قال ابن عباس حق. وكذا قال قتادة وقال آخرون: حكم عدل وقال القرطبي إنه أي القرآن يفصل بين الحق والباطل.

وقيل هو ما تقدم من الوعيد في هذه السورة ﴿ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ [86/8-9] .

وقال أبو حيان بما قال به القرطبي أولا ثم جوز أن يكون مرادا به الثاني أي أن الإخبار عن رجع الإنسان يوم تبلى السرائر قول فصل وهذا ما يفيده كلام ابن جرير وعزاه النيسابوري إلى القفال

وسياق السورة يشهد لهذا القول الثاني لأن السورة كلها في معرض إثبات القدرة على البحث وإعادة الإنسان بعد الفناء حيث تضمنت ثلاثة أدلة من أدلة البعث

الأول: السماء ذات الطارق لعظم خلقها وعظم دلالتها على القدرة